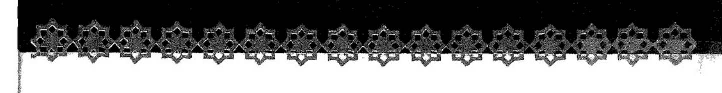
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء الثالث عشر

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث عشر

دمشق

١٩٩٥م ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السادس

- من البرق الشامي للعماد الاصفهاني
- الفتح القسي في الفتح القدسي ـ للعماد الاصفهاني

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سـلف لنا التعـرف الى بعض المؤرخين المسـلمين الذين عاصروا وصول الغزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبـار الصراع مع هؤلاء الغزاة ادركنا كم هي هامة السنوات التي تـولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لاحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صـاحب النيل على تـاريخه ، وكان العماد الاصفهاني ـ وفيما بعد ابن شـداد ـ قـد شـارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فـائق الاهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الأهمية بددتها صنعة الكلام التـي ابتلي بها العماد أكثر من سواه من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بـن حـامد الاصـفهاني ، ولد في اصفهان سنة٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومـات بـدمشق سـنة ٥٩٧ هـ ١٢٠١م ، وهو بعمره المديد كان شاهد القرن السـادس للهجـرة الثاني عشر للميلاد .

انحدر العماد من اسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منهـا بـالادارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العمـاد قد نشأ في اصفهان ، وفيها تلقى علومه الاولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الادارية ، وتمتـع بالسلطة وعانى من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفجعة آنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ /١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعدة شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيأ له السبل للعمل في ادارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثر هذا بامد وجيز استخدمه صلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشارات مفصلة للعماد وللادوار التي تولاها ، لابل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العماد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم ـ بحكم كونه اتقن نظم الشعر ـ بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وذيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ ـ كتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسلاطين السلاجقة ووزرائهم وأعيان دولهم ورجالاتهم ، وبنى أصل هذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير أنو شروان بن خالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » ، ونظرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قام الفتح البنداري في العصر الايوبي بتهذيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبوع في ايدي الناس ، هذبه البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ ـ كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » ويقال « الفيح القسي » وهي الذي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه أن العماد استهدف من تصنيفه التأريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود ، وفي الحقيقة أرخ به العماد للفترة الممتدة من سنة٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او أخر في كتابه .

٣ ـ « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعل هذا الكتاب في سبعة اجزاء ، ارخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ حتى وفاة صلاح الدين ، اي ارخ فيه للدولتين النورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابو شامة في كتابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي باكمله ، بل وصل الينا من أجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جل المتبقي من الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسها والمكان نفسه ، وذلك اعتمادا على المخطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في اكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العامة بالرباط ، وهي مصورة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السوسي ، ولانعرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغته ، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقة جدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة محفوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص اكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتسمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة الصفحات : ١٧٠ ــ ١٧٩ من الجزء الخامس المذشور في عمان فوجدت فيها / ١١٥ / كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابن واصل هذه المصاعب فاقتصرا بالنقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فهذب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجديد المهذب « سنا البرق الشامي » وسلف للباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة من هذا الكتاب فنشر الجزء الأول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ محققا بشكل معتدل من قبل فتحية نبراوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احقق فوائد تذكر في تحقيق الموجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقارىء لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتدانه بنفسه وبالادوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء - ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها واودعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ماكتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نفقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب النيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقاريء العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ - ذي القعدة - ١٤١٥ هـ
١٥ نيسان - ١٩٩٥ .

من

كتاب البرق الشامي

للعماد الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت بـه في بحـار الانعـام بالاخلاص والحمد القلوب والالسنة ، والزمان التـي تقضـت على انتظار احسـانه الازمنة ، والعصر الذي أحسـنت بـه الأمـة المؤمنة ، وظهـر فيه المكان المقـدس الذي سـلمت اسـلامته الأمكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة • وتمكنت من رقـاب أعداء الله بـه الا سـنة بـأيدي أوليائه المتملكة المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الحبور الاجفان المتوسنة .

وفي هذه السـنة نزل نص النصر ، وكفـت كف الكفـر ، وعلت اعلام الاسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهـم ايدي الأيد بالفتك ، وضاقت بهم رحاب الملك ، وطمـت للدين بـالسواحل بحـار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخـذلت الملة النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من تلك الأسرة تحـت الرق ، وطـالت ألوية الأولياء ، وسـالت أودية الاوداء ، ونال الأحمـاء فضـل رب السـماء ، وتجلت مـذاهب النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب مـن الخبيث ، وانتقـم التـوحيد مـن التثليث ، ودنت للدين اعانة العين ، واغاثـة المغيث ، وشـاع في الدنيا بمحـاسن الأيام الصـلاحية حسـن الأحاديث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثـروه في البـلاء مـن التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التـي فجـأتهم فعمتهـم بالكسر الكريث ، وافتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار ، وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلي وتليت الاذكار ، واعترف من عادته الجحـود وأقـر مـن دأبـه

الاذكار ، وملكت من معاقل الكفر على من باض فيها وفرخ الأوكار ، واعترى ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات الممنوحات في هذا العام عشي ايامه والابكار ، وكانوا كما قال الله تعالى :« وترى الناس سكارى وماهم بسكارى » فبالله ذلك العذاب الشديد والاسكار ، وقد وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحوال ، ووسعت ووشعت الاقوال ، وحليت الفتوح ، وامليت الشروح ، وأهديت المذوح ، ونفخت في أجسام تلك الأيام باحياء ذكرها الروح

وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته الجليلة ، وحالته الحالية ، وقيمته الغالية ، وفضيلته الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مباركة ومكرمة من لطف الله متداركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب بالرغائب وقرب جنحية الاقارب والاقاصي . . . ٠٠٠ مظهرات مكرماته والجوهم على عادات علاء عداته (١)٠ ٠٠٠ وسمات حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الاسعاد ، وأمد ديار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من الاطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في القصد من التفريط والافراط ، وبرز من دمشق يوم السبت أول محرم في العسكر العرمرم ، والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب الى العدو والباس المقدم ، ومضى بأهل الجنة بالجهاد الى أهل جهنم ، فلما وصل الى راس الماء (٢) اتخذها منبع نحو الهيجاء ومضمار خيل الاجراء ومثار العجاج المكرر على نهار الروع ليل

الظلماء ، وجعلها مطلع فلق فيالقة ، ومحيط مضارب سرادقة ، ومجال رواعده على بوارقه ، ومجر سوابغه مجرى سوابقة ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقائقة ، ومحشر معاشرة ، ومربض آساده وقساوره ، ومخيم جيوشه ومجثم عساكره ، وأمر ولده الملك الافضل نور الدين عليا بالاقامة هناك ليستدني اليه الأمراء الواصلين والاملاك ، ويجمع الأعراب والأعاجم والأتراك ، ويداوم لما... (٣)فرط الاستدراك ولايفارق لما يلزمه الاحاطة بعمله الادراك ، ويضم لمجمع الاجناد الاشتات ، ويجم لموسم الجهاد الأوقات ، وسار السلطان الى بصرى ، وخيم على قصر السلامة ، وقد استقبل من الله الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه للهدنة • واعتماده من قطع الطريق واخافة السبيل كل مافي المكنة • وهو على طريق العسكر المصري والحاج • شديد الالتجاج • وفي بحر اللجاج • وكان في الحج حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين • ووالدته اخت السلطان مع جملة من الخواص المقربين ، وأقام الى تلقي الحجيج • واستقبل محيا لقائهم البهيج • وريا رؤاهم الأريج • وخلا من منعلم سره • وتجلى لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صفر • ووجه صباحته لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فرغ باله • جم الى الكرك استقلاله • وتقدم بمن معه من العساكر حتى نزل على حصنها نزول الحاص الحاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبرق • ونوقد ونحرق • ونرمق ونومق ، ونهرق ونزمق ، ونغرب ونشرق ، ونضايق ونضيق ، ونجمع البلاء على تلك البلاد ونمزق ، حتى اجتثت أصولها وفروعها ، واستأصل كرومها

وزروعها ، وقطع ماوجده من لينة ، وأذهب ماراقه من زينة ، وفرى وقرى وفصم العرى ، وابسط الذرى ، وهجم على ظهر الثرى ، وحلب حر النجح هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد باشارة رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر المصري متصل المدد ، محتفل العدد والعدد متضح الجد والجدد ، ومضطرم للهام ، ملتهم للضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهج الجمع ، آخذة بوارقه ورواعده ، بالبصر والسمع ، فقوي الاستظهار واستظهرت القوى ، وساقت وراقت مزاينه المجلوبة ومحاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودها بالنصر الأكمل والغنم الأجزل .

أما الملك الأفضل فانه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق ، وأتوه من كل فج عميق وضاق بوفودهم الفضاء ، وفاض بوفورهم القضاء ، واجتمع من دجى عثيرهم ومشى بذورهم الظلام والضياء ، واشتبكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحاب من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحافل من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاماهم على حينه ، فرأى الملك الأفضل ان يشغلهم بغزوة يعودون منها بحظوة ، فأنهض منهم سرية سرية نخية على ذوي البسالة والبأس والشدة والمراس ، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق • وهو الذي بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق • وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز • وهو يفوق عضاء مضاربه الصارم

الهرماز والعضب الجــراز • فــأسرجوا الخيل • وأدلجــوا الليل . وجروا من الســابريات النيل • وأجــروا مــن الأعوجيات السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخــر صفر • وصباح النصر قد افتغر • فخرج اليهم الفــرنج في حشــود جهنــم وريوديلملــم • وجذود ابليس واســود تحمــي العــريس.

وسراحين على سراحيب • وأهــــــاضيب تتحلحــــــل أهـــاضيب • وتعتقـــل انابيب وتشـــــتمل شآبيب • في الداوية بـــــأدواتها • والاســــبتار بــــأسوائها • والبــــــارونية بـــــلأوائها • والتـــــركبولية وأربيائهــــــا • والفـــــرنجية بضرضائها • ووثبــوا في وثبــات الآســـاد • وحملوا في ثبـــات الأجواد • فلولا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهــدى أهــل هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاســلام لايعتــز بــالأجر • لكن أمـــرائه الكرام اســتطابوا الحمـــــام • فــــلاقوهم بقلوب الصخور • وحبور الصــقور • وبــاشروا بصـــــدورهم صــــدور الأسنة • وغامروا بنحـــورهم نحـــور الأعنة ، فآتــاهم الله النصر المني ، والظفر الســني ، وســقوا منهــم حنين الحنايا • وأدركوا فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحــازوا وانتصروا • وقتلوا وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فــرسانهم في قبضة الأسار • وعادوا سالمين سالبين • غانمين غالبين • وقــد كبسوا وكسبوا • وسحبوا نيول الاختيال بصدق ماحسبوا •وكانت تلك الذوبـــة الحلوة • والخـــــطوة الصـــــفوة • بــــــاكوره البركات • ومقدمة مابعدها من ميامن الحــركات • واندرج ان الله يعلي لأوليائه الدرجـــــات • ويســــوق زمـــــــر اعدائه الى الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشــوبك ندور ونجول • ونجور ونذور وعلى الأعداء منا الدحور والثبــور • فلمــا قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللباث وعقدنا عزم الانبعاث • واستمهلنا مهول الأوعاث .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بـــالعساكر ، وانتـــظم عمــــــل الأوائل والأواخر ، وخيمنا على عشترا ، والقــدر يقــول للســلطان تعيش وترى ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشــتمل المعســكر على فراسخ عرضا وطولا ، وملأ بالملأ حزونا وسهولا ، فما يرى الا خيل صفون رحض كأنهــا حصــون ، وزعف مــوضون ، وعضــب مســـذون ، وفيض مـــكذون ، وحـــركة وســـكون ، وركوب وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحــر مــن العســكر في البـــر مشــحون، وضــاقت الأيام عن عرضـــها ، وتقـــاضت الليالي بقــرضها ، ونزلت جنود ســمائها الى جنود ارضـــها ، فللمقــانب مناقب، وللمواكب من الخرصان كواكب ، وللكتائب من الشــجعان مناكب ، وللذوائل ذوائب ، وللعصب من البيارق عصــائب ، وللريح سحائب ، وللوهج مشارق ومغارب ، وللمراكب مراقب وللســلاهب جنائب .وللحقائق حقائب، وللمواهب مــذاهب ، وفي كل يوم انفــاق وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتــلاء واعتــلاق ، واعتناء واعتناق ، واجتمــاع لاافتــراق ، وانطــلاق واندلاق ، وامتـــراء وامتراق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفــاق مــن ألوية الأولياء واصطفاق ، وضمر وعتاق ، وسمر ودقــاق ، وبيض رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجود دهاق ، وعرض العســكر في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشــتمل على عدة جنائب اسعاد أتت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بهــا الرياح ، ورمـــاح شـــيلها المراح ، ورواسي ســـــواري ، وأعلام جواري ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمـــام ، وضـــارب بضرام وهام لهام لهام ، وضلغم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحـــاسم بحسام ، ومقدام لهمام قمقام ، وفارس للأســد فــارس ، وللروع ممار ممارس ، وللصبح بما يثيره حابس ، وبـــاشر بـــالكريهة غير عابس ، قادح لسنا ‌السنابك قابس ، مناف لعداة الاســلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله مظاهر ، ولمعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، وللفتخ الكواسر كاسر ، ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجد حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء الأرض . والتطم البحر . والتمم الجمع * والتهب الجمر . واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت الضمر . وبرقت البيض والسمر . وردت بالردى العداة الزرق المنايا الحمر . وذشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنضرة ثمر النصرة أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الغر الأيام الغبر . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر. واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحديده وحدته . وبيضه ومجره ولجبه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا .وعين رجال القلب ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها . والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام .والمقدمة والساقة على سنن النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال .وعين الجاليشية من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير موضعه .ولكل منير مطلعه . ولكل اسل مركزه ولكل سحبل منهزه .ولكل أسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم موكبه . وقرر مظانهن في الركوب والنزول والثبوت والحلول .ومعارج الصفوف .ومدارج الزحوف .ومناهج الحتوف . ومخارج المئين . وموالج الألوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بـالعساكر .والأسـد القسـاور . والفتـخ الكواسر . والقضـب البـواتر . والفلك المواخر • والسحب المواطـر • والسـدم الدياجـر • والحمس الزوائر • والغر السـوافر • والبيض الزواهـر • والسـمر الشواجر • والبيض المغافر • والقـوم المعـاشر • والبـاد والحاضر • والخف والحـافر • والصـلب والمساجر • والأكارم والأكابـر • والسـاعي والسـائر • والعـالي والفاخر في عابيات سفره . رعن الرعن لعابيات كفره . حزن الحزن وهي . مغاوير هدى . دان لها التقـدير الخمـائر عدى . دنا منهـا التدمير . وسارت على ترتيبها وتعبئتها وتنكيبها وتدقيبها محشورة عصائبها منشورة ذوائبها . سائلة أوديتها . جائلة ارضها . فهـي تخرق الخرق . وتغرق الغـرق على الفـرق . تمـلأ الوهـاد بهوائها . وتكلأ من العوادي بعواديها . وأناخت ليلة السـبت على خسفين والكفر مخسوف .والشرك مـكسوف . وكل جبـل بلجبهـا منسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف . وللاقـدام في لج الاقـدام رسوب ورسوف . والدين في فضله وعدله وللكفر عسـوف . وبـاتت تلك الليلة والرماح مـركوزه والصـفاح مهـزوزة . وللمقـربات تصال . وللمضروبات صقال . وللمنسوجات اجراء . وللشريجيات اغراء . وللعـوج رنان . وللأعوجيات رهـان . وللقسـاطل اقساط . وللصواهل أصوات . وللسـلامة امـراط . وللاسـتقامة صراط . ولأوراد المنايا فراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسـنة اقراط . ولحكم الظفـر مـن مقتضـيات القـدر مناط . وللقيام اشتراط . وللقتـاد اختـراط ، وللعسـكر بسـاط . وللعثير اضباط ، وللهمم اعبـاط . وللدهـم ارتبـاط . وللبهـم اختباط . وللأمـم احتياط . وللعـزم نشـاط . وللحـزم يشاط . وللغماغم اختـلاط . وللصـوارم اشـتطاط . وللنجـم مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في الارتجاج والجو في الارتياج . والدو في الامتراج . وقلب الكفـر في

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو الأمواج والأفواج . وتلتها افق العجاج . وقوس الترائك لامعة في الابراج . ومضايق الزحام داعية الى الانفراج . والأسد سابحة في غاب القنا الى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفة على الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشاج . وأعنة السرايا مسرعة للادلاج . وليل الخيل داج . وطرف الغزالة ساج . ورعب الجيش يخامر الدهر شاج . وذقود الرواحل من عقود الرواغب في رواج . والشوارع نازعة لالجاء واسراء من الجام واسراج . ونزلوا بثغر الاقحوانة حروض راء . وعقد غير واء . وعزم غير باء . وعز متباء ، وسعد متناء . وحكم أمر ناء . وعيون ذات اسباء . ووجوه نضر ذي اتجاء . ومضاء الفضاء مضاء . وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء . وضربت الخيام . وغصت الوهاد والآكام . واشتد الغرام . وامتد الضرام . ووجد بالجد العرام . وتقدمت المساعي وسعت الأقدام . وعلت الأعلام الأعلام . وزها الاسلام . وأمكن من الكفر الانتقام . وحمي التحزب الحمام . وشد التخرم الحزام . وأقام الطيف . وطاب المقام . وزاد في الكف اكفاء الكفاح مراح الرماح . وتصافح الصفاح . وعرف كيف ركوب الجبال للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقام السلطان هناك خمسة ايام الى يوم الخميس . في ذلك الخميس بضراغم الخيس . وقساور العريس . وبنات قواعد التأسيس . وأساة المضايق بالتنفيس . وحماة الحقائق في طوري الايحاش والتأنيس . وولاة الفيالق المباشرة بالبشر يوم التعبيس . ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس من بلاد الشرك بدار الدربيس . واقتداح زناد الافراج . وانهاض جناح النجاح . الى ارداء اهل الجناح . وكيف وأين ومتى يكون اللقاء . وهل يفترق الأحباب . وقد اجتمع الاعداء . ثم صممنا

العزائم على تثبيت الأقدام للاقدام . وسلب لبس السلامة من ملابس عداة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن التغاير والتنافس الى التضافر والتوانس . وقالوا :نحن انصار النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب العصبية . وعمدة المعمودية . وداروا بدر افاويق الوفاق . ونزعوا الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا على مرابه مطلع امانيه بالمخلص. ثم تزاوروا وتوازروا. وتضافروا وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستنفروا . والتأموا واشلاموا . وتذمروا وتذمموا . وتخطوا وتورطوا . واخترموا واخترطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا وخبطوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا صليب الصلبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار باللجب الجرار . وار يفلح الاوار . ضار بلا ضرار . مستمر مع اسرار . غمر من الأغمار . وكل مغو مغوار . وباد بادبار . وناز بزنار . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس • وفارس للآساد فراس • وداوي داء خبيثه عضال • واسبثاري له دون تباره نضال . وباروني يبارى البوار . وتركبولي لا يترك الغوار ، وينزع النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهز أفعوانا . وكل شيطان يجر لهتخ ماء الارواح أشطانا . وكل متميز في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكعوب القنا متوقح . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يغض

الجمع الجم كأنه حمر الغضا . مقتحم للطبيعة النارية شواظ لظى . ضرب كالعضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري بصرامة . وناري يلفح . وحجري يقدح . ومارد مارج . وصرف الشر ممازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم جار . عاس على العجم جاس في الهجم . خاس في الرجم . قاف اثر الغي . كاف بعين البغي . جاف على الذشر والطي . حاف في الزعف راد بالزحف . ساق بالحتف .ناصب بالفعل جازم بالحذف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم مجترح محترف الموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبح ملتفع ملثم القطوب ملتفح مصطلم لثلم الخطوب مصطلح ، وكل ذي فضفاض وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائغ ، وعار في الدماء والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل لاسع بعاسل ، وكلب نابح وثعلب ضابح ، وسرحان سارح ، وذئب جارح ، وزرق تمتش بزرق الأسنة ، وشقر تعبي الشقر بصرف الأعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتبك جرائر ، ومبتكر جرائم ومشرك عظائم رئبال ، وامعط مغتال ، وأمرط ضال ، فعاموا في بحر العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام الوغى ، واصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج المنايا نجح المنا ، ومشوا الى المداناة ، ونأوا عن الونى ، وطمى سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبح فوقى النقع بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة الوقع ، واحتابوا مواقع واجتنبوا سوابق ، والمعوا والبوارق • واسمعوا الصواعق • وقربوا السوابق • وأبعدوا الخوانق • وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشابوا المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

السلب في العوامل كعاسلات النحل مسدساتها بالأبر ، وطـال الشر وطار الشرار ، وشق الامر ، وسقت المرار ، واخضرت الغبراء من الحديد ، واغبـرت الخضراء مـن الصـعيد ، وسـاحت السيول ، وسالت الشـعاب ، وتغـايضت البحـار ، وتضـايقت الرحاب ، وتموج بضراغمة الغـاب ، وأرعبـت ايمـاض البـروق واصعاد الرعود ، فالكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختـام القتام بالفضاء في فض ، وغدران الغـران في فيض ، والنجـوم في انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاض ، والعوامل في ارتعاض ، والعواهل في اضـطراب ، والصـواهل في اصـطخاب والجيش شاك ، والعيش شاك ، والاشراك ناصب واشراك وخاطب ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثـائر ثـار ، ونيران المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

ومازال السلطان لله مستخيرا ، وبعـونه مسـتجيرا ، ولأعوانه مستشيرا ، فـأشار الامـراء ذووا الآراء بـالصدود عن اللقـاء والمحافظة على نضار الاسلام بصـون الذمـاء وحقـن الدمـاء وقالوا : لم يسبقك أحـد الى مضـايقة القـوم ، ومحـاققة المزم في الرقم ، ومابلغ الأملاك قبلك الا مابلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد ماارغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشـام فـلا تغـرركم تنقال المعركة ، ولاتلق بأيديهم الى التهلكة، وهذه بـلادهم قـد خلت منهم، ونأت بقربهم ضـياعهم ، فنشـتغل بـالاغارة على بـلادهم الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحـالية ، ونرجـع بـالغنائم والسبايا والمرباع والصفايا ، ومانزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد البلايا ، ونخلص من ادسانهم عاجلا أو آجلا ، بالقود والسبايا .

فقــال الســلطان : ان الأيام غير مـــأمونة ، والأعمـــار غير مضمونة ، والجهاد فـــرض فـــرضه رســـــل الله في أرضــــه وسمائه ، وندبر بطوله وعرضه عرضه ، ولابد من هذا اللقــاء أمــا وإمــــا وإن الله اصــــدق القــــائلين :« ولينصرن الله مــــن ينصره » فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فانا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • ســار الخميس • وزحــف بــأسده العريس.وطلبت اطلاب احباب لآله لقاء الأعداء • وجرت الســوابق على الأردن أرديان الوديان في الاجــراء.واعتضــدت أمــلاك الارض بمــــلائكة الســـــماء • ولوت أولياء الله على العـــــــدى ألوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقــداء • وحــارت غزالة الفلق من أسد الفيلق• وتقيد عنان الجو مــن عنان الجــواد • ولاح سنا الموت الاحمــر في الســنان الازرق • وأشرف على الفــرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • ومــاج البيض والسنور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الاغبر.وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأســـمر • ووقـــف مـــــع المثير المعشر • وحـــال المغيث وهـــال المحضر • وهـــاب المنظـــــر والمخبر • وظهر الحق وحــق المظهــر • وارتفعـــت الأصـــوات بقول :« الله الأكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا ومــانبضوا • وقعــدوا ومــا نهضـــوا وأخلدوا الى الأرض • وشــدوا نواجــذ العض • ولم يدعوا مــرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الأجفان • وثبتــوا ونبتــوا ، وســكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز مــن الخــطر • وفي الخــروج مــــن الغرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحذر .

فلما عرف السلطان أنهم لايبــرحون • ومــن قــرب صـــــفورية لاينزحون وأنهم لايهيجون الى الهياج • ولايخــوضون معــه بحــر العجاج • أمر أمراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذمــوا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العبسية على مدينة طبـرية • وعلم أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن من قتـــالهم • ويجهـــد في اســـتئصالهم • فحضر طبـــرية وحصرهـا • وابتدأ بها وابتدرها وجمع الرجال على احد أبـراجها وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوقع ذلك البرج • وانتزح عنه الفرنج • ونصبت عليه سـلالم الاسـلام • ودخلوهـا في جنح الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدودة من الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان واهـراء غلال • فـاحترقت أمتعة بأموال • وكبسوا ربـاعا وكسـبوا متـاعا • وأرهجـوا وأوهجوا مرضا وضرمـا • وأحـــرجوا وأخـــرجوا نعمـــا ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطمـاع الى ازدراد ماتحويها فاغرة • وتحصـــنت القـــومصية ســـت طبـــرية في قلعتها • ومعها بنوهـا وحمـوهابسيوفهم وعصـموها • ووقـع الاشتغال بحصارها • ونقب جـدارها وطـم جـوارها • وفصـم سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهـم ورجلهم وتحربوا وتحـزبوا وتصـلبوا وصـــلبوا • وتعصـــبوا وتصـعبوا • وثـــاروا وفـــاروا • ورازوا وزأروا • وجـــاءوا واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل القتام مـدجين • وفي بحـر اللام ملججين مـدججين • والى حـزب التـوحيد بحـزب التثليث مخرجين • ومن كل جبـل تحـرقه الريح • ومشـــيح شـــعاره المسيح • وذمـر يخفـــر الزمـــان ويبيح ، ونصـــب الى الموت يستريح • ومشتاق الى ملاقاة المذون قد حثه التبـريح • ومخـرج الى التورط في الردى من هـول ماهـوله يصـيح • ومـرتجج يؤذنسه المارق اللجج . ويوحشه الفضـاء الفســيح • ومـــن كل بـــطل مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد لله الذي انجـز وعده • وأيد جنده وأدنا مـن مـرادنا القطاف • وأصغى من مـرامنا النطـاف • وأسـنى لنا الالطـاف ونهض بجباله الى جبـالهم • وبـرجاله الى رجـالهم • وسـار لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخذ عليهم بذوي الاقـدام قدامهم • ووقف بصفوفه امـامهم • وصـد طـرقهم • وسـد فلقهم • ورد عن الزحـف فيلقهـم • وأغرى غرامهـم • وأضرى ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما الغيظ منهم غيض وقد وقد الحر ، واسـتشرى الشر • ووقـع الكر والفر • وللأوار تأجج • وللارام توهج ، وللعدى شـعل • وللردى شغل • والسـعير واقـد • والهجير عاقـد • والآل شـايط غرار • ومالآل الشـيطان قـرار • والسراب طـافح • والظمـأ لاقح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولأولئك الكلاب من اللهـب لهث • وبـالعيث عبـث ، وفي ظنهـم أنهـم يردون الماء • ويردون الدماء • ،فحـلأتهم الحـالة الحـالية • وغالتهـم الغلة الغائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة بنظارها • وذلك يوم الجمعـة بجمـوع أهلهـا المجتمعـة • ووراء عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قـطعت على الفرنج طـريق الورود • وبلوا مـن العـطش بـالنار « ذات الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضـابرين ، فـكلبوا على ضراوتهم • وشربوا مافي اداوتهم • وشفهوا مـاحولهم مـن موارد المصانع • واستنزفوا حتى مـاء المدامـع • وأشرفـوا على المصير الى المصارع • ودخل الليل وسكن السـيل • وبـاتوا على شغف البحيرة بحيرة • وحيقـت ظنونهـم • ولم يبـق بهـم غير غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا أنفسـهم على الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا من ماء الفرند • واكتفوا بمـاء جـداول الأغمـاد مـن الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم الى القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء الأرواح نجاح النجاح،وشدوا حزم الانتخاء • وأعدوا حرم الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجترأت • ومن كل مايعوقها برئت • وهذا لسنانه شاحذ • وهذا شهم موفق • وهذا لحده ممه • وهذا لحده منه • وهذا لسهمه مفوق • وهذا شهم موفق • وهذا مكثر للتكبير • ومنتظر التبكير • وهذا مجر ضامر • ومعر بائر • ومغر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز المناجز • والمحاجز للحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج للسعادة • فياله تلك من ليلة حرا سها الملائكة،ومن سحرة انعامها ألطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديع • ومن ظلام مملة بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مغافره مغفور • ومن ديجور مابعده لاشراق سنا النصر ديجور • ومن ألوية أولياء الله عقدتها بخمرها الحور • وقد قابل بها فيها ظلمة الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر يفوح • وفي صباحها الفتوح • فما ابهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم :« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والاسنة مفروضة والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسبيل واضحة سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين متقاضي بالشفا عليلة • راع رياض الرضا رعيله • والله ناصر الاسلام ومديله .

ذكر الذشاب ووصفه .

وسهر السلطان تلك الليلة • حتى عين الجاليشية من كل طلب بأسماء رجالها • وملأ جعابها وكنائنها عريات نبالها • ومريشات نصالها • وكان مافرقه من الذشاب أربعمائة حمل • فتزل نص النصر منها على كل نصل • ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقى يأخذ منها من خلت جعابة • وفرغ نشابه من تغالق تفتح من باب الجنة المغالق • وتواضيح تخرق المضاعف النسيج• وناوكات ذوات ذكايات • وزيارات وزنبوركات • ونبل عنده نبأ لكل تبل • وذشاب في الأحداق ذي انشاب • وجروخ الجروح • وخروج الروح • وسهام الأشهر سهام الحمام وتنفير اقرانها .... الثعام .ونصل وصالها تقطع اوصال نافق بكل حمس صال.ومطالق نطاق بها سراح الأرواح . ومعابل تكثر منها صعاب الجراح . ومهرقات موفقات مسدات ...الحارق...(٥) المبردات وصائبات الى المقل صابيات . ونواجز تعيد السباع قنافذ .وتجعل للنجيع مناجع . وللمنون منافذ . وبوارق تمرق اهب المارق . وتطقم وتنتقم من المارد المارق . ومريشات اوكارها الحدق . وأوكائها الحلق . وفاصلات ناضحات اربية الردى . وناحلات فاضحات اوردة العدى . وقاضبات قاضيات بحكم الردى . وحارقات رقعات خروق النواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات راشفات شفاء المقاتل . وقائفات قانعات منفذار المناصل . وماضيات حاظيات بالاصابة . وساعيات داعيات للاجابة . وحفيفات ثقيلات الجنابة . ومخيفات قمينات الذكاية . ومضميات مصممات للفتك . ومدميات مديمات البتك .وقريبات بعيدات المطار . وطالعات مطلعات على الأسرار . هاتكات للذماء . سافكات الدماء . مثريات الثرى . مفريات للفرى . جائرات بالجري . واثبات وثب الجراد. واريات وري الزناد . طائرات من الأكناد الى الاكباد . مرهفات من الهيف . مرعبات بالهفيف . خارجات من

طلوع الحنايا الى احناء الضـــــلوع.مـــــارجات لدى الروع الراد الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القــلاع . بــالغات الشعور . عالقات بالتامور . محلقات للنحور . غاربات الغروب في النحـــور . ورادات الصـــــدور الى الصـــــدور . قـــــاطعات الحجاب . واقعات بــالعذاب . مــدمجات على الالتهــاب. مغنيات بالدماء على الطعـــان والضراب . ومــــرا سيل تـــروى امــــــام العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدى به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضـــه مــن العين في الســواد ومعتدل تحذو له العـــوج .وبــــرق خـــاطف تحمس وراءهـــــا المهوج . ومنزع لنزع المهـــج وقـــطع الود ٠ اخـــــطف مــــن الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى مــن الحريض . واشبى من الطرف الغضـــيض . وأعمــل مــن الســمر والبيض . والســـلطان يأمـــر . والحنايا تـــــــوتر . والمنايا تـــؤثر . والأعنة تصرف . والأســـنة تـــرهف . والحقـــائب تنعض . والمقانب تعرض . والجاليشية تشـمر . والجـاووشـية تنصر . والســـوابق تضـــمر . والســـوابغ تنشر. والصـــلادم تنضى . والصــوارم تنتضى . والســـلاهب تجمــــع . والجنائب تمرح . وأيم الضراء تنساب . وغيم الغمــاء تنجــاب . والنفــوس مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن اللعب . والعزم غالب باللغب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حــطين وهـــو يوم الســـبت الخـــامس والعشرون من شهر ربيع الآخر.

واصـــبح الجيش على تعبيتـــه . والنصر على تلبيتـــه . ووقـــف العسكر في قلبه وجناحيه وميمنتـــه وميسرتـــه اطـــلابا متقـــاربة متباعدة . وانجادا متعاهدة متساعدة و آلافا متضافرة . وأضعافا متضاعفة متظاهرة . وبــرز رجــال الجـــاليش . وارتجـــز دعاء

التحريض والتحـــريش . وصـــفا لبـــاس الناس على الكمـــي الكميش . وشرعت ثعـــالب الشرع في رعي الحشـــاشات رعي الحشيش . وتطاير في الجو على ســنابك الهمـــام جـراد النصـــل المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجـب الارواح التقييش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . واسرعت اعنة عتاقها . واشرعت اســـنة دقـــاقها . وأطـــالت رقـــاب رقـــاقها . وابـــانت غايات ســـياقها . وأعلت رياحـــات احتفـــالها . وأحلت مـــذاق مـــذاقها . وأغلت أوســـاق أوساقها . وأغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهام اعراقها . ومدت ظـــلال رواقهـــا . ودارت كؤوس اصـــطباحها للاعتبـــاط باغتباقها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فـرق مذهبنا لساعة افراقها . ذلك والفـرنج راكبـة الجـرد . متـراكبة المدد . متكاثفة العدد . آخذة طـريق البحيرة. بـطوارق الحيرة. قـد احاط رجلها بخيلها . جـارية الى القـرار بسـيلها . أمـــواجها ملتطمة . وأفواجها مزدحمة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتهبـة ملتهمة . ودفعها مديد . ووقعها شديد . وحـــدها حـــديد . وجـــدها جـــديد . يأمنون المنون . ويجذون الجذون . ويجـرون الشـــمول والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهـم صـــدنا . وردت ســيولهم بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبـــالنا . وشـوتهم بنيرانها نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا ســلوك نهـج الموت . وأنه لا مـــطمع في البقـــاء الا بـــاستحلاء مـــطعم الفوت . والسلطان قد رفق قلبـــه . ووقـــف الى الوثـوق بنصر الله قلبه . وهـو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضـــهم على حظهم من الفتوح او الحتوف . ويعدهـم من الله بنصره المألوف . ويغري المئين بالالوف . وهـم بمشاهدته اياهـم يجيدون ويجدون . ويصدون العـــدو ويردون . وكان له مملوك اسمه منكورس من اقمـــار الفلك . ومـــن شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قـــد علقته الحور العين لحسنه. واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القبول في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواعب الاتـراب يشـتقنه في جهات عدة . وكان الله برأي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والحور الحسان . وكان ظريفا طـريفا . نظيفـا عفيفا . طاهر الذيل للنزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق ° وركب عنقه في الرق ° وألهمه نصرة الحق ° وهو راكب امام العسـكر . شـائم غمام العثير . ناشق عرف الكوثر مستغفر تحت المغفر° مسـتنير في سنا الستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق في الأقدام .فوثب بحصـانه وثـوب الضرغام . معتقـلا الى الردى رديـنيا . ومشـــتملا للتـــرف مشرفيا . وممتــطيا للاســـتقامة اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها ميدانه . وشكر لها احسـانه . ونكل عنهـــا اقـــرانه . ونفـــذ طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجـذبه لقـوة رأســه حصانه . وخلا خلانه . وخـانه اخـوانه . فلمـــا رآه الفـــرنج وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفـوا عليه . وزحفـوا اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مـكانه . فـأثبت في مستنقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأســه ظنوا انه احد اولاد السـلطان . وزعمـــوا ظهـــور الكفـــر على الأيمان . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جـوار الرحمـن في غرفـات الغفران . وأما عســاكرنا فإنهـا لما شـاهدت اسـتشهاده وجلده وجلاده حميت حميتها . وأبت غير الغيرة ابيتها . وخلصـت لله في ارداء اعدائه بنيتها . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي اهل النار بنار ضرامهـــا وتلفحهـــم بلوافحهـــا . وتقـــدحهم بقوادحها . وتسـقيهم بجـداول مناصـــلها . وتـــرميهم بجنادل صواهلها . وترديهم بأردية رداها . وتغريهم بما يغرون مــن المذون عن مناها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمـور من الضوامر بجبالها . وتموج في البواتر في بحارها . وبرح بالفرنج العـــطش . وأبـــت عشـــرتها تنتعش . ولاذت تتشــــور وتتشوش . وتتحـرى وتتحـرش . وتتـوشح بـالضراء والضراب وتتوحش . وتنشط على أنهـــا تبـــطش . فتجـــد الطـــرق مصدودة . والسبل مسـدودة . والمســـالك محـــدودة والمهـــالك موروده . وكان النسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فـرمى

بعض مـطوعة المجـاهدين النار في الحشـيش . فتـأجج استعارها . وتوهج أوارها . فبلوا وهم اهل التثليث من نار الدنيا بـالثلاثة الاقسـام : في الاصـطلاء والاصـطلام نار الضرام ونار الأوام . ونار السهام . فخلصـوا مـن ورطـة الاحتـواء والاجترام . وضايقت ذمائهم دماء الضراغم . وعارضـت صـقور بأستهم القشاعم . ولقيت العـظائم العـظائم . ودارت بمسـاعير الجحيم دوائر السعر الحواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بهـا وأزعجوا . وهاجوا وأوهجـوا . ومـاجوا ومـوجوا وأجـوا وأججوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسـينا الرواسـخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . واراه غيه انه متـورط في غيابته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السـقم . وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واوهـت اصلابها صلبانهم . فافكر القـومص كيف ينجـو ويتخلص . فقـال لهم : انا اسبق بالحملة . وافصـلهم مـن الجملة . فـاجتمع هـو ومواززوه . وجملة من المقدمين هم مضـافروه . وصـحبه صـاحب صيدا وباليان بن بارزان . وتـوامروا على انهـم يحملون ويلغـون الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بنفوسهم . وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفـوا ان القـومص اخـذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة . وهنوا وهانوا ثـم اشـتدوا ومـا لاذوا . وثبتوا على ما كانوا . وقالوا : انما فر في شرنمـة هـم شر نمـة . وعصبة قليلة بغير عصبة . واسـتقبلوا واسـتقتلوا . واسـتلحموا وحملوا فما وجدوا للنجح نهجـا . ولا اصـابوا لمن جـاء لمصـابهم شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب . وخاضوا فيهـا غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغـدر . بـل طـاعة القدر . واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفـاء . وصـببنا مـاء الحـديد

للاطفاء . فزاد في الاذكاء . وافترت مباسم البيض من استعبار عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهندية في الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام . وازللنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا ملتزا . ونقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكنافهم . واحتست انية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلأ الكلا . واكتست عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفريق المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا وبل الوبيل . فالهب عليهم يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيظ . ومنابع الكفر تفيض . وملاحم الاسلام تغيظ . والنفوس تقع . والرؤوس تطير . والقضب تبير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشرك تغور وتبور . واسد الوغى تجول وتجور . ومراجل الراجل والفارس تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورست منا الهضاب حول ذلك التل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى بطون النمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب والذئاب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك . وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغلبت غلبه . وقلب قلبه . وخذل حزبه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كماته وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملأهم جهنم . وملك عليهم الصليب الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب سليبا . ورقيب الردى قريبا . ايقنوا بالهلاك . واثخنوا بالضرب الدراك . فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون وللوثوب يخفون . وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون . ويردون وهم لايدرون . ويعقلون وهم لايعقلون . وقرم بقوي القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاعناق وتارة يغلها . واونه بالبري يعـرهـا . ومـرة بـالسبي يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهـم وابرنسهم . فتم اسر الملك . وابرنس الكرك . واخي الملك جفـري . واوك صاحب جبيل.وهنفري بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية ، واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن الاسبتارية ومعظمها . ومن البارونية مـن اخـطا بـه البـال لما عز الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس ° وقوي بنا الرجاء ومنهم اليأس ° وعروا من ملابس العز . وضفا عليهـم مـن ملابس الصغار اللبـاس . وتعـرضت للسـوء في السـوافي طاول حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد بهم حكم القضاء لم يجـدهـم الاحتـراز والاحتـراس . ورسـفت وارسفت الانفس والانفـاس . وانعقـد الاجمـاع بتحليل تـركيب جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاسـلام بـكسرهـم . وقتلوا واسروا باسرهم . فمن شاهد القتلى قال : ما هناك اسـير . ومن عاين الاسرى قال : مـا هناك قتيل . ومـذ اسـتولى الفـرنج بساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل . فالله عز وجـل سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهداه من التوفيق لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المسـلوك . ونظـم له في حتـوف اعدائه والفتوح لاوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر الأبر . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو والسوم . غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقـدمة . ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الوقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم مـا دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى قدمه كأنه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمـي اليه غير مفيد . لكن فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يغنم من خيلهم ودوابهـم ـ وكانت الوفا ـ ما هـو سالم . وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولامـورد الـروح سـائبة

ولالنار الروح شابة . وغنمنا ما لا يحصى مـن بيض مـكنون وزغف موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الفتح كل اقليم مصون . وذلك سوى ما اسـتبيح مـن مـال مخـزون . واستخرج من كنز مدفون . و .... حـاصلة . و ...(٦)تحقـق اهله . ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من عدة ورحال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجـاءنا هـذا الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال : لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفـروا بجناح غادروه محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي المواضع البعيدة من العمارة ليتوصلوا الخارجين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال التي احضرتها . وقد حرمت على المفسـدين الحـركة وحـظرتها . فتاملتها واذا جمالي بـأعيانها . فشـكرت همتـه الكريمـة على احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التـي حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تـزل الثغـور بسـداده مسـدودة والخطوب بصدده مصدودة . والظلال باشتماله ممـدودة . والرعايا بسياسته محروسة . والبلاد بحـراسته مسـوسة . ورايات الكفـر بنكاياته منكوسـة . وايات الدين بهـدايته مـانوسة . والمواضـع معمورة . والمنافـع مـوفورة . والصـنائع مشـكورة . والشرائع مشهورة .

وهؤلاء الذين قـرضتهم ووصـفتهم وعرفتهـم وعرفتهـم تنكرت معرفتهم . وتكدرت صـفوتهم بعـد الايام السـلطانية . وانقلبـت سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صـادقوني لصـدق الحـاجة . وصادفوني مقدما للذب عنهم تحت العجاجة . غائصـا لاسـتخراج جواهر مقاصدهم لجج الجاجة . فلما استغنوا عني جهلوا معرفتي وانكروا عارفتي . وهذه سنة اخـلاء الدنيا في دين الاخـلال . ومله الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فمـا ابدعوا غريبا وما ابعدوا قريبا.ولا اعجبوا بابيا.ولا ابدوا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

العماد الأصفهاني الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد مايبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن الرشد مايكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم . ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه إلينا بأنهما حادث وقديم . ونستزيده ونستديمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذي بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم)(فصلت : ٣٤) . والحمد لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله الموفور . وقبل منا عفو خواطرنا المنزور . فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة . ولايطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد الساقه . وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدمنا ينتاب منتابه راجيا وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضمير ذكرنا، وباتت سارية إلينا لاطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم إن الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا . ومتجرعنا ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمجما . وتارة يحيط به قولا مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات مسموعه . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه مسارحه . وكيف لايعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنا لانرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا . فنصل إليه صلاتنا ونؤدي إليه ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به . فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترابه .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولاصدق المراد . وأين مـن أخبـر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأذك بالواد . فمـن كان في روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح . ونصلي على آله وأصـحابه ولاة الحـق . وقضـاة الخلق . ورتقـة الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفـرق . وفتحـة الغـرب والشرق . منهم من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم مـن اسـتنزل أرجـل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هـامها . وأخمـد عبـدة نيرانه أن يطعموها حطبا ولو وصلت إليهم لأكلتهم . وأخمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشـداء على الكفار . ومنهم الأسداء إذا زاغت الابصـار . ومنهـم السـاجدون الراكعون . ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهـم نحـن أهـل الزمن الآخر . وقد سـلم علينا سـلام الله عليه في زمنه الحـاضر . وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنمـا نرد عليه تحيته والبادىء أكرم . وإنما نرجو شفاعته بـالمودة التـي قـدمها والفضل للاقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدبـاء الذين يتـطلعون الى الغـرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلي السـير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب أن يقول . فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التي نوردها . وانما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إمـا أن تـكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإما مستفتحة بمعقـب مـن الدول الأخرى . فلا أمة مـن الأمـم ذوات الملل . وذوات الدول . إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . ينقله خلفها عن سـلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصـب بـه معـالم الأعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام الآخر ذكر الأول . ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الاصلاب طويلة السرى . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقادم . لآدم . وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم . ذرياتهم . لما أراده من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره . وقبل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة النشر . وتقبل في واحدة من الأطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار دهرا بعد دهر . وثوى وانشر في الف قبر . وإنما كان من الظهور في ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها . وجهل ماوراء صعوبة الايام من سهولتها وماوراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بنو آدم بيومه . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه . ثم أرخ الاولون بالطوفان الذي بال الأرض وأغرقها . ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلشاه ، ومعني هذا الاسم ملك الطين . فإليه ترجع الفرس بأنسابها . وعليه ينسق عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج إيوانه . واطفأ نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلو بطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره . وأرخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم . وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيل . وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق واخراجهم عن الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنقلوا منها . وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

وهي حرب البسوس ، ثم أرخـوا بحــرب عبس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين ســنة . ثــم أرخوا بعام الخنان قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتيان في عام الخنان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعــام المخـــالق وعام الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربــع حــروب ذكرهــا المؤرخون . وأسندها الراوون ، وأدنى ما أرخوا به قبــل الاســلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام . وأظهر الله على الأديان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم . فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلهــا جــب الأنوار للظلم . ودفــع الله الناس بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهيأتــه يوم خلق الله الســموات والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأمــوال والأنفس ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي مــا ولدت الليالي مثله مــن بنيها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعــد مــن عوام الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمــدها بالقيامة معذوق . وبــأن مــوعدها الموعد الصــحيح غير المدفـــوع والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوســف بــن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق . وتســفر عن أهلتهــا دادىء المداد وتنشق . وهي وإن كانت هجرة الاســلام إلى القــدس

ثانية . فقد كان انثني عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهـذه الهجرة أبقى الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت كأنه كسر ثم جبر . والحق أن نقول إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم فغير بعيد . والوحي ماكاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره في الفتح منها بعيانها . ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردمه . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الارض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر . والفرس يومئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تنوعت أشكاله الرائعة . ولاطبعت سيوفه هذه القاطعة . ولانسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لاتعرف إلا مشيدة لامجلدة . والمنجنيقات لايتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لاتتراجم بالنيران المذكاه. والأسوار لاتتناطح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون إلى الموقف حفاة عزلا . وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء . وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمائة وهي للملك المعترك . وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب . ونصلت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقست ورانت الفتن على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في الضلال . واستبضعوا القتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن تري استباحة ورعيه . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولامسح . واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلا مزرور الشفاه على القطوب بلا بشر ولامزج . شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون . زرقا كأنما عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم . واشتعلت نار جهلهم في فحم ذنوبهم . تستعيذ المردة من مردتهم . ويدعى النار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ . جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ . (لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف : ١٧٩) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والا فالحجارة لاتستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم تخلع الاظلام . وزادت أيامهم الأيام خبالا فتنازع الناس طرائف الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨) و(كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام تمخض وتمطل بالزبدة . والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخـروج ولكن مـا أعدوا له عدة . والعـذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفـى بلفـظة النبـوة لومـا صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتهـا . وأظهـر الآية التي لا أخت لها فنقول هي أكبر من أختهـا . أفضـت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمـام شـهرها . وجـاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد . ومالكها الذي له السماء خيمـة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتـاد . والشـمس دينار . والقطر دراهم . والأفـلاك خـدم . والنجـوم أولاد . صـلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق اليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهـو سـبحانه أكرم بـالنوال . منا بـالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا أحسن الله إليه فقد قال (إنا لانضيع أجـر مـن أحسـن عمـلا) (الكهف : ٣٠) وأن قلنا جزاه الله بالاحسان فقـد قـال : (هـل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قـال : (والذين جـاهدوا فينا لنهـدينهم سـبلنا) (العنكبوت : ٦٩) وأن قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فـاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل) (آل عمـران : ١٩٥) وإن قلنا لاجعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قـال : (مـا على المحسـنين مـن سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل
في معاليه قد كمل

لايسل فيه سائل
سبق الجود ما سأل

وليصحح تأملا
يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجـاد إلى أن لم يبـق مـال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل . فلا كفتح على يديه فتـح وما هـو فتح واحد ما هـو إلا فتحان فتح والدم ذائب وفتـح والذهـب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فـرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جـديدا وزاد لأنه ضرب بالسيوف التي كسرها ثم ضربها . واستوعب جوده مـا ولدت المعادن ذهبا وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع تم نهبها فـوهبها . فكل معاد معادى إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسـود إلا هـذا المداد . (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجـود من قبل المدائح .

الناس أكيس من ان يمدحوا ملكا .
ولم يروا عنده آثار احسان

وإنا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصـادقين الذين أمـر الذين آمنوا ان يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسـنين لأنا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بـانه فروقه . ولسنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقـول للقلم إذا فاخره السيف (إن شانئك هـو الأبتر) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولسـت ببعيد في تقييد هـذه المفاخر . وتشييد هذه المآثـر . مـن رجـال الطعـن والضرب الذين

فتحدوا بين يديه . وا وجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجه وأوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم أخطى وأخطب . ومن سهامهم انجي وأنجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب . ومن جيادهم أسرى وأسرب . ومدادي من نقعهم اغلى وأغلب . وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد . وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها وآثاري من الذكر لاتخمل ولاتخمد .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت الأيام سحبا . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا . فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لاقول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية . وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى ايوان كسرى وسينية البحتري في وصفه تجدوا الايوان قد خرت شعفاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح بين الأوصاف الغالية . ونناوب بين السمات السامية . للاشارة إلى من ينبه على مسماه . وينوه بسيماه . فأما من يقول الله لاسمه أنت من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشيد بالله أبي جعفر هرون بن الامام المهدى بالله أبي عبد الله محمد بن الامام المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهي الأيام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاربها القضاء مضاه . فما أجلها فضلا وأفضلها جلالا . وأقبلها جدا وأجدها قبالا وأقربها ندى ونوالا . وأبعدها مدى ومنالا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى جني رفدها . وأفغم ريا رياض فضائلها . وأفعم حيا حياض فواضلها . واسح سماء سماحها أمطارا . وأصح جناح نجاحها مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته . وداعي نصرته . ووليه الطائع . وسيفه القاطع والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . فرأيت إبداء ميامن هذه الايام الغر على الآباد بغرر الآداب . وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب . وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبها على جلالة قدره . وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضي الأجل الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها . وأنشأت رياضي بسحبها . وما شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي عهدته . وما عنيت إلا بايراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على أس ما تبينته فبينته،وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط . وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة:وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبلاد . يستدعي من جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد .
واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت
مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود . واستحشاد الحشود .
وإصحار الأسود . واحضار البيض والسود . مضيء العز ماضي
العزم . صائب السهم ثائب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود .
وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج
اليد القصرى . وأقام علي ارتقاب اقتراب الحجاج . وقد رتب
الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج . لاسيما ابرنس
الكرك . فانه كان حريصا على الدرك . ناصبا شر الشرك نصب
الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار
خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقد قضوا
حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخرجوا عن فرضهم . ودخلوا إلى
أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتظر
السلطان وصول العسكر المصري المستدعي . ورعى منه حصول
العدد المسترعى . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده .
فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين عليا . ولم يزل مكانه عنده
عليا . أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء . وتجتمع العساكر
الواصلة منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى
الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحرب . ويحرق .
ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي ألحق الموجود بالمعدوم . وأتي
بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع .
واستأصل الأصول والفروع. حتي أقوت من الأقوات . واستعرت
الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت آجال الأرزاق . وانحلت عرا
الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلأ من الكرد والترك . وسار إلي
الشوبك فأسار به شوبا . وألحقه من عريه ثوبا . وأخلاه من زرع
ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع .
وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال . وداس الغلال . وقشر
الثرى وبشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون
مسكونها . وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها . فقد عدم ليلها
المصباح . وصباحها الاصباح . ووصل عسكر مصر فتلقاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتره . والخضرم الضرم . والعرمرم العرم . واللهام الملتهم . والجيش الجائش . والترك والأكادش . والجنود والبنود . والاسود السود . والفيالق الفوالق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدى . ظامئات إلى ورد الوريد وما أحسن حلي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يستنهضه . والعز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقدر يحركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره . والاسلام قد مت بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الأمر إستمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهز الفرصة واحرز الحصة . وانتحى وانتخب الاجناد الانجاد . وجرد الجرد واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجك المقدم المقدام . والهمام الهمام . والأسد الأسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي ، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي . فساروا مدججين . وسروا مدلجين . وصبحوا صفورية (فساء صباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرج اليهم الفرنج في جمع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسابريات سابغات . وللداوى دوي وللاسبتاري هوي . والباروني يقدم على البوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجز عجاج العجاج . وانفض الفضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قايماز النجمي في صدورهم . وأشرع الأسنة الى نحورهم . وروى اللهازم من تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكترث بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدرم بالوجه الأبيض . والعزم الأنهض . والجد

الأجد . والحد الأحد . وانجلى الغبار . وقد عم الفرنج القتل والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك محاص . واخلافت رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه النوبة بلا نبوة . والهبة بلا هبوة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت النفوس إلى هذه البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت الاسنة بالنصر . وأحسنت الألسنة في الشكر . هذا العساكر في كل يوم يفدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من النكاية في العدو يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال بالنجح والدرك . وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا . فغصت بسيول الخيول الوهاد والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر . ولا أكرث للكفر ولا أكثر . وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح : ٤٠) . في ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم كالليل عجاجا . وليل كاليوم ابتلاجا . ومناصل بالمنى صلت . وقساطل بالقسي طلت . وفيلق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في صدور الاغماد تقلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار المنايا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض . وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث . وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم . وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن حزبهم مخذول . وأن غربهم مفلول . وأن حدهم مثلوم . وأن جندهم مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حيئذ خلف منبعث . وحلف منتكث . ووقوع نفار بين الأنفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استنذوا

حين حينهم . سعوا في إصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص . ليتقمص له بالود الأخلص . ورمى عليه بنفسه . واستبدل وحشته بأنسة . فاصطحبا بعدما اصطلحا . وأصحبا بعد ما جمحا . وتزاور الفرنج وتوازروا . وتآمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى دنا منه الوهى هوى . وعود إذا عاده الأذى ذوى . فالمسيح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافنا صفاحنا . وفي لوائنا اللأواء . ومع أودائنا الداوية الأدواء . وطوارقنا الطوارق . وببيارقنا البوائق . وسيف الاسبتار بتار . ولقرن البارونى من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعاب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاقد والمعاقل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الاسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسالموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا . وطالما ناصفونا وما صافونا . وهادونا وهادنونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا . متدبر متدربا . هذا صلاح الدين لايقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغه والمغاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالفه ونقبل شرائطه . فقال له الملك :أنت قد قلبتك الآفه . وفي قلبك المخافه . وأنت للخور رخو . وللخشية حشو . وأنا لابد أن أصدمه وأصده . وأكدمه وأكده . وأرادده حتي أرده . وأقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالحشد والحشر والطي والنشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولدا مجذوما. وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل داؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الفرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفخوا في ضرمه • وتسمنوا بورمه • وصحوا بسقمه،ورقوا في سلامه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • وأقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجذا (١)ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حمامه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطرك والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التطاول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفله مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لايستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبتها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بنفسه ، واستولى على جنسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الفرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه • وعاش رجاءه بعد يأسه • وراش غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليسه بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه • فما اجاب دعوته

ولالباه • وا تنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر • واقام بـطبرية في زي المتطاول المتقاصر • وضم اليه من الافرنجة من استرغبه • بما استماحه من سلطاننا واستوهبه • وحـث العـزم السـلطاني على قصدهم ليرد اليه الملك • ويجد له في نظـم امـره السـلك • فلمـا اجتمعت العساكر الاسلامية • وتألفت منها الجزرية والديار بـكرية والمصرية والشامية • جاء الملك الى القومص بنفسه وفتـح له مـا وجده من وحشته وعدمه من أنسه • وقال اصحاب القـومص له ان لم تنصره فنحن ما نخـذل الدين • ولانكون بـايدينا مسـلمين الى المسلمين • وتمت بينهم ليوم المصاف المصـافاه • وزالت المنافـرة والمنافاه .

ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر الى ديار الفرنج

اصبح بالمخيم عارضا من العسكر لعارض شجاج • وبحر بالعجاج عجاج • وخضم بـالصواهل السـوابح والمناصـل والصـفائح ذي امواج • وقد رتب ابـطاله وطـلابه • وسـحب على وجـه الارض سحابه • ونقل به الثرى الى الثريا ترابه • وطار الى النسر الواقع من الغبار غرابه • وقد فض الفضاء ختام القتام • وشدت الشدائد كتب الكبت على حمـم الحمـام • وحنت ضـلوع الحنايا على اجنة السهام • وتكافلت العوجاء بالمعتدلة • وضمت المذفلتة الى المذفتلة ، ووفت الاوتـار بـالاوتار • وثـار كل طلب لطلب النار • ووقـف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيبا • ويبوبه تبويبا • ويعبيه بعيدا وقريبا وقرر لكل امير امرا • ولكل مقدام مقاما • ولكل موفق موقفا • ولكل كمين مكانا • ولكل قرن قرانا • ولكل جمر مطفئا • ولكل جمع مكفئا • ولكل زند موريا • ولكل حـد ممهيا . ولكل قضية حكما • ولكل حنية سهما • ولكل يمين مقضبا • ولكل يمـان مقبضا • ولكل ضامر مضمارا • ولكل مغـوار مغـارا • ولكل رام

مرتمى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما يقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالى مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واذفق النخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال النشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية التأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • والجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والاسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

المرتبة • والمذاهب المهذبة • والسلاهب المجنبة • والصوائب المجعبة • والقواضب المقربة • والثعالب المذربة • واللهاذم الهاذمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على خسفين . وقد ادنى الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر وكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة • والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة • والقلوب بالاخلاص عامرة • والانفس للانس مسامرة • والاقدام بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبح سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانة . بعزم الصيال وعز الصيانة • واحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط • وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجا على امواج • وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج • واعاد الاقحوانة رياضا نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات كأشجار البساتين • ورايات صفر تخفق بعذابات الياسمين • والوية حمر كشقائق النعمان • وموضوعة زغف كالغدران • ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقحوان • وجبب ترائك على بحور الدارعين • وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين • والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتام الثائر سروج السريجيات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم • وحاطوا بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاوباش • ورتبوا الجيش • وثبتوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل • ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب الصلبوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في نوادي اقاليم اهل الاقانيم • وصالبوا الصليب الاعظم بالتعظيم ، وماعصاهم من له عصا • وخرجوا عن العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهاء خمسين الفا ويزيدون • ويكيدون مايكيدون • قد توافوا على صعيد • ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمون • لايرومون حركة ولايريمون • والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم • ويراميهم • وينكي فيهم • ويتعرض لهم ليتعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله • فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبرز اليهم القتل في مضاجعهم • وعاينوا مقام صارعهم • في سوقهم الى مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبنوا عما له تشجعوا • فرأى السلطان ان يطيب ريه • من طبرية ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتها • فجر على الاردن اردان الربينيات • واطلع النقع المثار من البحر بحوافر الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات • فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابره • ان يقيموا قبالة الفرنج • ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصاف بادروا الى الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب . وثبوا بهم وثوب الاسود بالارانب . وان قصدوا طبرية لصونها وان يكونوا في عونها . عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خواصه ، وذوي استخلاصه . واحضر الجاندارية والنقابين . والخراسانية . والحجارين . واطاف بسورها • وشرع في هدم معمورها . وصدقها القتال . ومااصدف عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهو يؤم الخميس . واخذ النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه . وتسالقوا فيه وتسلموه .

ودخل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العـدو معتـكر .
وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيهـا . ولما
سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد
جلده . وسمح للفرنج بسبده ولبده . وقال لهم لا قعـود بعـد اليوم ٠
ولابد لنا من وقم القوم ٠ واذا اخذت طبرية اخذت البلاد ٠ وذهبـت
الطرا ف والتلاد ٠ ومابقي لي من صبر . ومابعد هذا الكسر لي جبـر
وكان الملك قد حالفه . فما خالفه . ووافقه . فما نافقه . وماحضه فما
ماذقه ووادده فما رادده . وواعده فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره
وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحينه . واتبـاع غيه .
واشياع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبـرته .
ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا . وثابوا عن ثبـات ثبـاتهم ووثبـوا.
وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبـوا . وشـبوا النار . ولبـوا الثـأر .
وقدموا النزل بالدار البـدار . وذلك يوم الجمعـة رابـع عشري ربيع
الاخر. فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه.
وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل
المخطوب . وجاءنا مانريد . ولنا بحمد الله الجـد الجـديد . والحـد
الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صـحت كسرتهـم .
وقتلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع .
ولاعن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم
الجمعة رابع عشري شهر ربيع الاخر والفرنج سائرون الى طبـرية
بقضهم وقضيضهم . وكانهم على اليفاع في حضيضهم . وقد مـاجت
خضارمهم . وهاجت ضراغمهم. وطارت قشاعمهم . وثارت غماغمهم
وسدت الافاق غمائمهم . وشاقت ضاربيها جماجمهم . وهم كالجبال
السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة . وافواجها مزدحمة.
وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجو . وضوى
الضو . ودوى الدو . والفضاء مذفض . والقضاء مذقض . والثريا قد
استزار الثرى . وجر نيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحـوافز
للارض حـوافر . والفـوارس اللوابس في البيض سـوافر . وذئاب
النياد واجلاد الجـلاد قـد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فـرتب
السلطان في مقابلتهم اطراطلابه . وقصر على مقـاتلتهم ارابـه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء . ومنع ذمامهم على الذماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ . والقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة . فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الاسلام للكفر مقابلا . والتوحيد للتثليث مقاتلا . والهدى للضلال مراقبا . والايمان للشرك محاربا . وهيئت دركات النيران . وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . وذفر الذفير غراب الغبار . وانتبهت في الجفون الصوارم . والتهبت في الضوامر الضوارم . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار.

وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار . ورنت القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس الجلاد . وبرزت البيض من ملائها في الملأ عارية . ورتعت السمر اكلئها من الكلى راعية . فرجا الفرنج فرجا . وطلب طلبهم الحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى مابأيديهم من ماء الفرند ماء . فشوتهم نار السهام وأشوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية واصمتهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا.

وناشبهم النشاب فعادت اسودهم تنفذ . وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا . وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وقرشتهم البلايا . ورقشتهم الرزايا . وصاروا للردى درايا . وللقضايا رمايا . ولما احس القومص بالكسرة . حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطلبه يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخـرق . وا قلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ردة مردودة . وغاب حـالة حضـور الوعي . ونابه الرعب الذي ذوى الهزيمة به وماونى . ثـم اسـتجرت الحرب . وا شتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم . وفلت حدود الرمـاة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشـغلوا عن اصـل الحياة وفـرعها . وتـرجوا خيرا فتـــرجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حـزامهم الطبيين مـن سـهلها . واسر الشـيطان وجنوده . وملك الملك وكنوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهـم يتهـادون في القيود تهـادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعـه عدة كثيرة منهـم ومـن الاسبتارية . واحضر الملك كي واخوه جفري . واوك صـاحب جبيل وهذفري . والابرنس ارناط صاحب الكرك . وهو اول مـن وقـع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لاعجلن عند وجدانه عدمـه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه . وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له:كم تحلف وتحنث . وتعهد وتنكث . وتبـرم الميثاق وتنقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال التـرجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وماسلكت غير السنن المسلوك . وكان الملك يلهث ظميا . ويميل من سـكرة الرعب منتشـيا . فـأنسه السلطان وحاوره . وفثأ سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبـه . وامن قلبه . واتي بماء مثلوج ازال لهثةوأزاح من العطش مـاكرثه . وناوله الابرنس ليخمد ايضا لهبه . فأخذه مـن يده وشربـه. فقـال السلطان الملك لم تأخذ مني في سقيه أذنا • فلا يوجـب ذلك له مني أمنا • ثم ركب وخلاهما • وبنار الوهل اصـلاهما • ولم ينزل الى ضرب سرادقه • وركزت أعلامه وبيارقه • وعادت عن الحـومة الى الحمى فيالقه • فلما دخل سرادقه • استحضر الابرنس فقـام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه • وحين صرع . امر برأسه فقطع وجـر برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السـلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداءته اودته . وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ونبازند حياته ووردها عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكانوا اسودا فعادوا من النقد . فما اقلت من تلك الالاف الا احاد . ومانجا من اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلأ الملأ بالاسرى والقتلى . وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت حطين تلك الجيف عن متنها • وطاب نشر النصر بنتنها • وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه • بالعراء عراة • ممزقة بالمازق • مفصلة المفاصل • مفرقة المرافق • مفلقة المفارق • محذوفة الرقاب • مقصوفة الاصلاب • مقطعة الهام . موزعة الاقدام .مجدوعة الآناف • منزوعة الاطراف • معضاة الأعضاء • مجزاة الاجزاء • مفقوءة العيون مبعوجة البطون • مخصوبة الضفائر • معضوبة الدرائر، مبرية البنان• مفرية اللبان مقصومة الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة النحور . منصفة الاجساد .مقصفة الأعضاد • مقلصة الشفاه • مخلصة الجباه • قانية الذوائب • دامية الترائب• مشكوكة الاضلع مفكوكة الاذرع • مكسورة العظام • محسورة الثام • بائنة الوجوه • بادية المكروه • مبشورة الابشار • معشورة الاعشار • منشورة الشعور• مقشورة الظهور • مهدومة البنيان • مهتومة الاسنان • مهرقة الدماء • مرهقة الذماء • هاوية الذرى • واهية العرى • سائلة الاحداق • مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللبات • عديمة الارواح • هشيمة الاشباح . كالاحجار بين الاحجار . عبرة لاولي الابصار . وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء • وعادت الغبرة حمراء . وجرت انهار الدم المنهمر . وسفر ذلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر• فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث • وما الهب عذابات العذاب في تلك الجثث • وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث • وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذاوحساب من قتل فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده • وأمـا مـن أسر فلم تـكف اطناب الخيم لقيده وشده• ولقد رأيت في حبل واحد ثـلاثين وأربعين يقودهم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهـم حـارس • وهنالك العتاة عناة • والعداة عراة • وذوو الاسرة أسرى • وأولو الاثرة عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس . والرؤوس تحت الاخامص . ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص . فكم اصـيد صيد . وقائد وقيد . ومشرك مكشر . وكافر مفكر . ومثلثـ منصف • ومكيف مكتف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • وملك مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب في الكبول • ومغتال في الغلول . وحر في الرق . ومبطل في يد المحق .

ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى اخذ صـليب الصـلبوت . واهلك دونه اهـل الطاغوت . وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع . سـجد له كل نصراني وركع . وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليهـا معبودهم ومسجودهم . وقد غلفوه بالذهب الاحمـر . وكللوه بـالدر والجوهر . واعدوه ليوم الروع المشهود . ولموسم عيدهـم الموعود • فاذا اخرجته القسوس . وحملته الرؤوس . تبادروا اليه . وانثالوا عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف . واخذه اعظم عندهم من اسر الملك وهو اشد مصاب لهم في ذلك المعترك . فان الصليب السليب مـاله عوض . ولا لهـم في سواه غرض والتأله له عليهم مفتـرض .فهـو إلههـم • وتعفـر له جباههم . وتسبح له افواههم . يتغاشون عند احضاره . يتعـاشون لابصاره . ويتـلاشون لاظهـاره . ويتغـاضون اذا شـاهدوه ، ويتواجدون اذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج . ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبـدونها . ويخشـعون لهـا في بيوتهـم

ويشهدونها • فلما اخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم . ووهت اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما . فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصـليب لم يتخلف احـد مـن يومهـم العصيب . فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السـلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر. والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

وندب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمـانا . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمتـه . ونقلت اليه كل مـا ملكتـه وحوته . فأمنها على اصحابها واموالها . وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها . وسارت الى طـرابلس بلد زوجهـا القـومص بمـالها وحالها . وغادرت طبرية آهلة آمنة باهل الايمـان . وعين لولايتهـا صارم الدين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبتارية مـن ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الاخر بعد الفتح بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبتارية ، وقال : أنا أطهـر الأرض من الجنسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما اسيرا خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وامر بضرب اعناقهم . واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة مـن اهـل العلم والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجـه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامـراء في السـماطين

وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر . ومنهم من ابى ونبـا وعذر . ومنهم من يضحك منه . ويذوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد انجزه . وحمد احرزه . واجر استدامه بدم اجـراه . وبـر اعذق اليه بعذق بـراه . ونصـل خضبه . لنصر خـطبه . واسـل اعتقله . لاسـد عقله . وداء داواه لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للاواء طواها • وكفر أماته لاسـلام أحياه • وشرك هدمه لتوحيد بناه • وعزما مضاها • لأمة ارضاها• وعدو قصمه • اولي عصمة• وسير ملك الفرنج وأخـاه وهنفـري وصـاحب جبيل ومقـدم الداوية وجميع اكابـرهـم المأسـورين الى دمشـق ليودعوا السجون • وتستبدل حركاتهم السكون• وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا •

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث مـديلا للطيب • مزيلا للخبث• وسـار عسـكره• وثـار عثيره• وظهـرت راياته• وبهرت آياته• ونعرت كوساته• وصاحت بوقاته• وجـالت خيوله• وسالت سيوله• وطلعت في سماء العجاج نجـوم خـرصاته وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه • وحفرت حوافر الصـلاد م أصلاب الصلاد الصلاب• وفصـحت بـاعراب الحمـاحم صـواهل الجياد العراب• والاسنة مشرعة• والاعنة مسرعة• وبحور السوابح متموجة وغدران السوابغ متـرجرجة• وبـوارق البيارق متبـرجة• وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة• ونزل عشية بـأرض لوبية لداعي الفتـح ملبيا • ولجيش النصر معبيا• ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا • وبات بها معـرسا بـانيا على عروس الظفر البكر• جانيا ثمار الامـاني مـن غروس البيض

والسمر• وأصبح وقد اصحب جماح الدهر• وصح نجاح الأمر•
وحص جناح الكفر• واسفر فجر الفرج وسفر وجه البهج• وسار
سارا سره بارا بأرباب الدين بره• زائرة أسوده• طائرة بذوده•
ظاهرة جنوده زاهرة جدوده• سامية أضواؤه• هامية أنواؤه• رائعة
مواكبه• رائقة مراكبه• مجنبة عتاقه• فكأن رسول الله صلى الله
عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يثري به• وهذا الأمير عز
الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أوان
عود الحاج• وهو ذو شيبة تقد كالسراجِ وما برح مع الملك الناصر•
مأثور المآثر• ميمون الصحبة• مأمون المحبة• مبارك الطلعة•
مشاركا في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره • ولا أشرق
مطلع من النصر الا بنوره• فرأيته ذاك اليوم للسلطان مسايرا •
ورأيت السلطان له مشاورا محاورا • وأنا أسير معهما• وقد دنوت
منهما ليسمعاني وأسمعهما• ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج
المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى• وكأن عذبات النيران
تصاعدت لعذاب أهلها• وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من
وعرها وسهلها• فلما قرب منها خيم وراء تلها• وآننت عروش
معاشر الشرك بذلها• وعقود معاقدي الكفر بحلها• وأصبح يوم
الخميس وركب في خميسه• ووقف كالأسد في عريسه • فخرج أهل
البلد يطلبون الامان • ويبذلون الاذعان فامنهم وخيرهم بين المقام
والانتقال• ووهب لهم عصمة الانفس والاموال • وكان في ظنهم أنه
يستبيح دماءهم • ويسبي ذريتهم ونسائهم • وأمهلهم أياما حتى
ينتقل من يختار النقلة • واغتنموا تلك المهلة • وفتح الباب
الخاصة • واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة.
فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج • والفرج المحرج • كيف
يتركون دورهم بما فيها ويسلمون • وعندهم أنهم إذا نجوا بانفسهم
انهم يغنمون • فترك معظمهم المدينة • وعندهم انه ما كسب السكينة.
الا من ركب السفينة • وذلك ان الجند لما دخلوها • استولوا على
الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار • وقال صاحبها كيف
يصح المقام مع الأسد في غابه ولا مقام على زار• وكان السلطان
جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع •

ومواضع ورباع • فأخذها بما فيها من غلال ومتاع. ووهب عكا لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظره على الاحسن الاجمل • ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعة • ووصلنا فريضتها المنقطعة • وأعدنا الكنيسة العظمى مسجدا جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القاضي الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للاسلام بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فإنه تولى بها القضاء والخطابة ، وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة تلك الغابة ، وخلى سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ، ونبذوا ماحووه لمن حواها مانبذها ، وافتقر من الفرنج أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر ، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر ، لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لمستحليها ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل مخيما ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ، ولملكتها متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر ، بما أتاحه الله من النصر ، وقيضه له من افتضاض الفتح البكر ، فوصلت البشرى بوصوله باشرا ، وللواء الحمد ناشرا ، ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مباشرا ، وأنه فتح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتنمها غزوة ، وتسلمها حظوة ، فقصده من عساكرنا القصاد ، ووفد اليه من عندنا الوفاد ، فحباهم بالحباء من السبايا ، وآتاهم المرباع والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالذقود ، ووعدهم مما سيحصل بالذسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويستفيض حسنى وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويستزيل من الكفر يدا ، ويستميل الى الهدى هدى ، والدين بسيف سيفه منصور ، والاسلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العادل مالك بعدله ، سالك نهج النجح بفضله ، فائز العزيمة حائز

الغنيمة ، ماضي الضريبة قاضي الكتيبة ، ميمون النقيبة مأمول الرغبة .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافرا بمغنمه ظاهرا بكرمه ، شاكرا عرام عرمرمه ، ملهبا ضرام مخذمه ، مرويا أوار لهذمه ، وأمر أمراءه بقصد البلاد المجاورة ، وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاورة .

فتح الناصرة وصفورية

فسار مظفر الدين كوكبوري الى الناصرة فاستباح حماها ، واستبى دماها ، وحلها واستحلها ، وأزالها وأزلها ، وخف اليها واستخفها ، واستشفها وشفها ، وشافهها بشفار البواتر ، فشفه منها موارد الذخائر ، واجتلى عرائسها ، واجتنى مغارسها ، وجمع نفائسها ونزع ملابسها ، واستدر طيبها ، واسترد سبيها ، واستقل منها بما استقل به من كل غانية عانية • ورقيقة رقيقة • ومصابة مصيبة ، ومسبية مصبية ، ومجلوة مجلوبة ، وسالبة مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعنف جارية ، وأسيرة من أسره ، وحاسرة عن حسره ، وثاكلة لواحدها ، وآكلة لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختم الدمع على خديها • وناهدة متنهدة ، وفريدة متفردة ، وناعمة شقية ، وقينة نقية ، وعذراء مفترعة ، وحسناء منتزعة ، ومخطفة ، وقوية مستضعفة ، وعزيزة ذليلة ، وصحيحة عليلة ، وساجية عبرى ، وصاحية سكرى ، وغريرة غراء ، وظبية

ظمياء ، وغضيضة غضة ، وفضة منفضة ، وخمارة مخمورة ، وسحارة مسحورة ، ومخدرة مهتوكة ، وموقرة منهوكة ، وجاءوا بالأسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ، مقودين في الاقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الأعناق والسوق وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بها من الذخائر مبلغ وافر .

فتح قيسارية

وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الامراء الى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف ، وسلطوا على الأنفس بها حاكمي الحتف والحيف ، وسبوا ، وحبوا وسلبوا ، وجلبوا ، وجالوا ، ونالوا ووقذوا ، وأخذوا ، واحتووا وارتووا ، وربطوا ، وضبطوا واستفادوا ، وفرسوا الفوارس ، وكنسوا الكنائس ، واستبوا الابكار العرائس ، والعون العوانس ، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف ، واستولى على تلك الشموس والاقمار الكسوف والخسوف ..

فتح نابلس

وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس حاسما بحسامه داء الشرك ، مالئا بسهام الفتك جعاب الترك . تاليا آي الفتح . جاليا رأي النجح ، ووصل الى سمسطية فتسلمها ، وتعجل مغنمها . ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسة ، واعادوها بالصور والآلات النفيسة أميسة . فاستخرج المصونات والمصوغات ، واستوعب العدد

والآلات . وأعاده مشهدا ، ورده مسجدا ، ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا ، وأصبح الدين به مثريا والكفر مقترا ، ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف جده غير كاب ، وحد بأسه طرير . وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وأيقنوا أنهم ان اقاموا لايأمنون المنون ، فان المسلمين بها وبأعمالها نهضوا اليهم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أماكنهم ، وخلوا دورهم واخلوها ، وتسللوا منها وسلوها ، وتحول الاقوياء الى قلعتها ، وتحصنوا بتلعتها . ونازلها حسام الدين وحاصرها . وطال عليه حصرها وصابرها ، ولم يزل عليها مقيما. ولقتالها مديما ، الى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا باحسانه . وسلموا وسلموا . واستأمنوا وأمنوا ، وخلصت له نابلس واعمالها . وحليت به احوالها . ولكون معظم اهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين ، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا ان يكونوا لحصنهم مسلمين ، فانمحى بالسعود رسم النحوس . ونزعنا عنها لبوس البوس ، واستبشرت وجوه اهلها بعد العبوس . وقام جاه الآذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها . واملاها بالرجال والعدد واشحنها . وهي للداوية حصن حصين . ومكان مكين وركن ركين . وفيها مشتاهم ومصيفهم . ومقراهم ومضيفهم . ومربط خيولهم . ومجر نيولهم . ومجرى سيولهم . ومجمع اخوانهم . ومشروع شيطانهم . وموضع صلبانهم . ومورد حمتهم . وموقد جمرتهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم . واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا واسروا . وخسروا وتحسروا . خلت طلول الفولة . بحدود

اهلها المفلولة . وماء داويتها المطلولة . ولم يجتمع شـمل غمـودها بالسيوف المسلولة . ولم يبـق بهـا الا رعايـا رعاع . وغلمـان واتباع . واشياع شعاع . فعدموا مكان حمـاية المكان . ووجـدوا امنهم في الاسـتئمان . فسـلموا الحصـن بمـا فيه الى السلطان . وكانت فيه اخاير الذخائر . وذفائس الأعلاق . فـوثقوا بما احكموه مـن الميثـاق . وخـرجوا ناجين . ودخلوا في الذمـام لاجين . والسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطـور واللجـون . وبيسـان والقيمون . وجميع ما لطبـرية وعكا مـن الولايات . والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومذوات .

فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال ، وقلصـت مـن الضـلال تلك الظلال ، وصفت الممالك ، ووفت المدارك ، أوعز السلطان الى ابـن أخيه الملك المظفر عمر ابن شـاهنشاه تقـي الدين بقصـد حصـن تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويسـتعين ، فـالقى عليه جـران بأسه ، ولقي بالتذليل حـران ناسـه ، وأخـذ في مضـايقته بأنفاسه ، ولمح مالمع من قبس فتحه فشفعت باقتباسه ، وسـنح له قنصه فاشرأب باقتناصه وافتراسه ، وكتب الى السلطان يبعثه على الوصول اليه بعسكره ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره • فضرب الكوس ، وسمت النفوس ، والنهوض في ظلام القتـام مـن التـرك والترائك الأقمار والشموس ، واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع تلك البوارق الرؤوس ، وتحرك السواد كمهيل النقا ، واشـتبك على الآساد غيل القنا ، وسالت الاودية بالسابحات العتاق ، وطالت على السير أعناق الاعناق ، ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهـل الكفـر رقاب الرقاق ، وجرت الفجـاج ، وتمـوجت الأفـواج ، وتفـوجت الامواج وتحركت غدران السوابغ ، من رياح السـوابق ، وتـدركت ضوامن الضوامر بالأرفاد في اردا ف الحق اللاحق ، وأسفر من بريق

البيض والبيض فلق الفيالق ، وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل وساح الساحل ، وراح الراحل ، ووصلنا الى تبنين في ثلاث مراحل ، فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الاثافي ، وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الاشافي ، ونزلنا عليها بالنوازل ، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل ، فتبلدوا من الرعب ، وتجلدوا على الحرب ، ثم خاروا وحاروا ، وجأروا وجاروا ، ورغبوا ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصبحوا ، وعجزوا فجزعوا ، وفزهم الحصر وفزعوا ، وشكوا الندوب.وندبوا فدانوا ودنوا ، وأذغنوا إذعنوا ، واعتذروا مما جنوا ، وراسلوا السلطان ،وسألوا الأمان ، واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا ، واقلع من بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق بالمهلة ، وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين ، فخرج المأسورون مسرورين ، وأصبح الصحب المكسورين مجبورين ، محبوين بالفرج بعد الشدة محبورين ، وسر بهم السلطان وسر بهم ، وأقرهم وقربهم ، وكساهم وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم ، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه وملك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد بعد عدمها وجودها ، ويحيي بعد اليأس آمالها ، ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها ، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف اسير القيود الف ، ووقع في أسرنا من الكفار مائة الف ، ولما خلوا القلعة ، وأخلوا البقعة ، سيرهم ومعهم من العسكر المنصور ، من أوصلهم الى صور ، ورتب في الموضع مملوكه سنقر الدووي ، فأرشد به ذلك الصقع الغوي ، فان أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنيس النافر ، وتعكيس الكافر ، وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل ، وقال له تبني بتبنين ماهدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخندقها كل مايمكن من التوثيق والتعميق ، ورحل ومعه رفيق التوفيق ، وكان النزول على تبنين يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر منه .

فتح صيدا

يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها . وسنحت له صيدا فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ، وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجد جديد،والمزاح مزاح والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح لمناشق اهل الهدى تفوح ، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح ، ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل ، وفكر الكفر قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، واوجهنا وأوجه البشائر باشر ، وقد جفت أجفانها البواتر الواترة ، وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للممالك من الملائك أمداد النصرة المتواتية المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين ، وعن حمي الحق دونها لأهل الباطل صادين ، ولما نزلنا من الوعز الى السهل سهل ماتوعر ، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة الى صرفند ، وأسمنا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، موروثة المناهل ، ذات بساتين ، وأزهار ورياحين ، وأشجار النارنج والأترنج ، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج ، فجسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلالها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية ، ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيدا وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ، فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياهب تلك المذاهب بنوارها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت آرابها ، وعادت معالمها

مأهولة ، بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدح منبـرها ، وصـدق مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ،

فتح بيروت

وكان النزول عليهـا يوم الخميس ثـاني عشري جمادي الاول وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين ، وجمـع لهمـا التحصـين والتحسين ، قـال لعصـمة الله شـيدي مـابصيدا وتبنين تبنين ، والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ، ولايطـرق ماتحمين ، ثم صرف عنانه ، وارهف سنانه ، ورحـل على سـمت بيروت ، مالئا بعسكره الآكام والمروت ، وسار على الساحل ، بتلك الجحافل ، يجر على البحـر مـائج ، ومجـر مجـر الى الهياج هائج ، ونقد من عقـد الجـد رائج ، وعزم على صـدق القصـد عائج ، ووصل اليها ونزل عليهـا ، وبنيت القبـاب ، وطفـا على خضم المعسـكر مـن الخيم الحبـاب ، وزحـف الى الأعداء الاخباب ، وضـويق البلد ، وفـورق الجلد ، وأحـاط الرجـال بأرجائه ، ورجمت بشـهب النصـال شـياطين الضـلال في سمائه ، وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتـلاطم عبـاب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه ، وترجل دونه الناس ، وتعجـل نحـوه الباس ، واصـطفت التـراس ، واشـتد المراس ، واحتـد القتال ، واحتدم النزال ، وامتد المصاع والمصال ، واتصل خـروج الجروخ للجروح ، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ، ومدت الجفاتي ، كأنها أعناق البخاتي ، وأتى العاتي وعتا الآتي ، وأحمد النصر الموافي المواتـي ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخـذي

وهاتي ، وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل النفط ، واشتعل الرهط ، والتهم الزارق والتهب الحراق ، ومرق الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، وأتى الوادي فطم على القرى ، ودبت الدبابة بليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث النبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وأنجزت مواعد الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالنوازل نوازي الأهوال ، ورعدت بوارق البوار ، واسعدت الاقدار ، بالأقدار ، وشغلت الرقاب، قواضي القواضب ، وحملت الذواكب على المناكب ، وخفت للأثقال اكتاف الفتاك ، وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الأشراك ، ودام القتال اياما ، يتضاعف اصطلاء واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا واضطراما ، وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة ، ورجمت بشهب النفاطات شياطين الداوية المردة ، وتعادت الأسود العادية ، على أولئك القردة ، حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق ، وكاد النقب يتسع ، والبرج يقع ، والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تنفض وترفض ، وسوار السور ينكسر ، وقناع النقع لاينحسر ، وخرج من البلد رجال ، الى الموت عجال ، وقفوا دون الباشورة مباشرين ، ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤوس المنون معاشرين ، فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام الكلام ، وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح ، وتواصلوا بالقواطع ،وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا وتجالدوا وتواقحوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا ، والبيض يقد ، والبيض تقد ، والباسل يرد ، والباس يرد ، والصقيل الصادي يصدأ بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام يقوى ، ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على اللدد ، وضافهم الرعب ، وضاق بهم الرحب ، وذلوا وخاروا ، وضلوا وحاروا ، ولما خام المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت ان المسلمين دخلوا ، فأجفلوا الى البحر اذ عدموا سكينتهم ، ليركبوا سفينتهم ، ويخلوا مدينتهم ، فخرج أحد المقدمين يستدعي الامان ، ويستعدي الايمان ، ويطلب مثالا يعصمهم ، وذماما

يحرمهم ، وعهدا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدا في عقد الأمن ينظمهم ، وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ، ومضض أجفاني ولعيون العواد ابرزني ، وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان ، فطلب السلطان كل كاتب في ديواني ، وكل من يمسك قلما من أفاضل الملك وأعيانه ، فلم يرضه ماكتبوه ، ولم يكفه مارتبوه فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني ومرضت اذهان الأصحاء ولم يمرض ذهني ، فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي ، وكان الناس قد انسوا بما اسطره وأزبره ، وأنسوا سوى ماأذكره واحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، ولقوا السقم في غيره فأنذفوه ، فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله توثيق ، فما فتح الا بمفتاحه ، ولارتق فتق الا باصلاحه ، ولاجلي ظلام الا باصباحه ، ولاوري زند الا باقتداحه ، وكانت يومئذ جمرة الحر متوهجة ، ووقدة القيظ متأججة ، وضرم مرضي ملتهب ، وروح روحي منتهبا ، وبقيت مضطربا ، ولقيت من ذلك الوصب نصبا • وحصلت من الاقامة أو السفر على الخطر أو الحذر ، وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن الاء شغلي بالآلام.

وحملني اختلالي بنصبي ، على اخلالي بمنصبي ، وعزت علي مفارقة السلطان ، وهو باعزازي على مواصلة الاحسان ، فمضيت على مضض وانصرفت بمضرة ومرض ، وحملت الى دمشق في محفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل ، بخفة ، فتفضل الله بالشفاء ، وبدل الكدر بالصفاء ، وعدت الى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الوحشة الى الأنس ، وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى مطاع الأمر ، مذاع السر في تضوع النشر • وتوضح البشر ، مستفيض الزيادة ، ناجح الارادة ، راجح العبادة ، رابح المتجر ، واضح المفخر ، قد شب غرب الهدى ، وجب غارب العدى واستجدى من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحا ، واستفاد ملكا ، واستزاد ملكا ، وبر بيروت اذ برت ، وحفلت له اخلاف

الفتوحات فدرت • واستمرى صوب من عزائمه وصرائمه فاستمرت .

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الأولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض . وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق الى الكافي الناهض . يتضمن ان اوك صاحب جبيل أسر اليه في أسره . واستشاره في أمره . وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل سلمت وسلمت . وابحتها لكم وتحرمت . واخرجتها من عصمتي وخرجت واعتصمت . فأنا اطلقها ان اطلقت . وأزيلها من وثاقي اذا وثقت . فأجيب باحترازه من كيده . واحضاره في قيده . فأحضر في صفده وسمح ببلده . فخلص ناجيا وملص راجيا . وملكت مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح النيل . ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون . ولاعداء الله مصابرون مكابرون . وكان معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين . مساكين لساكنة الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر . وصدحت المنابر . وترنمت المحاريب . وترنحت المطاريب . وتليت الآيات . وجليت الغيايات . وخربت الكنائس . وعمرت المدارس وظهر غيب البيع . وشهر جمع اجمع . وقرىء القرآن . واستشاط الشيطان . ونطقت الأعواد . وحقت الأعياد . وخرست النواقيس . وبطلت النواميس . ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا نفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم . وانتفشوا من شوكة عارهم . وقروا في ديارهم . وقروا ابصار بأنصارهم . وكان كل من استأمن من الكفار . يمضي الى صور محمي الذمار . وصارت

صور عش غشهم . ووكر مكرهم . وملجأ طريدهم . ومنجا شريدهم . ومأمن خاشيهم . ومكمن عاشيهم . وهي التي فر القومص اليها يوم كسرتهم . بل يوم حسرتهم .

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها . وآوى الى طرابلس وتوافى . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغي نجوة　　　من هلاك فهلك

فما انجاه الفرار من القضاء . وفر من البلاء الى بلاده فوقع في البلاء. وظن ان صور خلت . وان مجانيها حلت . وان جماحها اذعن . وان كفاحها امكن. وان فرصتها انتهزت . وان حصتها احرزت . وان قيادها اطاع . وان مرتادها استطاع لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس . كما يتعوض عن الشيطان بابليس .فادرك ذماء الكفر بعدما اشفى . وايقظ روع الروع بعدما اغفى . وضبط صور بمن فيها . من مهزموي الفرنج وبمذفييها . وكان المركيس من اكبر طواغيت الكفر واغوى شياطينه . وأضرى سراحينه . وأخبث ذئابه . وانجس كلابه . وانهش صلاله . وافحش ضلاله . وأغوى اعوانه . وأخون اخوانه . وأبغى بغاته . واجفى جفاته . وأرعى حماته . وأحمى رعاته . وشر شراره . وأنكر نكاره . وافجر فجاره . وأروغ ثعالبه . والسب عقاربه . وأحنث معاهديه . وأنكث معاقديه . وهو الطاغية الداهية . الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف الاسلام . واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل . وعمن فيها من المسلمين ذاهل . فعزم على ارساء الشيني بالمينا .ثم

تعجب وقال ما نرى احدا من اهلهـا يلتقينا . ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه . فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه . وبان تندمه . وتأخر تقدمه . وسأل عن الحال فأخبر بها . ففكر في النجاة وكيف يتعلق بسببها . ثم وقف بالقرب . فلبث على الرعب . والهواء راكد . والقضاء عنه راقد . فانه لو خـرج اليه مـركب لاخـذه . ولو وقف له قاصد لوقذه . فاحتال كيف يخرج بسفينته . ولا يذهل مـع فقد سكينته . وانتظر هبوب الريح الموافقة له فلم تهب . وما تـم له الاقلات على ما حب . فسأل عن البلد ومن إليه أمـره . ومـن بيده نفعه وضره . فقيل هو الملك الافضل . والملك الاكمل . فقال خـذوا لي منه امانا حتى ادخل . وارفع اليكم مـا معـي مـن المتـاع وانقل . فجيء اليه بالأمان . وقيل هذا بعلامة السلطان . فقال مـا اثق الا بخـط يده . ولا انزل الا بعهـده الى بلده . فمـا زال يردد الرسل . ويدير الحيل . حتى وافقتـه الريح فـاقلع . وافلت مـن الشرك بعدما وقع . وصار في صـور . فـزم الامـور . وأجـم الجمهور . وجرأ الكفر بعد خوره . وبصر الشيطان بعـد عمـاه وعوره . فاستعلى بالخزي . واستولى بـالغلي والبغـي . وارسـل رسله الى الجـزائر . وذوي الجـرائر . يسـتعدي ويسـتدعي . ويسـتودع ملة الصـليب عبـاده ويسـترعي . ويستثير . ويستزير . ويسـتنفر . ويسـتنصر . وثبـت في صـور ونبت . وجمع اليه من الفرنج من تشتت . وما فتح بلد بالامان . الا سار اهله في حفظ السلطان . حتـى يصـيروا في صـور . ويأمنوا المحذور . فاجتمع اليها اهـل البـلاد المفتـوحة . بـالقلوب المقفلة المقروحة . فامتلات وكانت خالية . وانتشأت وكانت بالية . وتعالت وكانت معتلة . وتعقـدت وكانت منحلة . وتسـددت وكانت مختلة . ولم يحتفل بها فأخر فتحها . وما ظن بها الضن حتـى علم شحها . فاستجدت رمقا بالمهلة . وتصعبت بعد مقـادتها السـهلة. فقضى امهـالها بـاهمالها . وعادت عيونهـا الى الاغفـاء باغفالها . والهى عن طلبها طلب ما هـو اشرف . والعـزم بفتحـه اشغف . وهو البيت المقدس . فـان فتحـه مـن كل فتـح انفس . والمركيس في أثناء ذلك يحفـر الخندق ويحـكمه . ويعقـد

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر مــا تجــدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعــاقل التــي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمــادى الآخرة، ولما فرغ السلطان من فتــح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجــر ويجــري مــن العســكر والعثير على الســماء والأرض الذيل والسيل . وعاد عابــرا على صــيدا وصرفند . وقــد اورى فيهمــا باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صــور ناظــرا اليهــا وعابــرا عليها . غير مكترث بأمرهــا . ولا متحدث في حصرهــا .ولا معتقــد في تعقدهــا .ولا متئد في تــوردهــا . وعلم ايضــا انهــا ممتنعــة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلتــه الفــراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالســاحل بلد منها أحصن . فعطف الأعنة الى ما هــو منهــا أهــون . وكان قــد استحضر ملك الفرنج ومقــدم الداوية . وشرط معهمــا واســتوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بهــا محسور محصور . فلما أرخي مــن وثــاقه . واتســع ضــيق خناقه . حلق في مطار اوطــاره . وحــرك لغــــواته أوتــــار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقــا على طــي المراحل ونشر القساطل . وحل معــاقد المعــاقل . وســل قــواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشديدهــا قــد لان . وقــد آتــاهــا الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودهــا الخــادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا وناحوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهــم اســتقبلوا الموت

واستقتلوا . وتعقدوا على الفتح وماتحللوا . واحزذوا في الاباء وما اسهلوا . وجهدوا وجهلوا . فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقها . وفرجت بالحجار طريقها . ورجت بالتفريق فريقها . ووسعت بالتضييق ضيقها . وأضعفت بالتوثيق وثوقها . وجمع شمل الحجارة بـ (النار التي وقودها الناس والحجارة)(البقرة ٢٤)ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة . وخربت منهم العمارة . ووجبت بالجسارة منا لهم الخسارة . وتهدمت الصخور بالصخور . ولزم عبث بورهم بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقاب . وباشر الباشورة فرفع الحجاب . واشتد القتال .واحتد المصال . وراسلهم عند ذلك الملك المأسور . وقال قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت حالات . وتكررت حوالات . وترددت رسالات . وقال لهم الملك الاسير . لا تخالفوا ما به اشير . واطيعوني ما استطعتم . واسمعوا مني اذا سمعتم . واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم . وحلية حالكم . ولا تخطروا غيري ببالكم . فاني اذا تخلصت خلصت . واذا استدفنت استدفنت . وخرج مقدمون وشاوروا الملك . ونهجوا في التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين . واستوفوا بذلك الميثاق واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة .وتلألأت السعود في أوجها بالاوجه السافرة . وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو اول امير افتتح بالشهادة . واختتم بالسعادة . وكان السلطان قد أخذ في طريقه اليها: الرملة،ويبنى،وبيت لحم،والخليل . واقام بها حتى تسلم حصون الداوية:غزة،والنطرون،وبيت جبريل . وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم اطلقه . فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه . واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان . على عسقلان . بشارة وبشارة . وراية وآية . وهيأة وهيبة . وثرة وثروه . وهزة وعده . وجدة وجده .وشد وشدة . وحد وحدة . وضوغه . وروعه . ونخوه . وسطوه . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت . ومساعير .

ومغاوير . ودهم . وذهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب وانجاد . وجلب ولجب • وبيض ويلب . وبيض وسود واساود وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعتاق . وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف وثقال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وحد لا يكل . وجد لا يمل . وجمر يتقى . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق كماة الاتراك . وهداة التوحيد عداة الاشراك . فقرت عينه بولده . واعتضد بعضده . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر . بالفلك المواخر . وجاءت كأنها امواجا تلاطم امواجا . وافواجا تزاحم افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخب كقطع الليل سحائبها . وتجر بالذوابل ذوائبها . وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها • وضرغام غابها وهمامها • فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا . قد اصحب ريض مناه . واخصب روض غناه . واصبح رائع الرجاء . أرج الارجاء سيب العرف . طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملا فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق . وكأنما اعاد العجاج واد الضحى جنح الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل • والسماء حاظية بأقساط القساطل • وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احاديث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على ماتنشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يخطب من القدس عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعمي ليحمل عنها بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع زهر المصابيح في سمائها . واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء الذين اقصاهم الله بلعنته من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات الناقوس منه بانطا ق الاذان . وكف الكفر عنه بايمان الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . وادناس ادنى الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخفقت افئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار انها ما عاشت . وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل بال باليان . واشتعل بالنيران . وخمدت نار بطر البطرك . وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك النفوس . ونسفك الدماء . ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح . ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها مقامتنا ٠ ومنها قيامتنا ٠ وتصحيح هامتنا ٠ وتصحيح

نداماتنا . وتسيح علاماتنا . وتسح عماماتنا . وبها غرامنا . وعليها غرامتنا . وباكرامها كرامتنا . وبسلامتها سلامتنا .وبـاستقامتها استقامتنا . وفي استدامتها اسـتدامتنا . وان تخلينا عنهـا لزمـت لامتنا . ووجبت مـلامتنا . ففيهـا المصـلب والمطلب . والمذبـح والمقرب . والمجمع والمعبـد . والمهبـط والمصـعد . والمرقـي والمرقـب .والمشرب والملعـب . والمـوه والمذهـب . والمطلع والمقطع . والمربـي والمربـع . والمرخـم والمخـرم . والمحال والمحرم . والصور والاشـكال . والانظـار والامثـال . والآسـاد والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسـام والارواح . وفيها صـور الحـواريين في حـوارهم . والاحبـار في احبارهم . والرهـابين في صـوامعهم . والاقسـاء في مجامعهم والسحرة وحبالها . والكهنة وخيالها . ومثال السيدة والسـيد . والهيكل والمولد . والمائدة والحـوت . والمنعـوت والمنحوت . والتلميذ والمعلم . والمهد والصـبي المتـكلم . وصـورة الكبش والحمار . والجنة والنار . والذواقيس . والذواميس.قـالوا: وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسـد اللاهـوت . وتـأله الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصـليب . ونزل النور . وزال الديجور . وازدوجت الطبيعـة بـالاقنوم . وامتـزج الموجـود بالمعدوم . وعمدت معمـودية المعبـود . ومخضـت البتـول بالمولود . وأضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات .ما ضـلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات . وقـالوا دون مقبـرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت . وعنها ندافع . وعليها نقارع . ومـا لنا لا نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا . وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا . وتأهبوا وتباهوا . ومانتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق امات الاسـواء على الاسوار . وسـتروا بـظلمات السـتائر وجـوه الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحـت سراحينهـم وطغـت طواغيتهم . وأصلتت مصاليتهم . ونشرت طواميرهم . وتسـعرت مساعيرهم . وهـاج هـائجهم . ومـاج مـائجهم . ودعت دواعيهم . وعدت عواديهـم . وسـعت افـاعيهم . وحضـتهم

قسوسهم . وحرضتهم رؤرسهم . وحركتهم نفـوسهم . وجـاءتهم
بجوى السوء جوا سيسهم . واخبرتهم باقبال العسـاكر الناصرية
منصورة الجنود . منشورة البنود . موصولة القـواطع بـالاشاجع
مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهودة الكتائب . مقـودة
الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهـدى . مشـبوبة
العزائم . مجذونة الصـلادم . مسـاولة الظبـا . مـطاولة
الربا . مجذوبة أجنة اغمادها . مسنونة اسنة صـعادها . مـطلقة
اعنة جيادها . محققة مظنة طـرادها . قـد سـالت الوهـاد
باكامها . وجالت الأعلام في اعلامهـا . وسـدت الفجـاج
امواجها . وحجبت الغـزالة عقبـانها . والهبـت الذبـالة
خرصانها . وجرت بالجبال رياحها . وجـرت كالحبـال رمـاحها
واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بـالعظائم قبيلهـا . ووافى كل
واف بعهد ربه . كاف لكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضـاف بفيض
شربه . خاف في لبوسه . باسل بباسه . عاسل بأمراسه . ناسـل
بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند
بسواعده .فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده . جاد
بحـده . وكل شـاب لنار الحـرب شـاب . ورب دين لدين الرب
راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذي ذبـاب عن الهـدى
ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة
عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مـال . واقبـل
السلطان بـاقبال سـلطانه . وابـطال شـجعانه . واقيال أولاده
واخوانه . واشبال ممـاليكه وغلمـانه . وكرام امـرائه . وعظـام
أوليائه . في مقانب بـالمناقب مقنبـه . وكتـائب بـالمواكب
مكتبة . وذوابل بالكواكب منصـله . وجحـافل بمضـاء المضـارب
محفله . وألوية صفر للاواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزرق زرق
العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصـوافن
صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل مـن يبـذل
للشح بثينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطـريقه
الادنى • وفريقه الاسنى • يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه مـن
الحسنى •

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا .وأي يد له عندنا اذا ايدنا . فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنة . لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه . ودامت همم الملوك دونه متوسنة . وخلت القرون عنه متخلية . وحلت الفرنج به متولية . فما ادخر الله فضيلة فتحه . الا لآل ايوب . ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار . ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار . وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الاقوى . والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى . وهو مقام الانبياء . وموقف الاولياء . ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر . ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج . ومنها منهاج المعراج . ولها القبة الشماء التي على راسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود . وفيه كرسي سليمان ومحراب داود . وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود . وهو اول القبلتين . وثاني البيتين . وثالث الحرمين . وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال . ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره . كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة . وقال عز من قائل : «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ». وله فضائل ومناقب لا تحصى . واليه ومنه كان الاسراء . ولأرضه فتحت السماء . وعنه تؤثر انباء الأنبياء وآلاء الأولياء . ومشاهد الشهداء . وكرامات الكرماء . وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار . ومسارح المسار . وصخرته الطولى . القبلة الاولى . ومنها

تعالت القدم النبوية . وتوالت البركة العلوية . وعندها صـلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين . وصحب الروح الامين . وصعد منها الى اعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السـلام الذي قـال الله فيه : « كلما دخـل عليهـا زكريا » . ولنهـاره التعبـد والليله المحيا . وهو الذي اسسـه داود واوصى ببنائه سـليمان . ولاجـل اجلاله انزل الله « سبحان ».وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت بـه سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمـه . واعلاه واجلاه . واسماه واسناه . وايمن بركاته وابرك ميامنه . واحسن حالاته واحلى محاسنه . وازين مباهجه وابهج مزاينه . وقد اظهـر الله طوله وطوله .بقوله : «الذي باركنا حوله » . وكم فيه من الآيات التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف السلطان من خصائصه ومـزاياه . مـا وثـق على اسـتعادة آلائه مواثيقه والاياه . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفـع بـأعلاه علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصـغي الى صرخة الصخرة .ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقـا بكمال النصرة وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع الحسرة . ونزل على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب . وقلب الكفـر قـد وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجى والشـجب . والقـدر قـد اظهر العجب . وكان في القـدس حينئذ مـن الفـرنج سـتون الف مقاتل . من سائف ونابـل . وبـطل للبـاطل . وعاس عاسـل بالعاسل .قد وقفوا دون البلد يبـارزون ويحـاجزون . ويعـاجزون ويناجزون . ويرمون ويدمـون . ويحمـونه ويحمـون . ويحتـدون ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشـبون ويسبون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتغـوثون . ويلوذون ويلوبون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمـون . ويتململون ويألمون . ويتعاوون . ويتضاعون ويحترقون للبـلايا . ويقتـرحون المنايا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضـال . ونازلوا اجـد نزال . وطافوا بصحاف الصفاح . لارواء الظبا الظمـاء مـن مـاء الارواح . وجالوا بالأوجال . واجالوا قداح الآجال . وصالوا لقطع

الاوصال . والتهموا . والتهبوا . وتأشبوا وذشـبوا .واسـتهدفوا السهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل عشرين بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقلى السلامة . ودامت الحرب . واسـتمر الطعـن والضرب . فـانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم هنالك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصـب المجانيق . ومري مـن آفـاتها الافـاويق . واصرخ الصـخرة بالصخور . وحشر حشر السوء منهـم وراء السـور . فمـا عادوا يخرجون مـن السـور الرؤوس . الا ويلقـون البـوس . واليوم العبوس . ويلقون على الردى الذفوس . فللداوية دوي . وللبارونية من البوار في الهاوية هوى . وللاسبتار تبار . ومـا للفـريرية مـن الموت فرار . وما بين الحجـار المحلقـة وبين المرمـى اليهـم حجاب . وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة . والقلوب للوجد بـالقتال ملهـوفة . والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والذفوس لاستبطاء الهمـم في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجذ شراريفـه بـالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فـكائن المجـانيق مجـانين يرامون . ومناجيد لا يرامون .وجبـال تجـذبها حبـال . ورجـال تنجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلد البلايا . لا حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سـهامها الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكم نجـم من سمائها ينقض . وصخر من ارضها يرفض . وجمر من شرارها ينفض . ومـا شيء كآفـات كفـاتها . وآيات نكاياتهـا . وركات اد ركاتها . ولفتات فلتـاتها وجـذبات عذبـاتها . فمـا زالت تقلع بمقالعها . وتقرع بمقـارعها وتمتـح بـأ شطانها .وتمـرح في ارسانها . وتصـدم . وتهـدم . وتصرع . وتصـدع . وتنهـز بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحـل تـركيب الجـلاميد بـأفراد جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القـواعد بضربها من اساها . وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها . وتشـفه

الموارد بشربها من كأسها . حتى تركت السور سورا . وجعلت الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخرق الخندق وحفز الزحف . وظهر للاسلام الفتح وللكفر الحتف . واخذ النقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل المراد . وكلم المراد . وثغر الثغر . وأمر الأمر . وأربى الأرب . واستتب السبب وخاف القوم الوقم . واستعاضوا من الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنار خندقه . وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الامان لقومه . وتمنع السلطان وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هو الا أن نديم لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسفك من الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنساء السباء . وابى في تأمينهم الا الاباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا اذا آيسنا من أمانكم . وخفنا من سلطانكم . وخبنا من احسانكم . وأيقنا ان لا نجاة ولا نجاح . ولا صلح ولا صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المستشري بالشر . ونقتحم اقتحام المستضري من الضر . ونلقي انفسنا على النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى ايدينا بالفتك منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سبينا السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من عندنا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقد عرف ان كلامنا من الذل عزوف وللعز الوف . واما الاموال فإنا نعطبها ولا نعطيها . واما الذراري فانا نسارع الى اعدامها ولا نستبطيها . فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى الصلح . ورب مدلج اضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح . فعقد السلطان محضرا المشورة . وأحضر كبراء عساكره المنصورة . وشاورهم في الأمر . وحاورهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستكشف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصالحة المربحة . وقال ان الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وأن الحصة قد حصلت ونستخير الله في احرازها . وأن فاتت لاتستدرك . وان افلتت لا تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعادة . واخلصك لهذه العبادة . ورأيك حاشد .وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد . واستقر بعد مراودات ومعاودات . ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها الغبطة . وتحصل منها الحوطة اشتروا بها منا انفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على انه من اعجز بعد اربعين يوما عما لزمه . أو امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امراة خمسة وكل صغير او صغيرة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان . وبذل ابن بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام ابالاداء ولم ينكل عن الوفاء . فمن سلم خرج من بيته آمنا . ولم يعد اليه ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الأبواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الذواب . ووكل بكل باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن استخرج منه خرج . ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنما تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى . وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلي من السور بالحبال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهبة . وفي التمسك بملتها متعصبة . انفاسها متصاعدة للحزن . وعبراتها منحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال واشياء واشياع ومتاع واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . واذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن أدعى انه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فليب ام هنفري اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء الف ارمني ادعي انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ من أحد الدواوين خطا بالأداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا امناء . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والذفع وبقي من بقي تحت رق واسار • ينتظر به انقضاء المدة المضروبة • والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة •

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج . وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من الالسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيأة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه الابرار . ووجهه بنور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه مفتوح ورفده ممنوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه مقبل . ومحياه يلوح . ورياه يفوح . ومحبته تروق ومهابته تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض امواء السخاء . وفض أفواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كعبة الأمل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسته به هالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف ينشدون وينشدون . والاعلام تبرز لتنشر . والاقلام تزبر لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة تخشع . والالسنة بالابتهال بالله تضرع . والكاتب ينشي ويوشي ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبهت قلمي الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي اللطائف . وما ارسلت يراعى الا ليراعى الرسائل . ويشيع الفواضل . ويشبع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان في حجمه قصر . ويصول باللهجة وان كان في هجمه حصر . ويسمن الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض الغرة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخلف والوفاق . والارقاق والاعناق . والعدة والانجاز . والجدة والاعواز والفتق والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع العروش . ويوحش المستأنس المستوحش .وينعش العاثر ويعثر المتنعش • يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء •. فبشرت باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملأت البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت فضيلتها وبينت . واديت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من النوبة فاقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدبيري وادبر علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت خفة في النفس وأنست بابلالي بعض الانس وامنت لو ثوقي بالصحة والاستقامة من النكس ، فاوجهت الى تلك الجهة وسرت بطاعة النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المتكرهة واخترت تعب السفر على راحة الاقامة ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة وسرى عنه وسر وابر وبر وقال:اين كنت.ولم ابطأت.وحيث اصبت في المجيء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك.والسؤال عن اخبارك.وهذا اوان احسانك.فاين احسان اوانك.فاجر بنانك بجرأة بيانك.واجر في ميدانك.وما البشائر الا واصفها.والفرائد الا راصفها . وللفصاحة الا قسها . وللحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها . واقتضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز.فقال لهذا من هو اقوم به وعناني.فلما رآني ناداني واستدناني • فصرفت الى امتثال أمره عناني • وسلم إلى الكتب التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال :
غيرها . ولاتسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثبجها . وافترع المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بايات الذكر . فاستجديتها فما استجدتها . واستجدبتها فما استملحتها .وشممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في افتضاض الابكار . واقتضاء الافكار . واقتراح القريحة . واقتراء رحاب الكلم

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت واشبعت . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت . واطربت واطربت . وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت . وطابقت وجانست . ووافقت وانست وبينت فضل عصر الامام الناصر على الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح ادخره الله لزمانه ومكن منه لمكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا بإحسانه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه . وذكرت من هذا كل ماراق وشاق . وذور الافاق . وان هذه الفتوح تفوح بارج نشره . وتحيى بحيا برة . فما ايمن ايامنا بايامه . وماا سعد امالنا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف . ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي . وحليت المعالي . وقرحت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلوت : (شرع لكم من الدين ماوصى)(الشورى ٤٢) وهنأت الحجر الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق . وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى اكثر من عشرة . وجدوا في ضم ماوجدوا من امور لهم منتشره. وكنسوا كنائسهم . واخذوا من نفائسهم . ونقلوا منها الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحريريات والمذهبات . من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ماكان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين . وجمع ماكان في قمامة من الجنسين والنسجين . فقلت للسلطان،هذه اموال وافره. واحوال ظاهرة . تبلغ مائتي الف دينار . والامان على اموالهم لااموال الكنائس والاديار . فلا تتركها في ايدي هؤلاء الفجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولانتركهم يرمون اهل الايمان بنكث الايمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان . فتركوا ماثقل وحملوا ماعز . وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الي صور .وكتفوا بالديجور . وبقي منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فانهم الفوا ذلا لم يكونوا به بالاف . فاقتسمتهم ايدي السبي أيدي سبأ . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا . واحصيت النساء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقتسمة • واصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكه ملكت . وعزباء نكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخيبة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت .وفارغة شغلت • وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحنت . وعذراء افترعت . وشماء فرعت . ولمياه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة أصحبت . ورضية أصبحت . فكم تسرى منهن سري . وتجرأ عليهن جري . وقضى وطره عزب . ونفى نهمه سغب • وفثأ سورته شغب . وكم غانية استخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت .ووحشية صيدت، وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابى النصارى بعد اداء القـطيعة ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولايزعجوا . وبـذلوا خـدما وخدموا ببذول . وقابلوا كل مالزموا به بـالتزام وقبـول . واعطـوا الجزية عن يد وهـم صاغرون . وشحت افواهم بما شـجاهم فـزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا في الذمة . وخرجوا الى العصـمه . وشـغلوا بـالخدمه . واسـتعملوا في المهنه . وعدوا المنحـة في تلك المحنة .

ذكر ماظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحـراب . وحتـم بـه امـر الايجاب . وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذوه مسـتراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قـد بنوا مـن غربي القبلة دارا وسيعة . وكنيسـة رفيعـة . فـاوعز بـرفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف مـاحوله مـن الافنية . بحيث يجتمـع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصـب المنبـر واظهـر المحـراب المطهر • ونقض ماحدثوه بين السواري . وفـرشوا تلك البسـيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقـت القناديل . وتلي التنزيل . وحق الحق وبـطلت الابـاطيل . وتـولى الفـرقان وعزل الانجيل . وصفت السـجادات . وصـفت العبـادات . واقيمـت الصـلوات . واديمـت الدعوات . وتجلت البـركات . وانجلت الكربات • وانجابت الغيابات . وانتابت الهدايات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبـوس والبـوس . وطـابت الانفـاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من معـدنه . وورد القـراء وقـرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد . وعبد الواحد . ووحد العابد . وتـوافد الراكع والسـاجد . والخـاشع والواجـد . والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم والقاعد • والمتهجد الساهد . والزائر والوافد . وصـدح المنبـر • وصـدع المذكر . وانبعـث المعشر . وذكر البعـث والمحشر . واملى الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث الرواة . وروى المحـدثون . وتحذف الهـداة وهـدى المتحذفـون . واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المتـرخصون . ولخص المفسرون • وفسر الملخصون . وانتدى الفضـلاء وانتـدب الخطباء . وكثر المتـرشحون الخـطابة . المتـوشحون بـالاصابة . المعروفون بالفصاحة •**الموصوفون بالحصافة** فما فيهم الا من خطب الرتبة • ورتب الخطبة . وانشأ معني شائقا . ووشى لفظا رائقـا . وسوى كلاما بالموضع لائقا . وروى مبتكرا مـن البـلاغة فـائقا . وفيهم من عرض علي خطبته . وطلب مني نصبته • وتمنى ان ترجح فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهـم طـال الى الالتهاء بها عذقه . وسال من الالتهاب عليها عرقه . ومامنهم الا من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقـرب . وفيهـم مـن يتعـرض ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقـر لبـاسه . وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينص . ومنهـم مـن يقـول ليتني خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعـة رابـع شـعبان . اصبح الناس يسـألون في تعيين الخـطيب السـلطان • وامتـلأ الجامع • واحتفلت المجامع • وتـوجست الابصـار والمسـامع • وفاضت لرقة القلوب المدامع • وراعت لحلية تلك الحالة وبهـاء تلك البهجة الروائع • وشـاعت مـن سر السرور بلبس حبـر الحبـور الشوائع • وغصت بالسابقين اليها المواضع • وتوسعت العيون • وتقسمت الظنون • وقال الناس:هـذا يوم كريم • وفضـل عميم • وموسم عظيم • هذا يوم تجاب فيه الدعوات • وتصاب البركات • وتسال العبرات • وتقال العثرات • ويتيقظ الغـافلون • ويتعـظ العاملون • وطـوبى لمن عاش • حتـى حضر هـذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وماافضل هــذه الطـائفة الحــاضرة • والعصبة الطاهرة • والامــة الظـاهرة • ومــااكرم هــذه النصرة الناصرية • والاسرة الامـــامية • والدعوة العبـــاسية • والمملكة الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا فيمن يخطب • ولمن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفـويض • وتحدثوا بــالتصريح والتعـريض • والاعلام تعلى • والمنبـر يكسى ويجلى • والاصوات تـرتفع • والجمـاعات تجتمـع • والافـواج تزدحم • والامواج تلتطم • وللعارفين من الضجيج • ما في عرفات الحجيج . حتـــى حـــان الزوال . وزال الاعتـــدال • وحيعـــل الداعي (١) • واعجل الســاعى • فنصـب الســلطان الخــطيب بنصه • وابان عن اختياره بعد فحصه • واوعز الى القــاضي محيي الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بــان يرقــى ذلك المرقى • وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى • فأعرته من عندي اهبة سوداء من تشريف الخـلافة • حتــى تـكتمل له شرف الافــاضة والاضافة . فرقى العود . ولقى السعود . واهتزت اعطاف المنبـر . واعتزت اطراف المعشر . وخطب وانصتوا . ونطق وسكتوا . وافصح واعرب . وابدع واغرب . وابدع واغرب . واعجز واعجب .
واوجز واسهب . ووعز في خطيتبه . وخطب بمـوعظتيه . وابــان عن فضل البيت المقدس وتقديسه . والمسجد الاقصى من اول تــأسيسه . وطهيره بعد تنجيسه . واخراس ناقوسه واخــراج قسـيسه . ودعا الخليفة والسلطان . وختم بقـوله تعــالى « ان الله يأمــر بـــالعدل والاحسان . (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب . وافتتح ببسم الله من أم الكتاب . فائتم بتلك الامة . وثم نزول الرحمـــه . وكمـــل وصول النعمــة . ولما قضـــيت الصـــلاة انتشر الناس . واشــــهر الايناس . وانعقد الاجتماع واطرد القياس . وكان قد نصــب للوعظ تجاه القبلة سرير . ليقرعه كبير . فجلس عليه زين الدين ابو الحسن علي بن نجا . فذكر من خاف ومن رجا . ومن سعد ومن شقي ومـــن هلك ومن نجا . وخوف بالحجة ذوي الحجا . وجلا بذور عظاته مـــن ظلمات الشبهات مادجا . واتى بكل عظه للراقدين موقظة . وللظالمين

محفظة . ولاولياء الله مرققة ولاعداء الله مغلظة . وضج المتباكون . وعج المتشاكون . ورقت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت النعرات . وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون . واناب المتحوبون . وصاح التوابون . وناح الاوابون • وجرت حالات جلت . وجلوات حلت . ودعوات علت • وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة . والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم يتركوا فيها للايدي المتبركة ولاللعيون المدركة ملمسا ولامطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل . وكملوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة . باعمدة الرخام منصبه . وقالوا محل قدم المسيح . وهو مقام التقديس والتسبيح . وكانت فيها صور الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير. والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة • فامر السلطان بكشف نقابها . ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها ونقض بنائها . وفض غطائها . وابرزها للزائرين . وأظهرها للناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراءة حسنها . واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح . وجلاء شرفها الصريح . وردها الى الحالة الحالية .

واشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى الان كل يوم في مزيد . ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما من احسن القراء تلاوة . وازينهم طلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم في الديانة صيتا . واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . واطيبهم في العرف والنشر . واغناه واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف عليه دارا وارضا وبستانا . واسدى اليه معروفا دارا واحسانا . وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات . وربعات معظمات . ولاتزال بين ايدي الزائرين على كراسيها مرفوعة . وعلى اسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه • قومه تشمل مصالحها ضامه • فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون • فما ابهج ليلها وقد حضرت الجموع • وزهرت الشموع • وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقين الدموع • واستعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره . وكل اشعث اغبر لايوبه له لو اقسم على الله لابره • وهناك كل من يحيي الليل ويقومه • ويسمو بالحق ويسومه • وهناك من يختم القرآن ويرتله . ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته لمعرفته الاسحار • ومن الفته لتهجده الاوراد والاذكار . ومااسعد نهارها • حين تستقبل الملائكة زوارها • وتلحف الشمس انوارها أنوارها • وتحمل القلوب اليها اسرارها • وتضع الجناة عندها اوزارها • وتستهدي صبيحة كل يوم منها اسفارها • وماأظهر من تولى اظهارها • واطهر من باشر اطهارها • وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينية . ونقلوا منها الى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبا . واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بانت مقاطعها . فهي الان مبرزة للعيون بحزها . باقية على الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهـذا كله تـم بعـد انفصـال السلطان . والشروع في العمران • وامر بترخيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثـر بهـا مـن الاثار الحسنة . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشـكر الالسـنة . فمـا منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ماامكن . وجلى وبين وحلى وزين.

واشـفق واذفـق . واغنى واقنى . واعتني وابتني . ووفى واوفي . واصفى واضفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جزيل . ومن جلى ومنح جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمـة . وفضـيلة بهـا تـرجع . ووسيلة بها نجح . واتي الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم بـه العرف وغمر . ونهى وامـر . وبنى وعمـر . ومـن جملة افعـاله المشكورة • ومكرماته المشهورة • انه حضر يوما في قبة الصـخرة . مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولاجـل الصدقة والرفد مال . فانتهز فرصة هـذه الفضـيلة التـي ابتـكرها بالافتراض . وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص . ثم غسـلها بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت.

وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتـى بمجـامر الطيب فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى • وأرغمت آناف العدى • ومازال مع قوته • في تطهير البقعـة المبـاركة طـول يومه • حتـى تيقنت طهـارتها • وبينت عمـارتها • وراقـب نضارتها • ووقفت عليها الاستحسان نظارتها • ثم فـرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق • وافتخر بأن فـاق الكرام بـالانفاق • وجاء الملك الافضـل نور الدين علي .بـكل نور جلي • وكرم ملي • واحسان سني • وانعـام هني وعرف زكي وعرف ذكي • وعطـاء مبتدع • وانطلق بحمده الالسن • وبسط بها الصنيعة وفرش فيهـا البسط الرفيعة • وهدي واهـدى • واعاد بعـد مـاابدى • وانار واسدى • وافاض الندى • وفض الجدا • ونفض الاكياس • حتى خلنا به الانفاض والافلاس • وسيأتي ذكر مااعتمده من بناء اسوار القدس وحفر خنادقه • واعجز بما اعجـب مـن سـوابق معـروفة

ولواحقة • مالم يشق احد فيه غبارة • ولاملك سابق فيه مضماره •
واما الملك العزيز عثمان • فانه اتى بالاحسان الذي استظهر به
الايمان • وذلك انه لما عاد الى مصر • وقد شاهد الفتح والنصر •
ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها • ولم ير بعد حصولها به نقلها •
وكانت احمالا باموال • واثقالا كجبال • وذخائر وافية • وعددا
واقية ودروعا سوابغ • ونصولا دوامغ • وخوذا وترائك •
ورماحات ونيازك • وقنا وقنابل • وصواقل وذوابل • وجروخا
وقسيا • ويمانيا وهنديا • يزنيا • ورديبنيا ومشرفيا • وزيارات •
ونفاطات وقطاعات• وعدد النقوب . وجميع ادوات الحروب .
فاستظهرت بها المدينة . وتوثقت بها عراها المتينة . وكان من جملة
ماشرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم . ويخرجوا قبل ان
يستوفي الباقون في اداء القطيعة مدتهم . فتوفرت بذلك عدد البلد .
واستغني بذلك عما يصل من المدد .

ذكر محراب داو د عليه السلام . وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس . وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن
عند باب المدينة منيع-وموضع عال رفيع . وهو الحصن الذي يقيم به
الوالي . فاعتنى السلطان باحواله الحوالي ورتب له اماما .
ومؤذنين وقواما . وهو بمثابة الصالحين . ومزار الغادين
والرائحين . فاحياه وجدده . ونهج لقاصديه جدده . وامر بعمارة
جميع المساجد . وصون المشاهد وانجاح المقاصد . واصفاء الموارد
للقاصد والوارد . وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما
السلام . وكان ينتابهما فيها الانام . وكان الملك العادل نازلا في
كنيسة صهيون . واجناده على بابها مخيمون . وفاوض السلطان
جلساؤه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار في مدرسة للفقهاء
الشافعية . ورباط الصلحاءالصوفية . فعين للمدرسة الكنيسة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط • وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط . ووقف عليهما وقـوفا . واسـدى بـذلك الى الطائفين معروفا . وارتاد ايضا مدارس للطـوائف . ليضـيفها الى ما اولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمـامة • وحـرم على النصارى زيارتها ولاالالمامة • وتفاوض الناس عنده فيها •

فمنهم من اشار بهـدم مبـانيها .وتعفية آثـارها . وتعمية نهـج مزارها . وإزالة تماثيلها . وإزاحة أباطيلها . واطفـاء قناديلهـا . واعفاء اناجيلها • وانهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقـالوا اذا هدمت مبانيها . وألحقت باسافلها أعاليهـا . ونبشـت المقبـرة وعفيت . وأخمـدت نيرانهـا وأطفيت . ومحيت رسـومها ونفيت . وحرثت أرضها . ودمر طولها وعرضـها . انقـطعت عنهـا امـداد الزوار . وانحسمت عن قصدها مواد اطمـاع أهـل النار . ومهمـا استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال أكثر الناس لافـائدة في هدمها ولا هدها . ولايؤذن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصـليب والقبـر لامـايشاهد مـن البناء . ولاينقطع عنهـا قصـد اجناس النصرانية ولونسـفت ارضـها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صـدر الاسلام أقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به مـن الفتـح العـظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسـيم . واليوم الاغر الأعز الكريم . والشرف الذي نخـره الله لهـذا العصر ليفضـلـه . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هـذه الايام ليكون بهـا تـاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . وافتضاض عذرته . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسـه . وقـد رجـع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى بـه مـن سراره . وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة الى مـاكانت موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس . وقد اقصي عن المسـجد الاقصى الاقصـون من الله الابعدون . وتـوافد اليه المصـطفون الاقـربون . والملائكة المقربون . وخرس الناقوس بزجل المسـبحين . وخـرج المفسـدون بدخول المصلحين . وقال المحـراب لأهله مـرحبا وأهـلا . وشـمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة مـاجمع للاسـلام فيه شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت مـن بـره أوفى نصيب . وتلت بالسنة عذبـة : « نصر مـن الله وفتـح قـريب» . (الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بـدموع المتقين مـن دنس المشركين . وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد ينسي من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالتها براهين الاعجـاز المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجـدد لهـا مـن البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثـاني المسـجدين . بـل ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر.وتـطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أدناس الارجاس . وتضـوع أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحـاش بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمـة عليه لبـاس البـاس . وجعـل عصر مـولانا أمير المؤمنين صـلوات الله عليه على الاعصر مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخـر الدين والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامـه فتـح البـلاد السـاحلية بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطـاغية مـن الفـرنج بقتلهـا وأسرها . ولقد حـل الكفـر عروة عروة . وهـد ذروة ذروة وعادت حباله رثاثا . وعقوده انكاثا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعـد أن شوهد اهل الذمة أحـداثا . فـالرتاج مسـتفتح . والرجـاء مستنجح . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة . والعقائل مفتضه .والمعاقل منفضـة . ومناهـل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضه . والثغور مبتسمه . والأمور منتظمة . والحصون متسلمة . والخصوم مذعنة مستسلمة . وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يستولى على اوساطها وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة . والموهبة وأن خصت هذا الاقليم فهي في جميع أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ⋆» (الكهف-١٠٩) والقاضي ضياء الدين القاسم الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور مصادر شرحه . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ماتسنى من فتحه . ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه .

عادالحديث الى ما جرى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتي تسلم مابقربها من حصون . واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله الى عكا عائدا . وعن حوزتها ببأسة وجوده ذائدا . ثم تبعه الملك المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما جمعه ففرقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه . وفرضه بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسهم منه ابن السبيل . وحمل به عن الغارم . واحيى به سنن المكارم . ووضعه في أهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي الاضافة . والانفاق في أهل الفاقه . واجنى الاجناد منه مقاطف .

وجعل المجاهدين منه وظائف . وابقاه بافنائه ذخرا للاخرة .
وكسبا المحامد الفاخرة . فاكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما
فضه بفضله . فقال كيف أمنع الحق مستحقيه . وهذا الذي أنفقه هو
الذي أبقيه . واذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فانه
يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وديعة
احفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر . والافاضة
في نظم من حمده ونثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتفيأ كل
فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالوسائل .
والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوارد .
والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والسالكون للطرائق .
والمالكون للحقائق . فما ترى الا قارئا باللسان الفصيح . وراويا
للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة . ومتفحصا عن مشكلة وموردا
لحديث نبوي . وذاكرا لحكم مذهبي . وسائلا عن لفظ لغوي .
ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض . أو معرضا بتصريح أو مصرحا
بتعريض أو جالبا لمدحه . أو طالبا لمنحه . او مستضعفا بفاقه . او
مستسعفا بافاقه . أو ناشدا بنشيده . أو مسمعا بتغريب وتغريد .
وما فيهم الا من أحظي بسهم . أو ارضي بقسم . وأصيب وأجيب .
واجيز بتقرير وتقريب ، فقيل له لو نخرت هذا المال للمآل . لشفيت
به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال .
فقال أملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الاسراء
المطلقين . وكانوا ألوفا من المسلمين . فكساهم وأساهم .
وواساهم . وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره .
ناجيا من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيما . للنظر في
مصالحه مستديما . فقيل ما قعودك عن صور . فأنهض اليها
عسكرك المنصور . وانت تدخلها يوم وصولك . وتحظى منها بمرادك
وسؤالك ، فآذن السير . وآخ والخير . وأحصر الخبر . واحظر
التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبضة . وفي بدار
الالمام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بابدارها . فأسر
بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الاعمال واقطع . واكثر من
كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

- ٥٨٨١ -
بالمشطوب . وكان من أكابر الامراء الكافين للخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وبيروت . وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحض . وحرض على الفرض . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها. وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا . وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق اليها مضيقا .واحكم اسباب الاحكام . وأخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس ودان ودان .وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة .ثم اوصاه وشيعه واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظهرا بأخائه . ومستبشرا بآلائه . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستغنيا بغنائه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل .وبشده يشد وبحاوله يحل . والعساكر بالفضاء فائضه .وللخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة . ومن هواها انها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه .باهرا بتاخيره وتقديمه .قاهرا بشباه المبير . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره .وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهله .ويحرض بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وتفوت باللبث . فسار لندائه ملبيا . ولجيش النصر معبيا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيدا . فوصل الى صور تــاسع شــهر رمضــان يوم الجمعــة . بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا مــن ســورها . سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبابه . مجذوبة عرابه . محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه . منشورة راياته منصــورة آراؤه . خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجــح في الانحــاء ثرات صوب صوابه.قد كست خيامه عري العــراء . وفضــت أشــعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء . واحتوت مضاربه المضــيئة بــالائه وآرائه على مضارب المضاء . وبــاحت اســتباحه حمــى المشركين الموحدين ببسر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المــدد . وتــكامل العدد . واستحضر آلات الحصار . واستكثر من المجانيق الصــفار والكبار .ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس .في خميس يسير في الوشــيج كالاســد في الخيس .ونزلت النوازل المركســـة مـــن نزوله ونزاله بـــالمركيس .فـــوقع في الدردبيس .والعذاب البيئس . فكانما نفخ في صــور صــور . فحشر أهل جهنم وملأوا السور *. واتصـــلت زيارة الزيارات للجـــروح بالجروخ . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وارسلت الحجارات حاجرة جاجزه . والسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج مــن القدس وبلاد الساحل محتــوية . فضــجوا وارتجــوا . وعاجـــوا وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا .وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا من الشرافات الشرفات . بــالشرور والافــات . وســلب الحجــار حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت * ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نزفــت . وطــود نسفت . فحول السلطان الى قربها له خيمة صــغيرة . وانهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصــف الجفــاتي . فصــدف اتيهــا الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر مــن المنجنيق بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبــط رجالهم برجاله . وقابل الابراج بــالابراج . وحــاول بــالردى علاج العلاج . ووالاها حجارات وصــخورا . حتــى جعلت ســور صــور

سورا . وجد في امرها . واجاد في حصرها . ووصل اليه في تلك الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي . فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والسمر والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام المغصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب ناجح ، لصم الصفاح مصافح ، وكل جاندار جان در الردى للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار ، وكل منجنيقي من جناته تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال بالهدى لاصماء أهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الافق فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدام قرنه دام ، وكل ضرغام صريعه في رغام ، وكل قمقام ضارب بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل ذمر مشيح ، لذمار الكفر مبيح ، ولروح الجد مريح ، ولذماء المزاح مزيح ، وكل فاتك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم العداة سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد ساع ، وللاسلام راع ، وللاشراك ناع ، وكل فارس للفوارس فارس ، وللذوابل في النحور غارس ، وفي اليوم العابس غير ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر الناس بشجاعته ناج، وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج ، وكل عتال عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين . فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا . وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الاقواس الى أوكار الاحداق أفراخا . واستصرخوا الاقدار لاقدارهم فحبتهم حين أحبتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق . وأولوا الشقاء لاولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا ومافيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والان الشديد . وأعان

السديد . وافلح ففلح الحديد بـالحديد . أوجـد الجـديد ومـد المديد وصور مرتجة أبوابها. مرتجة أربابها. مغتصة جـوانبها . ومـرتصة عصائبها . مشحونة أبراجها مسجونة أعلاجها محصورة كلابهـا . محسورة ذئابها محشورة ثعالبها محشودة كتـائبها. والمركيس بهـا متجهم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسـخط لبلده . وارتبط بجلده واختلط بـكمده . وغلت مـراجل غلوائه وعدت غوائل عدوانه . وطـاش وجـاش وأوخش الأوبـاش والأوخـاش(٢) . وتوشح بالشر وتوحش . وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره . وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجله في مكر مكره . وكر في وكره وعشا عشه . وثبت على لجاجه . ونبت في اجاجه . وتعسر وتسعر . وتربص وتصبر . والسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . مـاض عزمه . قاض حزمه بار حده . ساطع سنى ايناسـه . قـد اتسـقت اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابه . فـازدحم على بـابه وحول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجـار جـار . وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل عاصف قاصف وكل آكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب . وكل هاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب مجرد وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشـكور . وكل ليث مـلاث . وكل غيث غياث .وكل سفاك لدم الكفر سفاح . وكل جـراد اسـيف الفتك جراح وكل مكتتم في درعه . مكتمن في نقعه .ملتم بزغفه . مثلم بحرفه .مقنع بلامه . ملفع بقتامه . سابح في بحر الموت بسـابحة . سامع في الصباح صوت صائحه . فجمع اليه أمـراءه . واسـتحضر عظماء ملكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه مـن الارض مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطـريقه الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانبيه . وقد قطعو بخندق في عرضه . وعمقـوا ونزلوا في أرضـه . وكان مـن احـكام الحزم . واتمام العـزم . تـكميل الآلات وتتميمهـا ، وتحصـيل المنجنيقات وتقديمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها . وتقريب الجفاتي وتصفيفها ، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها ، وتنحية أثقال العسـكر وتخفيفهـا ، وتنخية نخـب الرجـال

وتصريفها ، وتسنية الاسباب ، وتهيئة الاخشاب ، واستحضار كل مايراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الانصار ، فاذا حضرت هذه الاشياء والاشياع ، وتيسرت وتوفرت الاصول والاتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، واذا حالت الاحوال وضاعت الاوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وازاله الخلل ، وشغل الصناع بالعمل . ونقل الأمل الى طريق الاجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض . وحمل مابتلك النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، واثقال ، ونظمت الستائر من القضيب ، وصفت من سور صور بالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لقلاع ، ومدبر بايجاف.ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروخ ، واطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد الف تيسر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يألف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله.والحصول على اكساب سهله ، وفتح مايقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلما توقف هذا الفتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شده شدة ، وفي جده جدة ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولامصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكا ن السلطان قد نفذ من صور ، واحضر اليها من عكا مــاكان بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على العدى جوان وللردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهزها للقتال واتصلت بها مــراكب لنا مــن بيروت وجبيل ، فــاستشعر المركيس واشياعه منها الويل ، وعمروا لهــم مــــراكب ، ورفعــوا بهــــا مناكب ، وسفننا بــالساحل عندنا مــربوطة ، وبحفــظنا مضــبوطة محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريها ، وتجري سواريها وتسري جــواريها ، وتــــطير للقنص بـــزاتها ، وتغير للفـــرس غزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتــلاطم الأمــواج بأمواجها ، وتزاحم الأثبــاج بــأثباجها ، وتــرفع شرع الهـــداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواه بــاقلاعها ، وتنقض على شــياطين الكفر شهبها ، وترفض بشآبيب الذعر سحبها ، فـكأنها الاســاود والسود ، وركبتهـــا الاســـــود ، مـــــن كل افعـــوان يحمله افعوان ، وشجاع امتــطته شــجعان ، وغراب بشــتات العـــدى ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالهــا مــن اغربــة دارت بعقبان . وأجنحــة طــارت بـــظلمان .ورواس ســـوار ، وغواز بغوار ، وقد ملئت بــرماة الحــدق وحمــاة الحلق ، وزراقــي النار وطراقي الثار ، والخاطفين بــالخطاطيف . والقــاذفين بــالمقانيف والكالمين بالكلاليب . والسالبين بالأساليب والحــاربين بــالمحاريب والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الاعلام فانشقت مرائر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية . وتقلصــت جناة الجنوية ، وكرثت ادواء الداوية.وكثرت اسواء الاســبتارية . وزادت آلام الألمانية.وعادت أسقام الافرنسيسية . وصارت مراكبهم في المينا لاتبين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن فلو خـــرجت كانت جبـــالا تســـفن . وأنس اصـــــحابنا بعلو الأمر ، وخلوا البحر.وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف.ودام

تطوا فهم.وا ستقام ايجا فهم . واغتروا بالسلامة.وسروا بـالاستقامة.
وباتت لنا شوان خمس . لها بزوال الوحشة انس.وربـطت بقـرب
مينا صور راصدة ، ولأخذ مايخرج من شوانيها قاصدة ، والدياجي
مدلهمة والدواهي ملتمـة.وعيون الزهـــر راقـــدة.وعيون الكفـــر
ساهدة ، وللمكايد مصـايد.وللعـوادي عوائد.وللغـــوائل طـــوائل.
وللمسائل دلائل ، وللمقادير مقـادر.ولاولئك المراد مـراد ، فحفـظ
اصحابنا الى السحر الحرس ، وسـهروا الى أن شـارفوا الغلس
وكل منهم لما استأنس نعس.وغاص في النوم وماتنفس.فما انتبهوا
الا وسفن الفرنج بهم محدقة ونيرانهم محرقة . فـولجوا في البحـــر
والتجوا . وتطافروا (٤)الى الماء لينجوا وعدت العداة وأخذت تلك
الشواني الشناة واسروا منها عدة.ولقـي البـاقون شـدة.فـاغتم
السلطان بسبب هذه النكبة.وفرح الكفـار بتلك الضربـة.وكانت تلك
اولى حادثة كرثت.وكارثة حدثت.ونائبة رابت.ورائبة نابت.فضـاقت
القلوب.وضافت الكروب.وحصلت تجربة الغارين . واتصلت حـركة
القارين . واستيقظ الناعس.واستوحش الآنس . وهب الراقـد.ودب
الراكد ، وذاب الجامد . وشب الخامد.وهاج الزائر.ومـاج الزاخـر.
وتحرك الساكن.وتورك الراكن.وعقل من غفل.وذهن من ذهل.وتيقـظ
من غفا ، وتحفظ من هفا.وتقبض من انبسط.وتقيد من نشط.وهـم
من عف.وألم من كف.ورجفت الآفـاق بـالمرجفين.وطـالت ألســنة
المعنفين.فمنهم من يؤنب ويذنب.ومنهم من يقـول ويطنب . والعـاقل
ينجنب . ويقيم العذر لمن يذنب.ويقول هذه مـن الله مـوعظة.وآية لنا
موقظة.

..

واشار الناس بانفاذ الشواني البواقي، وقطعوا بان هذه القـطع
لاتكفي لملاقاة في يلاقي ، فجهـزوها نهـــارا وصـــيروا سرهــــا
جهـــــــــــــــــــــــارا .وامــــــــــــــــــــــروا
بتسييرها الى بيروت . ورجوا ان تسبق وتفوت . وركب العسكر في
الساحل يباريها . وهي بالقرب تجـارية في البحــر وهـــو في البـــر
يجاريها . فابصر ملاحوها شــواني الفـرنج لمبـارزتها مبـــرزة .
وللاجهاز وراءها مجهزة .وكانوا رجالا من بحـرية مصر مجمعـه .

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظارهم مروعه . فتواقعوا الى الماء . وخافوا على دمائهم في الدأماء (٥) . وخرجوا الى البر على وجوههم . وخافوا مكرهم في مكروههم . وفروا وفاروا . وطاروا وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدهم دعاؤهم الى التجمع الا تشتيتا . فظهر بهذه النوبة الواقعة . والنبوة الرائعة . ان ذواب مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتب فيه على ما يراد رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة . ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفة . فلا جرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري والتجرية ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحة الدفاع . وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات . وهيهات ان يدرك هيهات . فنجا النجباء . وآب بهم الاباء . فبقيت المراكب الباقية . وقد اخلاها حماتها الواقيه . فرفعناها الى البر . ورأينا الصحة منها في الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحر . وهذا والمنجنيقات ترميهم . والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميهم . والقتال قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار تقلقل . والاسوار تحلحل . والاطوار تضعضع ، والابراج القيام تسجد وتركع . والاصلاد تقدح . والاجلاد تقرح . والالواح تصدع . والارواح بين أكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح القوارع موسومة . والحنايا واترة موترة . والمنايا مأثورة مؤثرة . وظعائن الضغائن تحدي بصليل البواتر . وصهيل الضوامر . وحقوق الحقود تقتضي بألسنة الاسنة.وعنت الاعنة من الغريم الكافر . والاوداج شاخبة كالعيون البواكي . والابشار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكي . وهناك العقل معزول بالتهور . والرأي مشغول عن التدبر . والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه والجرخي يبتدىء ببسم الله . والمنجنيقي يختم بلا اله الا الله . والزراق بالنار يطيب القاروره . ويحرق الساتورة . والسباق الى المضمار يساور السور ويباشر الباشورة .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة . ظنوا فينا الفتور لاجل تلك الفترة . وقالوا مراكبهم انحل تركيبها . وكتائبهم اختل ترتيبها . وستجرى بها عنا الندامة التي يحدثها تجريبها . وهم الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدنا عنهم . ولا وجه لتباعدنا منهم . فلوخرجنا صدمناهم . واقدمنا عليهم وهزمناهم . وخرجوا يوما قبل العصر . في عدة كالليل خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلاموا وانضموا والتظموا وتقدموا . واقدموا الطوارق حاملين . وللجمالات مطرقين . وعلى الفرق مجتمعين.وللجماعات مفرقين . وبالرهق جادين . وبالجد مرهقين . والعقود حالين . ومن الغمود سالين . وللمناصل منتصبين . وللطوائل مقتضين . وللسيوف مجردين . وللسيول مجرين ، وبالزغف ملتئمين . وفي الحتف مقتحمين . وبالقنطاريات طائرين . وبالزيارات زائرين . من كل مغوار وار . ومحضار ضار . وفجار جار . وجبار بار . وعدو عدود . وكند كنود . وداوي ذي دوي . وباروني غوي . ومن كل مصمم اذا وتر . مصمم اذا اوتر . مصمم اذا نعر . مصر اذا ذعر . هائج اذا استعر . مائج اذا نخر . متنمر اذا زأر . متذمر اذا زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . وبذوا من متارس المنجنيقات . وجذوا من مغارس الجنويات . وبنوا امرهم على ان الناس ناسون غارون . وان اهل البأس في خيمهم هاجعون قارون . فتلقاهم منا كل ضارب للهام . ضار بالحمام . وجار الى الاقدام . ملب للصوت . محب للموت . مشتهر باغناء . مشتهر للقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضي . متقاض بالقواضب القواضي. وكل ابيض بالبيض ضراب وللبيض رضاض . واغلب المغلب قضقاض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقد مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطرب الشهادة . معتز بأرب

السعادة . متمن للمذون . متجن على الحذون . مضرم نار الحديد في ماء الوريد . مغرم في تفريق العدى بجمع العديد . مفرغ ماء الظبـاء على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثـم باللام . وتلفع بالالثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجـوشن بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب .وجال بالهضب .وطال بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحر اللجي . فلم يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتـار . مـن كنين الاوتـار . وهفيف السـهام . لذفيف الهـام . وصـليل بنات الغمود . من غليل ابناء الحقـود . وهمهمـة الابـطال وغمغمـة الاقيال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقـرع الظبـا بالظبا . ووقع الشبا على الشـبا . وضـجة الحـديد مـن الحديد . وعجة الشديد . وجعجعة رحـى الحـرب . وقعقعـة اداة الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة النحول . وهـديل حمـام الحمـام . وهـدير قـروم الايدام . ووعوعة ذئاب الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدعة صاع المصـاع . وجلجلة سباع القراع . وصـلصلة الزبـر . وولولة الزمـر . وحيعلة دعاة النصر . وهيضـلة رعاة الكفـر . ورفـرفة المريشـات الراشقة . وهسـهسة الطعنات الفـاهقة . وهـزهزة اعطـاف المران . وزهزهة اصوات الشجعان . ونعير الغـالبين . وصـخب السالبين . ولجـب الجـالبين . وزحير الطـالبين . ونهيت (٦) الاسـود . وقصـيف الرعود . وهـدة الأركان . ودهـدهة الرعان . وقهقهة الاقران . وقرقرة كوم البـكاء . وصرصرة بـزاة الغزاة . وكشيش صـلاص الضـلال . ونشـيش مـراجل الرجـال . وهـزيز ريح الياس . وهـزيم رعد المراس . وارنان المعـاجس . وارزام القناعس . وهيعـة الصـارخ . وصـيحة النافخ . وزعقة المسـتفزع . ونعقـة المسـتنزع . وشـعشعة الخرصان . وزهزمة النيران . وهينمة الاجل . وجمجمـة الزجـل وتـكبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وصرير ابـواب الجنان للشـهداء . وصريف انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعـت الاصـوات . واشـتبهت

الاحياء والاموات . ووقــع اصــحابنا فيهــم وقــوع النار في الحطب . واروهــم في مــرايا البيض وجــوه العــطب. وولوا مدبرين . بعد مـاتولوا مـدبرين وجذوبنا تشــلهم . وجــدوبنا تقلهــم . ولتــوتنا تــرضهم . وليوثنا تفضــهم . وعادوا الى البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهــم نوادب . وايدي الردى بهم لواعب ومنهم لواغب . ودخــل الليل . وعمهــم الويل . واسرنا منهم مقدمين . ثبتوا على الموت مقدمين ، وممن اسر فخسر قومص عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشــف عن حــاله بالنهار . وكان الملك الظــاهر غازي . لم يحضر فيمــا تقــدم مــن المغازي . فرأى ان يحقــق اســمه بقتله . فضرب عنقــه بحــد نصله . وكان للمركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فظنوا انه هــو للشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثــم عرف ان المركيس في نفسه لم ينكأ ولم ينكب . ولما عطب اشــياعه لم يعــطب . وندم على ماقدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر مادبروه من الرأي ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتــج العــدو ولج . ضــجر العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الافــلات . ولا يكرهــون الفوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومــزاولة مــالايزول تصعب . ومحاولة الممتنع محــال . ومــطال غريم هــذا الفتــح مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لايكترث بالكارث . ولا يدخل سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلى ، ولا يفكر فيمــن ولي أو ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا مــن النصب ، وكل مــا جــرى الى اليوم منا ومــن القــوم لم يرعه ولم يردعه ، وقد قيل اذا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف الســبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استسعافه . وبم نتوسل ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله يحتوي الاقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومر به ما امروه ، وهمه ما به هموا .والله ما به الدواء فراسلهم بالهيبات وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا الارب ما يخطر بخاطر الاريب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين اذا تركناه ، وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة اذا فاتت لا تدرك ، والبغية اذا وانت فحقها تملك ، ونواظر الناس الى ما سيكون منا في صور صور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان تردوا عن المنهل العدى تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته . وتوالت منها في الكفر شقاته . والنصر قد آن أن تطيب نشقاته . والمركيس ابعده الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لاالتطاول الى الرواح . وفي التثبيت على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . واذاقه في اهل باسه . وواصل البذل وهجر العذل . وملأ الايدي بالغنى . وروح للرجاء نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعادة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . ودنا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانت . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمددي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام النكاية حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولايشتطون ، فاول ماقالوا امهلونا حتى نعلم مايكون من صور . ونكتشف هذه الامور ، فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بنفاذه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين ، فندب السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي وهو من اكابر عظمائه ، واكارم امرائه ، وامره باستنزالهم واستزلالهم ، والامان لنسائهم ورجالهم ، فمضى ورغبهم في الامن والسلامة ، وخوفهم عقبى الحسرة والندامة ، وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس ، واذا ابيتم التسليم عدمتم سلامتكم ، واقمتم قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكرهكم واباكم . وحل بالقتل حباكم . وفل شباكم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولمقاتلة اهلها مستديم . والى ماعند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة ونخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرح بالقلوب برحها من عمل صيدا: قلعة ابي الحسن. وشقيف أرنون . ومن عمل طبرية والغور: صفد. وكوكب. وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين ٠ من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . واقام السلطان على صـور محـاصرا . والدين الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح . ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تسـتكين . وشـدتها تلين وابيتهـا تدين وسريرها يبين . وكان قد دخل كانون . وظهر من سر الشـتاء المكنون . ووقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي النشاط . وعادت العـزائم المتـوهجة تبـرد . والصرائم المتـأججة تخمد . والنخوات المتحـركة تجمـد . والحميات المتيقـظة تـرقد . والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخذم ينبو . والطبـاع تتـكره . والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختـل . ومعـاقدة النزال تنحـل . فلحاهم السلطان على مالاح .وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفـر الا مـع الصـبر . وان الظلم تتجلي عند تجلي الفجر . وكان في الأمـراء جمـاعة منتجـون منتخون . أبت أمانتهم في حمية الدين أن تخون مقيمون على الكريهة ولاكراهة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقـام ويؤثـرون بانفسهم في طاعة الله وموافقة السـلطان . وعصـيان الشـيطان في مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا راي المشـير به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا . وقالوا كيف نترك ماحويناه . ونعوج ماسويناه . وننشر كفـرا طـويناه ونهجـر خيرا نويناه . ونداوي توحيدا شفيناه . ونشـفي اشراكا ادويناه . ومااللراحة اليوم طالب . الا وهو غدا بالتعب مـطلوب . ومـن امسى وهو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصـبح وهـو مغلوب . وهـذه صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها شفهت . واذا تخلينا عنهـا وخليناها ترفهت واستفرهت . واذا حلمنا عنها سفهت . وهبت مـن غشية خشيتها وتنبهت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بـالمثابرة مثاب . فمنهم الامير طمان بـن غازي مـااطمأن يومـا في الغــزو ولاسكن . وعز الدين جرديك النوري كم جـرد على اعناق المشركين سيفه الذي به تمكن . وهما هما مان مقدمان مقدامان . من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولايريمان . وجماعة اخـر بهما يتشبهون . وبالكريهة لايتكرهون . واما الباقون فانهم احبـوا البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الاتقاء . وابوا الا الاباء . وقالوا قد

لغبنا . ومابلغنا . وجرحنا ، ومارجحنا . فلورحناا سترحنا . ثم عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر . معتف العقل . مستعف من الثقل عامل بمحض الحزم . عالم بوقت العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضروب الكروب . وثلم مابرى من غروب الحروب . وبقدر ماهدم من مبانى البلد هدم اكثر منه مباني الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم بأسا واقداما . ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع النواحي . فان تعذر لاح العذر للاحي . واصبح العسكر وقد استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر والنصر استمد . وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحتف . وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وقرعت . وصارعت وصرعت . فلم يرا شد من ذلك اليوم . في وقم القوم . واجترأ اصحابنا . وراض جماحهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في البحر خلف منهزميهم . واقدم من احجم منا لاحجام مقدميهم . فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها . واسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها . وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت هل من مزيد . وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد . وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت قوادم الانهاض . وانفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض . وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولجاج . فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم اياما . لنلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحوا على سأم. والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلو اقيلت عثرتنا لانجبرت كسرتنا . وفينا الجريح والطليح . وحتى متى لانستريح . وقد توالت الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات كثيرة . والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل . ومازالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل . ويقولون لاتتعب على تحصيل المستحيل . ولاتذهب الايام في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله مودعه . ونشتغل بفتح الايسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما لعله

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفـق امـوالا كثيرة على تلك الالة والعدة . ومالمكن نقلها . ولامكن من نقلها ثقلها . ولو ابقـاها لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فـرأى نقضـها . وفـك بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشتت بعد التجمع شـملها . وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب مـاتكاد تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتـأخر السلطان وتبـاعد عن قـرب صـور الى المنزلة الاولى ويد ايده على جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف .وتزود للانفكاء والانكفاف . واخذ الجمع في الافتراق . وانتشر في الافاق . وذهـب من ذهب على مـواعدة في المعـاوده . ومسـارعة في الرجـوع الى المساعدة . وودع الملك المظفر تقـي الدين مـن هناك . واوعد بـوعد عوده الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى وكره . وماعرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا .وان هذا الهدو الذي مالوا اليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا . وبقي السـلطان يتلهف على ماتركه . ويتأسف على الفتـح الذي مـاادركه . والذين اشاروا بهذا الرأي يسهلون الصعب . ويهونون الخطب .ويقـولون نمضي ونعود . وتسـاعدنا السـعود . وتنجـدنا الجنود . وتتجـدد الجدود . ويورق العود . وتصدق الوعود . واذا اقبل الربيع . اقبـل الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسـعاد وسـاعد الامـكان . ومـازالوا بنا حتـى رحلنا . وعلى الرأي الرائب منهـم احلنا . ولو اقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولامرد لمراده . وقضى ولامحيد لما قضاه في عباده . وان تبقـى صـور في تلك الحالة للكفر وكرا . وللمـكر مـكرا وللشرك شركا . ولنار جهنم دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني وعم البرد في القاصي والداني . وتـوحمت السـماء مـن حـوامل السحائب . وتوحلت الارض مـن سـوائل المذانب . والذكب الرياح عواصف عواسـف . قـواصم قـواصف . والسـحب الدلاح (٧) هوامل هوامر رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بتات . وما مع مقامه وثباته مقـام وثبـات . وسرنا عبابيد في لبابيد . وبين جليد وجلاميد . على الناقـورة وطـريقها . والاثقال قد ازدحمت في مضيقها . والاحمـال تتـواقع . والاجمـال تتقاطع . والسيل تنسد . والسابلة ترتد . وسـالكت الخيل الجبـل . وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصـل . وتـأخر الثقـل . الى ان تخلص . وتقدم مـن سـبق وتملص . ووصـلنا الى عكا في ثـلاث مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الأمر وتـدمير الكفر . واثقا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جـاولي . وكان مـن جملة الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السـلطان لعلمـه بديانته وأمانته . وبأسه وبسالته . ويقظته ونهضته وحزامته . وكله بحصن كوكب الذي على الغـور . وكانت فيهـا جمـرة الاسـبتارية القريبة الجور البعيدة الغور . وقـد تمنعـوا بشـدتهم . واشـتدوا بمنعتهم . وهو حصن لايرام . وركن لايضـام . ومعقـل لايسـامى ولايسام . وذروة لاتفرع . ومروة لاتقرع . وعقيلة لاتفترع . وبـكر لاتخطب . وقلعة لاتطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت الحصون في سلك الحصول . وظفـر الاسـلام بـالفتح المأمـون والمأمول . وافتتحت طبـرية وأعمـالها . وتملكت أغوار تلك البـلاد وجبالها . تمنعت قلعتا صفد بالداوية . وكوكب بالاسبتارية . وتعذر فتحهما . وتعسر منحهما . وقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهمـا . فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الابية والنخوة والحمية . ومقدمهم مسعود الصـلتي أصـلتت سـعادته منه سـيفا

إصليتا . لايلفت عن لقاء العدو ليتا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصرة . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكونهم . واغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حزب . واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ماأمر وحلا . وكان ذا دين متين . ومكان من النسك مكين . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . باردة مقشعرة . أنوارها بائدة . وأنواؤها جائدة . وهزيم جنحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مثيب . لايفرق فيها السماء من الارض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسيوف اسرار . أضمرتها الغمود * والعدم قد دنا منه الوجود * فما أحس محمود المحمود * وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدروا على الدفاع . فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وبقي الامير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا الى القلعة ماوجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع فلما عرف السلطان ماأصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد الى الجنة مآبهم . فندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المغوار . والأسد الاسد . والأحمى الأحمد . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول اليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستديما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل للآمال فيها نجحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح النصر من مطلعه .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عوده من صور

استأذن الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأذن له وودعه . بعدما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع الملك العادل وأوجه إلى مصر . مستقبل الظفر والنصر . وأقام الملك الافضل بعكا مستقلا بالاراء . ومستهلا بالآلاء . مستبدا بتدبير أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين . ولاقامة شرائطها مدا ومين . وكل يطلب اننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من عندنا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت الثلوج . ورجت الدروج . ونجت الذؤوج . وارتجز عجاج الودق .(٨)وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح الاوطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد . وتجللت بابراد الجليد من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق . ودام تواصل البوارح والبوارق . ودخل السلطان الى المدينة . وسكن بها في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما للحجة المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستمداد المدد . وابرام معاقد الحل والعقد . واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء سنة السماح والفضل . واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافادة الكرام واكرام الوفود . واعادة ما بدأ به من افاضة الجود . واجازة الراجين . واجارة اللاجين . واسعاف العافين . وابعاد العادين . وادناء أهل العلم . واغناء ذوي العدم . وانجاح المقاصد . وانجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل آفاق من الروم وخراسان والعراق . عاكفين على بابه . قاطفين جني جنابه . واقفين لرفع حجابه . مستسعفين لنعمائه . مستعطفين لابائه . متعرضين لثوابه . متضرعين في خطابه . وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهداه الى سبيله وقد تعذر بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الاولى . وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولي . فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه . ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالك همذان واذربيجان واران . وهو عز الدين الطالبي الطالب للعز . الراغب في الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر ينقضي . الا ويصل منهم رسول . ويتصل به سول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا فرتبها . وفي أمورها فهذبها . وفي مضارها فأذهبها . وفي منافعها فقربها . وولى عز الدين جرديك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقوفا . واجنى المستحقين منها قطوفا . وأسدى معروفا . وأعطى ألوفا . وأرغم من الاعداء آنوفا . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفه . وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة المتفقهه . وللطلبة المتعففة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل . والنجح والامل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الاجل . واتخذ لطلب مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل مايحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولامنة الا قلدها . ولا أجـرا الا أجراه . ولاهدى الا أهــداه . ولا أمــرا الا أمــره . ولا دارا الا أدره . ولا فريضة الا أداها . ولا فضــيلة الا اتــاها . ولا فــرصة صواب الا انتهزها ولاحصة ثواب الا احرزها . ولا رمم فواضل الا انشرها ونشرها . ولا امم فضائل الا حشدها وحشرها . ومــاترك قارئا الا قراه . ولا راويا الا اشبعه وأرواه . ولاحــافظ حــديث الا حفظه من الحدثان ولامحســن صــنعة الا اصــطنعه بــالاحسان . ولاناظم مــدائح . الا نظــم له المنائح . ولامــوا فيا بقــريض إلا وفى قروضه . وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي بالتردد في الاعمال. وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال وتعليل السقم وتســقيم المعتــل . وتحليل العقــد وتعقيد المنحـــل. فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حــامد مــن دار الخلافة بالرســالة في العتــب على احــداث ثقلت . وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعايات في السلطان عثت . في الاحوال. وشعثت. وذلك في شــوال . ونحن على حصار صور ونزاع ونزال.

ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الاكبر . وخص وعم النجح الاظهــر . وقــطع دابــر المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين . أمرني السلطان بانشاء كتب البشائر الى الافاق . وتقديم البشرى بــه إلى العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح مــن الله عظيم . وملك عقيم . وسمو وسيم . فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافة . بما انزله الله لنا من الرحمة والرأفــة . الا مــن هــو عندنا اجــل وأجلى . وأعلم

واعلى . واجمع لفنون الفضائل . واعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه
بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولاينبه لهـذه المقـامة الا القـويم
النبيه . ولايرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فـان الشريف يتضـع
شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بـكرت . ومـوهبة
ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما
ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد . قد هاجر
للاسترفاد . وتوجه بعد وصوله . ونبـه بعـد خمـوله . فســأل في
البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ . وشفع له جماعة
من الاكابر حتى خص بأشرف البشـائر . فقلت هـذا لايحصـل له
وقع . ولايصل اليه نفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير .
وفي هذه النصرة الكبـرى كبير . فـان الرسـول مـن يندب للتفهيم
والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم للتعـظيم . ثـم سـار المندوب .
وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس
أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشـير الجندي .
فلم تجل به على كفؤ الجلالة من الهـدى الهـدي . وحقـروه . ومـا
وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به
من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب
المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بـكلام اخـذ عليه .
وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة ذكره . مـا
يعرض عن ذكره . فخيل ومـوه . وتنكر وتـكره . وظـن أن لكلامـه
أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانهيت الى العرض الاشرف مقـالاته .
وعلمت جهالاته . وتجني على السلطان بارساله . وطرق الى هـداه
ماأنكروه مـن مقـال المذكور وضـلاله . ووجـد الاعداء حينئذ الى
السعاية طريقا . وطلبوا لشـمل اسـتسعاده بـالخدمة تفـريقا .
واختلقوا اضاليل . ولفقوا ابـاطيل . وقـالوا هـذا يزعم انه يقلب
الدولة . ويغلب الصولة . وانه ينعـت بـالملك الناصر نعـت الامـام
الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق الديوان العـزيز
على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي وانفـاذه .
وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد . يكفـل لنا في كشـف سر الامـر
بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتـظم في سـلك

الاولياء الابرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة . وورد معه جواب البشارة . وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب . ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه . والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه . ونشر الاعتاب في طي العتاب . وروح الارضاء في شخص الاغضاب . وبرد الموهبة في برد المهابة يرد ظن الخطأ الى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الاخ ، فسار وهو يبذخ وقد أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام نيلا ، وألحف من ذور الاهبة العباسية نهارا وليلا ، فوصل السير بالسرى وقطع الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة وا شارة رادعة وشعار مهيب . وشرع مصيب . وهيبة روعة امامية ، وهيأة عصمة عصامية وفرند نبوي لاينبو ، وزند وري لايكبو ، ولسان في الصرامة جري ، وجنان بالشهامة حري.وبلاغة بابلاغ . ماليس بلاغ.وفئة وافية وجيفة بصياغة كل غريبة قول ، ورغيبة طول . وكافلة كافية وسني نور وقار يستعير منه سنير . وثبات خلق يتخلق به ثبير ، وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا . جاحدا للنعمة شاكيا . ذاكرا أنه عدم الحفاظ . ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فما حرك شمام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض . وخطب مقض . وغضب مغض . ولفظ فظ . وحض على غير حظ . ومعه الملامات المؤلمات . والظلامات المظلمات . فقلت له : اسكت واصمت ، وبمالك من وسم الوصم مت ، ولاتدخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا بعشك فادرج-وقلت للسلطان سمعا وطاعة لأمر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان ، فقال : نعم ماقلت ، وقد طلت بارسال أخيك وطلت وماأسعدني اذا شرفت بالعتاب . واسعفت بالخطاب ، والمملوك يدفعه التأنيب . ويزعه التهذيب . على اننا لم نأت الا بكل ماوقى الهدى . وأضعف العدى . وكف الكفر . وأدنى الدين . ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجدين . أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت . أما استأذنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت ، أما استخلصت اليمن

وللدعي بها داع ، وللهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما أرحت من رق الشرك الساحل . أما ازحت عن حق الملك الباطل ، أما فتحت البيت المقدس والحقتة بالبيت الحرام ، والحقته رداء الاكرام.واعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبدت الا بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الغريزة . فأهلا وسهلا بالرسول . وبالسول وحبا ومرحبا بالاقبال والقبول . ومااتى الا بالحب والحبور . ولامرار الامور . ولاظهار سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصادق يرام اذا وعد ، ومااسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا بالمبرة . وسمعت منه كل ماهدى سمعي . وابدى لمعي . وجمع شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي واصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله ، وتقدم لجلالة قدومه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبة بأنسه ، ولم يزل حتى اراه مواضع الحصار ، ومضار الكفار ، ومواطىء اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة اهل الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبي الحب ، وسفر وجهه لوجاهة السفير . وأحل محل التوقير والتوفير ، وتبلج له صبح التبجيل . وتأمل منه نجح التأميل . ثم حضر عنده . وقد اخلي مجلسه لي وله وحده ؛ وأدى الأمانة في مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكرة وقد جمعت المعرفة والذكرة ، فقراتها عليه بفصولها وفصوصها.والزمته حكمي عمومها وخصوصها • ووقفته على ظواهرها ونصوصها • وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلطة وخيلت سقطه ، وجلبت سخطه ، وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ • والاسجاع الغلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظا وارفق وأوفى منها فضلا وارفق • ومعاذ الله ان يحبط عملي ، ويهبط أملي. وامتعض وارتمض.ثم اعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف • وانتجع بارق الاستسعاف • وقال اما ماتمحله الاعداء وعدا به المتمحلون • وتدفق به المتقولون وتسوق

المبطلون • فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة • وماهزرت منذ اعتززت اعطاف العز الا لما يعزني من العاطفة ، وان شرفي بالنعمة السالفة ، يوجب أذفي من هذه الآذفة ، وأما النعت الذي اذكر ونبه على موضع الخطاء فيه وذكر • فهذا من عهد الامام المستضيء رضوان الله عليه وجرى لتحققه مني على الالسنة . ومتي عد سيئة ماعد من الحسنة ، والآن كل مايشرفني به امير المؤمنين من السمة فانه اسمي الذي هو اسمى واشرف . واطرأ وأطرف وأرفع وأعرف . ومازاده ذلك العتب الاخلوص ولاء ، وخصوص اعتزاز واعتزاء . ثم قال كل ماا عتمده من نصرة الدين وقهر اعداء امير المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وماتعبدت به سواه . فاني افترض الطاعة الامامية للدين لا للدنيا، وماأتقوى فيها الا بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن العوائد وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقاصد ، وبعد الأباعد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هجر الساعي ، واجرى اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر ذعر الخاشي . وجرب غش الغاشي . وخرب عش العشي . وذوت همـوم ذوي الهمم ، وأوليت كرامة اولي الكرم ، ومازال السلطان مدة مقام أخي عنده ، يوري في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تكدر ذات البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة من الاكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له:قد نسب حقك الى البطلان . ورميت بالبهتان ولمحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت وماعفت والفت وما انفت . ورغت وما غرت . وصبرت وماسبرت • وأغضيت لما اغضبت • وأعتبت لما عوتبت • وراقبت وماروقبت

فقال تذللي للديوان العزيز تعزز به أدين . وتوسلي إلى مرضاته توصل بالله فيه استعين . فتواضعي ترفع ، وتخشعي تورع ، وحبل حبي متين ، ومكان قربي مكين . ومما قلت له واوضحت له سبله ، انا كنا بطاعة امير المؤمنين نطول ونصول

ونزاول بها الملوك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت . ووسيلتنا التي نجحت وكنابها مسعودين . وعليها محسودين . وقد شملت بها بركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشارع يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفتك ، ولاتتثبت لمن لايثبتك ، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، ولذوره اجتلي واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر بأن يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس ، ثم ودعه واودعه من شفاهه كل مافي النفس وبالغ في ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى الديوان كتبا معه وبعده ضمنتها كل ماحلا وجلا جنة وجده ، وكل مايبطل سوق المتدفقين ويعطل نفاق المتسوقين . ويهجن خلق المختلفين . ويزيل تلفيق الساعين . ويزيح سعاية الملفقين . ويتعرف الى العوارف الغزر بالشكر ، ويستعطف العواطف الغر بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه البشر ماعليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا ومضى ماأمضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالموقف في عرفة لابداعه رسما ماعرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطا،وذلك ان امير الحاج طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت نفره ، ولما نمي الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لاشك ان طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين .

-٥٩٠٧-

نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن انشأتها الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي ضاعف الله علاءه ، وظاهر آلاءه وضافر نعماءه ، وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حساده،واعز أولياءه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه بالايامن مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفرة ، ودالة على البشرى بالفتح الاكبر ، والنجح الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الأبهر . والفضل الأكثر . والافضال الاوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر الأسفر ، والفخر الأظهر والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الابلج الابلخ (٩) ، والعز الأسمق الأسمى . والنور الأنم الأنمى . والظفر الأجل الأجلى . والوطر الأحل الأحلى ، والشرف الأسنم الأسنى . والعزم الاغنم الاغنى ، والسعد الأجد الأجدى . والصيت الأبدي الأبدى ، وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهاب الفتوح . وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح . وتروح وتغدو غوادي النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشراه وفي لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح ، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية ولكل نادبة للأسى على قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سجنه واستحكم وهنه ، وقوى نكره وضعف ركنه ، وزاد حزنه وزال حسنة ، وأجدبت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوفة وفارقه امنه ، واشتغل خاطر الاسلام لسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد ، الذي تعالي عن الولد ، وان المسيح ابنه وأربع فيه التثليت فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه ودرج الملوك الاقدمون على تمني استنقاذه فأبى الشيطان غير استيلائه باسفار صبح امرنا واشراق مطالع نفانه ، ونخر الله هذه الفضيلة

لنا ولهـذا العصر . وأنزل على نصـلنا نص النصر . وأطلع الليل عزمنا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل اسـباب الاسـلام وقـطع دابـر الكفر ، وذلك انا استفتحنا سنة ثـلاث وثمـانين بقمـع اهـل التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخـرجنا من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفـر والبأس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصـد الفـرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بـردهم عن المراد وصدهم ، وأقمنا بـظاهر بصرى مخيمين على سـمت الكرك ، وقدمنا الطـلائع الى المناهـل ونظمنا سـلك امـدادهم في ذلك المسلك ، حتى وصل الحـاج سـالما . وذل الكفـر عن قصـده راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا الى الكرك في الامراء والمفردين الخواص . وشفعنا للجهاد في سـبيل الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا اسـتدعينا العسـاكر والجمـوع للجهاد من جميع الجهات . وترقبنا توا فيهم للميقات ، وأمـرنا ولدنا الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ، وسرنا الى الكرك والشـوبك فـاخربنا عمـاراتها ، وأحـرقنا غلاتهـا ، وقـطعنا ثمـراتها ، وازعجنا سـاكنيها ، وأخفنا آمينهـا ، وأجلينا عنهـا فـلا حياء . وأقمنا الذوائح عليهـا في نواحيها ، ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية ، فقويت به قلوب الأمة المحمدية ، واجتمع بالمخيم الافضلي برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفـراتية ، والجـزرية والموصـلية والديار بـكرية ، فـانتهز ولدنا هناك فـرصة الامكان ، وانهض الى الكفر سرية سرية من اهل الايمان ، فساروا سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وسـبوا وسـلبوا فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهـم الطـريق ، واخـذت دون خروجهم الى السعة المضـيق ، فثبتـوا ثبـوت الجبـال للرياح العـواصف ، وشرعوا الى عرانين الكفـر اسـنة الرمـاح القواصف ، وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بـن زين الدين ومعـه مملوكنا قايماز النجمـي صـارم الدين ، فلقيا بصـدريهما صـدور العوامل ، وحملا في عسـكرنا على الفـارس والراجـل ، وحصـل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الاولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ، ولما قضينا الوطر من تلك البلاد ، ووفينا باحراق اقوات اهل النار بالنار حق الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت امارات النصر . عدنا الى الشام . وقد تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بحر الفضاء بأمواج الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام القتام وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيمنا بعشترا (١٠) شهرا . وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك الاشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب الصلبوت . وقائد اهل الجبروت . فتهافت الى شعلة ناره فراشهم . وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامة رعبهم قائمة . وسوابح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية وسراياهم طالعه . ومقدمات رعيهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض . ويتلو مشاهده لتنزل الملائكة (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الأعداء . عالية كهمم الاولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء . وسار في كتائبها نازل القضاء . وسحب نيل الأرض بمثار نقعها . على السماء . وقطعنا الأردن . وتأييد الله مواصل . وقدره باقدارنا على الأعداء كافل . فملنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف . ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف . وتسلمنا المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يؤم الخميس . وأسد

الوغى قد اتخذت من وشيجها العـريس . هـذا والملك العـادل عنا غائب . ومعه ايضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصـاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبـرية . ان نلاقـي الفـرنج على صـفورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغـر بـالاقحوانة (١١) . وتمسـكنا مـن الله بـالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبـل قصـد طبـرية الى الفـرنج في مجمعهم . واشرفنا عليهم في مـوضعهم . فمـا بـرحوا مـن مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتـدنا في صـحراء لوبية مـوضعا للمصـاف واسـعا . وفضـاء لمأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلاب الابطال ميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اسـباب الظهـور ميسرة • وجـئنا في خـواصنا والجاندارية . ونزلنا في العدة المجردة على طبرية . واخذ النقـابون ساعة النزول في النقب . فصرع قائم سورها للجنب . ودخل الناس اليها ليلا للنهـب وكانت ليلة مـدلهمة معتمـه . وارجـاء المدينة مظلمة . فاشعلوا واوقدوا . ودخلوا الدور وتفقـدوا مـالم يفقـدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار . فـاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصـن اهلهـا بقلعتهـا . وتمنعـوا بمنعها . فأصبحنا على حصرهـا . وسـلكنا جـدد الجـد في امرها . فجاءت رسل الأمراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجـت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت . وادركهـم الندم كيف تـركت ومـا ادركت . وأنها قد عبت جنودهـا . وشـبت وقـودها . ولبـت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران سـوابغها السابرية . وفاضت ببحار سوابحها الاعوجية . وان جمـرهم قـد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهـم قـد اتـوا في عددهـم وعديدهم . وحدهم وحـديدهم . وخيلهـم ورجلهـم . وطلهـم ووابلهم . وفارسهم وراجلهـم .وأحـزاب ضـلالهم وابـطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخـواتهم نار الحمية . وسـاقوا الى معتـرك الردى وملتقـى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . واللجب

الساري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي . ولمعت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت قوانس قوامصه . وارتعدت فرائص فرافصه . وأمكنت فرائس فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بوساوسه . وماجت بحار سلاهبه . واشتعلت نيران قواضبه . وشدت الاجادل دون صوار صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الالفات بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنما الفرصة في اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واشرعت الاعنة . واشرعت الأسنة . ونقع النقع .(١٢) أوام الجو . واجاب الصدى دوي الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح السوابق . واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم في عرمرم عارم . ومجر جارم . وعوامل جوازم . وصواهل صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسوابح قد أقلت بحورا . وصقور قد ركبت صقورا . واوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصفهم لا ينفض وجدارهم لا ينقض.وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران محصوص . حتى دخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات الفريقان على تعبيتهما . واجابة داعي الموت بتلبيتهما . واصبحنا يوم السبت واهل الاحد على حالهم ولم يريموا موضع قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣)تتواثب وتتثاوب . والسواعد بقرع الظبي سواع . والروا عف في زرع الطلى رواع . والمنايا تئن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجوامح النيران شواب . وضمائر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامرار أمراسنا والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره . والاوام يتوقد ولايتوقى احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة للارتواء • فأخذنا عدامهم ووقفنا امامهم • وحلأناهم عن

الورد . والجأناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل حطين . وصرنا بهم محيطين . وتحكمت فيهم قواضي القواضب . ونشبت من النشاب بهم نيوب النوائب . وكان جمعهم جمرا وقد وقد . فصب عليهم السيف نهرا فخمد . وفضوا بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجاج بالقتلى والاسراء . واسر الملك واخوه . والابرنس الكركي ومؤازروه . ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهنفري بن هنفري وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . ولم يفلت الا ابن بارزان والقومص (١٤) . وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتيال . فاما القومص فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهل الجبروت . وحيز صليب الصلبوت . وبار وباد اولياء الطاغوت . وهلك عبدة الناسوت واللاهوت . وملك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت . وقدمنا الابرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر . وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر . وألحقنا به الداوية والاسبتارية . وادرنا عليهم صبرا كؤوس المنية . وروينا ظماء الظبي من نجيعهم . وقربنا سيد الفلا من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعتها . وحللنا عقدتها وفرعنا ذروتها . وافترعنا عذرتها . ثم سرنا الى عكا ففتحناها بالامان . واعلنا بها شعار الايمان . واستقربنا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس الى الداروم غير صور فانها امتنعت بسورها . ولم يبق في كاس الكفر غير سورها . وانها وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتح اخواتها . وكثفت من عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب • فرجف

بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصمون . وانهم من بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنيقات هدت احجار السور بسورة احجارها . واذن ركوعها بسجود الابراج في اجبارها .

ووفت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القال لاقالة مادام بها من العترة . وكشف النقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبي الدار . وأيقنوا بالقتل والاسار . فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان . مبتهلين في طلب الامان . فأبينا كل الاباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا . فأمنوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق . وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت قبة الصخرة لفضلها . وباشرت الحياة بها مواضع سجودها . وصافحت ايدي الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه . ورئي نور الاسراء ومطلع اشراقه . ودنا المسجد الاقصى للراكع والساجد . وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد . وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجليت هدى الهدي من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح . وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان دهم القلوب لاجلها من تبار التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما من المهج والانفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان المجال . وهو للحرمين ثالث ولاتثليث في حرم توحيده . فتجدد جد الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدبيره . وقضينا حق تقديسه وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي صور سؤر الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شر ذمته . وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشابها . وان جمحت علينا

فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤذن بأصحابها . واذا تسلمناها تسلمنا بأذن الله كل بلد للفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقع بهم واق . ثم رأينا ان حصار صور يطول . وان مسألة بيكار (١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفوت . وله وقته الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد دخل الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء . وتواصلت الانداء . ولابد من استئناف جمع العساكر في ايام الربيع . واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع . ورحلنا عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . من يديم شن الغارات عليها . ويواظب على النهوض اليها . وفسحنا لاجنادنا في الاستراحة مدة شهرين الى النيروز . فان في تلك الايام تتوفر العزائم على المبارزة والبروز . وقد جرت المواعدة على المعاودة . والمعاقدة للمعاضدة . والمعاهدة للمساعدة . فليس في الفرنج من يقاتل الان على الخيل . والنهار عليهم في اظلام الليل . والعز متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حربنا مثير للحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة . والمعاقل المبينة . وهي طبرية . عكا . الزيب . معليا . اسكندرونة . تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صفورية . الفولة . جينين . زرعين . دبورية . عفربلا . بيسان . حيفا . صرفند . صيدا . قلعة ابي الحسن . جبل جليل . بيروت . جبيل . مجدل يابا . مجدل حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصافية . التل الاحمر . الاطرون . بيت جبريل . جبل الخليل . بيت لحم . لد . الرملة . قبيتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشقيف . ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع والابراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع . ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواضع . وقد جاس المسلمون خلالها . واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصدنا البلاد . وعرضنا للجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سيف الدين ان يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون)
(المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصـل
الى السواد في سواده وبياضه . وبحار جيشه وبراضة . وورد مـن
مورد النصر الى حياضه . فجـاش بجيوشـه . وجـاز العـريش
بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البـلاد في كل
من اعتمد عليه بامورها . ووصـل الى يافـا ففتحهـا عنوه . ونال
العسكر منها بالنهب والسباء حظوه . ثـم حضر مجـدل يابـا
وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك
الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح مـن البـلاد
مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجحه . الي ان نفتح مافي
جانبنا من البلاد ونتسلمه . وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده
ونغتنمه . وقد كنا انهضـنا الى كل بلد مـن الناصرة وصـفورية .
وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها
سلامته غنما . ورضي بالغرم رغما . وتسـلمنا نحـن تبنين وبيروت
بالامان . بعد ان قاتلنا اهلهما قتالا شديدا الجـأهم الى الاذعان .
فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بـات منا بليلة
السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص مـن الاسر . ورأى
خـلاصه فيمـا تعجله مـن الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بـالملك
العادل على عسقلان . وهان لنا كل ماا ستصعب منها ودان . وظهر
لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فوائدها لمارميناهـا بمصـائب .
واصمينا مقاتل الاسوار بسـهام قسـيها . وعاقبناهـا بحيالهـا
وعصيها . واقتدنا بخزائم الكرة انف الطاعة من عصيها . وصافحنا
ببيض الصفائح يد الرضا من أبيهـا . وبـاشرت سـهام المجـانيق
بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضـت احجـار الرمـاه الى
احجار البناء فهدتها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب . ولما ايقن
اهلها بـالعطب . لاذوا بـالضراعة والطلب . وخـرجوا مسـلمين
مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسـلم البلد واسـلم
وجدع انف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر
منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعدنا اليها
العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

-٥٩١٦-
الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الارض المقــدسة . والحمــد لله على نعمــه المـفــرجة للكروب والطافه المذفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناه الله من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيهــا بحق منابه . والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمــن . ويجلو عروسها البكر في حسنها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشــكر يديم النعمه . لازال المجلس مشــكور الشــئمه عالى الهمــه . منصــــور العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة

والســلطان مقيم بعــكا وربيب الربيع رضــــيع . ووشي الروض وشيع . وصنيع القدر نصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض وشيع . ومراد المراد مــريع . ونســـيم الاســحار لاسرار الازهـــار منيع . واريج الجو العليل في شفاء غليل الجوي شفيع . والدهر قــد ثمل وافاق . والزهر قد شمل الافاق . وللمحاب مهاب . وفي الشعاب اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون النرجس مصفره . وشــفاه المنابــع مخضرة . واحــداق الحــدائق الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهــرة . وعذبات المنابت متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجبــاه الغــدران متغضــنه . وجفون النوار متــوسنة . والافنان مــورقة والورق متفننه . وخــد الخبري مورد . وحد العراد مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجــه الجلنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبــل . وشارب النبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قــد سرى وسر . وطبي الطيب قد حفل ودر . وتقاضى الســلطان غريم عزمــه

بدين الدين . وان ان يصحر ليث بأسه الخادر من العــرين . فـأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقــه . ونشر بيارقه . وحشر رواعده وبوارقه . وانفق خزائنه . وانفـد دفـائنه . وبذل في صون الدين ديناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتنكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتــال العــدى فيه لهج المحب المغرم . ولعزمه وهيج الهيب المضرم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتنكب . وهــي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتــركب . فـأحطنا بــالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجــال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه الســلطان ورازه . واســتصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تــطول . وان مســألته تعــول . وان محــاولته في مطاولته . ومصابه في مصابرته . واضاقته في مضايقته . وان مــافي هذه الحال اقتضى تعذرا فتضاض عذرتــه . ولامــطمع الآن في فــرع ذروته . ولاقرع مروته . وكان في خواصه . واهل اســتخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواخره . فاقام هناك بالتدابير مستغلا وللاشغال مدبرا . وبالاستظهار متأيدا . وبتــأييد الله مســتظهرا . حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس . من كل محرب للحــرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لمرابطها بالليل والنهــار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر للحق وللباطل خاذل . وكان ســعد الدين كمشــبه الاســدي بقلعــة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابــرنس الكرك في الشرك . بمعتــكر يومــه في المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضــه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعــت اســاسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها مستديمة . وحصل ولدها هنفري بن هنفري في قبض الاسار وقيد الخسار . وغمه الانكساف والانكسار . فلما يسر الله فتح البيت المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة عقيرتها بالابتهال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة خسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تنشد ولدها .والهة دخل الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطلقة مأسورها . ثانية عطف العطف لواحدها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها ، سائلة في فلذة كبدها . جائلة بجذوة كمدها . باسطة يدها . ناثرة خرزات دموعها . عاثرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها . ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بذوحها . عاجزة عن بوحها . وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك . كأنها من بنات الفلك . باديا صبح وجهها اليقق (١٦) في ليل شعرها الحلك . مشرقة من اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهدة متنهدة . واجدة متواجدة . معتزة متذللة . مهتزة متململة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة . مستدعية مستعدية . عاطية مستعطية . ساكبة عبراتها . راكبة عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملكة في زوجها الملك خاطبة ولقرمها الندب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها . وطلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرفيعة . وخصهن بمالاق بكرمه من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملكة فانه مكن محلها . وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . ودخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هنفري من دمشق اليها واقر برؤيته عينيها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنها وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها واقصوها . وعددوا عليها الذنوب واحصوها . وأفحشوا لها في خطأ الخطاب . وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسبوها . والى موافقة الاسلام نسبوها . وكلما لاينتهم خاشنوها. وكلما قاربتهم بباينوها فوجدت نبوة نوابها . وعدمت إصحاب أصحابها. وذكرتهم بحقوقها . وحذرتهم من عقوقها . ولاطفتهم فغلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخفقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن. ومضت الى الحصن الاخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر ، فانها لما الت بالشوبك ألمت من شوب كدرها واملت دفعها فعادت بضررها . ولقيت من نوابها نوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فآبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال ذعرها . وأعلمها بان ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرفد والرفد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا • الى صور • واستودعت السلطان ابنها الماسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه في الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لمحاصرتها . ويفي بمصابرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨)من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب

السلطان هذه المراتب . ورب هـذه المآرب . أقـام حتـى وثـق باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مادبره في عمارة عكا

اختلفت الاراء في امر عكا فانها كانت مـدينة متخـرقة . وبيوتهـا متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بـلا سـور . ورأوا أن في ابقائها خطرا . وأن في اخلائها ضررا فمـن اصـحابنا مـن اشـار بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قـال اذا صينت عكا ملك البحر . وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية قفلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قـائل بـابقاء بـرج الداوية لحفظ ميناها . ومن قائل نختصرها من أدناها . ومن قـائل نجـدد سورها . ونحكم أمورها . ونبقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح اقفالها . وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلهـا . ويحلي عواطلهـا . ويتـوحد بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها . ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان:ماأرى لكفاية الامر المهم . وكف الخـطب الملم . غير الشهم الماضي السهم . المضيء الفهم . الهمـام المحـرب . النقـاب المجرب . المهـذب اللوذعي . المرجـب الالمعـي . الراجـح الرأي . الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامح . وتعديل الجوانح . وهو الثبت الذي لايتزلزل . والطـود الذي لايتحلحـل . بهـاء الدين قراقوش الذي يكفل جاشه بما لاتكفل به الجيوش . وهـو الذي ادار السور على مصر والقاهرة وفات وفـاق الفحـول بـاثار مسـاعية الظاهرة . فنامره ان يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

وذؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بالحضور . لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بالشغل . متحملا الثقل منشرح الصدربالعمل . منفسح السر والامل . مبتهجا بالأمر . ملتهجا بالشكر . وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من اسباب العمارة وآلاتها وأدواتها . وانفارها وابقارها . ورجالها وعمالها وعمارها . ومهندسيها ومؤسسيها . وحجارتها ومعماريها . والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير النفقة والذهب الابريز والرقة • ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب . وحضر الموكب وشرف باسني الخلع وأعطي الملبس والمركب وفوض اليه وقلده • واسعفه من عنده واسعده• وقوى جانبه • واعذب مشاربه وأوضح مذاهبه • وانجح مآربه • وأجد جده . وكثر مدده • ووفر عدده وعدده • وخصه بعطاياه • واستخلصه لوصاياه • فتوجه الى عكا وشغله متوجه • وعزمه متنبه وسره مترفه • وفكره في رياض الهدى متنزه • وامره ماض وحكمه قاض • والله عنه راض • وقام بما أقيم له • ونهض بالعبء وحمله • ومشى بكفايته عمله • وشرع في التعمير والتسوير • وتسوية الأمور بحسن التدبير • وسياتي شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه • وما ظهر من حسن ايالته واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره من الرسل .

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد . واستعلائه في الجهاد . وتارجت الارجاء بعرف عرفه . وأرخت السير بمحاسن وصفه . عنت الامصار لمصره . وأعنت الاملاك لملكه • وانقادت الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح . وشروح ايراده واصداره تحل في صدر الزمان المشروح فتهيبه بالضراعة كل عظيم . وتأهب له بالطاعة كل اقليم . ورهبه ملوك الاطراف . وتعلق باستزادة الشرف منه أهل الاشراف . فكاتبوه

مستسعفين . وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خلف الامتزاج . والاتشاح والالتحاف بحاف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه امانا . ولبده وقدمه من تمكينه وتاييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوسل . ويتلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخشى عواقبه . ويديم التردد للتودد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولايقبل عليه منه الا بقبوله . ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتحاد . سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان . فانه بذل الاذعان . وسأل الاحسان . وأدى في المودة الامانة . وأبدى للرغبة الاستكانة . واستنهض في سفارته السفير الالب . وندب الندب . وأنفذ اكبر أمرائه . وأعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكته محكما . وعند اهل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بملكه أولى . ولاتصرف له في ملك ولامال الا بتصريفه . ولاتعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد . وتشييد المقاصد . وتجديد العهود . وتاكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حاضرا وحضر خادما . وقبل البساط وبسط وجه القبول . وتمثل له الشرف فتشرف بالمثول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك . فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب . والبر والتقريب. وأعزه بنزوله في ذراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصغاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جاء به وأجابه . وابعد بادناء مآربه مارابه . وشافهه بشفائه . وأرواه بروائه . وأولاه لولائه . وعرفه بالتعريف الى آلائه . ونصبت له خيمة مسردقه . شهادات الاقبال الناصري لها مصدقة . ووجوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لها مغدقة . فأقام أياما بايامن مقيمه . ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء السماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام المواثيق الاحكام .
ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهو اتابك قطب الدين
سكمان بن محمد بن قرا أرسلان وافيا موافيا • باحسان الخطبة
وخطبة الاحسان • راغبا في تتميم الوصلة • وتعميم الصلة • آخذا
لصاحبه ملك ديار بكر عهدا محكما • وعقدا من الميثاق مبرما •
وقد أحضر قضاة بلاده شهودا • واقتضى لصاحبهم بحضورهم
عهودا • وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل • ومت بكثرة
الشوافع والوسائل • وكان خائفا على آمد فانها من فتوح
السلطان • ووهبها لأبيه نور الدين بن قر أرسلان • فاشفق من
استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع
بلاده من أكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة المظاهرة . وان يفتح
بها باب المزاورة للموازرة . فآواه الملك العادل الى ظل هذه
المواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم
يمنه . وزاد قربه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده
الاماثل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد
مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك ديار
بكر بمكانه . وسار صاحبه بالمسار مصحوبا . وعاد نيله بالفخار
مسحوبا . وقال له؛قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركنك فالى
سواه لاتركن . ومامن كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه .
لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

واقمنا على كوكب الى اخر صفر . ننتظر منها بمن كفر الظفر . ثم
رأينا انه يطول حصرها . ولايفوت أمرها • وان الفتح يبطىء . وان
كان السهم لايخطىء . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من
الحصون . بالمقام عليها وابتذال سرها المصون . ورحل السلطان
نحو دمشق طاهر الشيمة ظاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الاذواء • نامي الاذوار في مطالع المضاء . ودخل اليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الاول . بالصدر الارحب والباع الاطو ل . وتلقاه أهل البلد بوجوه لاقباله متهللة . وألسنة بـالدعاء له مبتهلة . وعيون لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممتليه . وا سماع لامـره مسـتمعه . وأيد إلى الله في نصره مرتفعة . وصدور بايامه منشرحة . وأمـال في انعامه منفسحة . ونفـوس على طـاعة الله في طـاعته مجبـولة • واعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة . وأدخل اليهـا السـكينة • فـوجدت الروح بسـلطانها . وعادت الروح الى جثمانها • وقرت به عيون أعيانها . واقرت له بحسنها واحسانها . وابتدأ بالجلوس في دار العدل . وبحضرة القضاة والعلماء من اهـل الفضل . واسترفع قصص المتظلمين . واستمع غصص المتـألمين . وكشف الظلامات المظلمة . وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل قصة . وقراها بكل حصة . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق • وأقـام للشرع السوق . وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحـل بانصافه كل مشكلة . وطب باسعافه كل معضلة . واصحت سماء السـماح . واصحب جماح النجـاح • وأعدى المسـتعدي • وأروى الصـدي . وحيا الحي واورى الردي . ومجد المجدي • ومهد الحـق حتـى قيل هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم . وانفض اولئك القـوم • الا عن مظلوم اجير بالحق . ومعلوم أجري من الرزق . وعالم أعين . وظالم اهين . وهاد زين . وعاد شين . ومختل سدد ومنحل عقـد ومعتـل شفي ومعتر كفي • وما حل جيد • وآمـل زيد • وركن حـق شـد وشيد • وخدن باطل أبير وأبيد • وراح أدنى فـوزه . ولاح أسـني عزه • وجلس يوما آخر للاكابر والامـاثل . والاكارم والافـاضل . فاضاء النادي وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهـدى . وكر الكرم . وفر العدم . وحفل الدر ودر الحفل . وشمل النظام وانتـظم الشمل • وصان العلمـاء بـالبذل . واعان بـافضاله أعيان اهـــل الفضل . وفاز بـالحمد وحـاز الثناء . واجـاز الشـعراء واكرم الكرماء . وروح الرجاء . واولى النعماء . ونعم الاولياء وتقـاضاه عزمه بالحركة لاستفاضة البركة . واسـتضافة المملكة الى المملكة . فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار . ولم يثبت في جفنيه غرار . ولم

يبت الاوبين جنبية لحب لقاء العدى اهل النار نار • وكان الصفي ابن القابض قد استجد للسلطان على بعض أبراج القلعة دارا . واذهب في نضارتها ذهبا ونضارا . وهي متطاولة بين البروج مطلة على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين • صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهو . شهية الزهور . مجدة لأهل الجد ذكرى اللهو . فرشها بماء الورد . وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق ستورها . واعلى ذورها . وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأسمى انوار مشارقها . وتوصل الى حضور السلطان بها وجلوسه . وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقرظ بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضالة رجائه بنشيد . وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب • وكل مطر مطرب . وظن ان السلطان تروقه تلك الحلية والحالة . وتلك الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعة المقدسة . وذلك المشرف العالي . وذلك المشرف الحالي . وانتظر نظر استحسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا . ولا لمحة بطرف استطراف . ولامنحه حرف استعطاف . بل اعرض بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضارة . وغض عن تلك الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بالرياضة . فالعاقل من لايتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل النوازل منزلا . ولا يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الغرور اريب . وكيف يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغرم . وقال:السعيد من يبني دار الآخرة . وينجو من امواج الدنيا الزاخرة .

ثم صرف في تلك الايام الصفي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخزانة على مكانه . وسمعته يقول في بعض محافله . وقد اجرى له حديث من يفرح بمنازله : كان من ذنوب الصفي عندي انه بنى لي تلك البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال مايعمل بالدار من يتوقع المنيه . وماخلقنا الا للعبادة . والسعي للسعاده . ومايخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . ومــالنا وللمقــام في البــلاد والبلد . ومــاجئنا لنقيم . ومــانروم (الا) ان لانريم . ومـــــاتحركنا الا للسكون . وماا سهلنا الا العود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحــة الا من مغرس التعب . ومايجنى نصيب المغنم الا من مغرم النصب . فأين الاين . الذي تقر به العين . ومايحصل الســكون في المســكن . ولايكمل الوطر في الوطن . لا سيما والدين يطالبنا بــدينه . والكفــر يستقرب منا حين حينه . والبلاد سائبه . وللبلاء هائبه . فلا تفــوح الفتــوح الا بهبــوبنا . ولاينزل النصر الا بــركوبنا . وغدا الحــزم متمما . والعزم مصمما . ووصــل الخبــر بــوصول عســكر الشرق بالغرب الماضي ،والحد القاضي . والجمع الوافر الوافــد . والجمــر اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قــد اقبــل بقبيله. ووصل برعيله . وقدم بجده . واقدم بحده . وانه حل بحلب ثم سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش النجــدة والجــدة جــامعا . فأرهف العزم السلطاني خبر وصوله . وحــل بــالشد للرحيل عقــد حلوله . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة والنبل . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبــرها . واســتقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثــرها . والســلطان بنجــح سعيه متبرك . وبنصح رأيه متمسك . وبطوله عالم وبقــوله عامــل . وبعبارته قائل . ولاشارته قابل . فأراد الســلطان ان يقــدم بلقــائه الاجتماع . وبــرأيه الانتفــاع . ويســتنير بنوره . ويســتشيره في اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني الســعاده مــن مــطالعه . واجتنى جني الارادة من صنائعه . وافتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه . وجاءه بالوجاهة في دينه ودنياه باسعافه واسعاده . وكان قد خــرج الى جوسق الشرف الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى . فأصبح السلطان بــكرة يوم الثــلاثاء حــادي عشر ربيع الاول على الرحيل . فقصده لابرام ماوجده في مملكته من الامر السحيل . واقام عنده في الجوسق الى الظهر . مستظهرا به على الدهر . حتى كشف مهمات مهماته ورشف شفاه مشــافهاته. وانتجــى معــه في الاراء والاراب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل الفاضل وشيعه . وبات تلك الليلة مخيما بالعرادة . محتما بالسعادة راجح السيادة . ناجح الارادة . ثم سـلك في جبـل يبـوس الى عين الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخـالق ومتبعـه والخلق تابع امره المطاع . واتى بعلبـك المحـروسة . وخيم بمـرج عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادر درها . وقسم لها من عدله . وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليهـا بحـكمه . وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاة برعاية امر الرعية . وحكم على القضـاة بـالحكم في كل قضـية بـالجهة الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبـوة . معصـوم النبـوه . مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قـد تنزه ، وقـد كحل عتير العسكر طرف الجو الامره ،(١٩) وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتنبه ، وزرع مـن الزراعة مـن السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتمـاع به

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جـامع من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قـدس (٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تـأنس ، والكفـر بقـدومه تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهـر الشرك ونصر الايمان ، فركبنا وابن ذكاء في اسفاره ، والصبح قـد زحـف على الليل برايات انواره ، والفجر قد فجر انهـاره نهـاره ، وسرنا بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب مقبلا ، ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم ملقاه ، ونزلا

فتعانقا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقـرب مخيمـه ، وجثمنا
وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجندان ،
وسعد الجدان.وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمـان
واتحدت الكم ، وأتأدت الهم ، وسأل السـلطان ان يوازره ويزوره ،
ويحضره بحضوره حبوره ، فسـاق معـه الى سرادقـه وارتفـع في
صدره . ورفع من قدره . وصار العسـكران مختـطلين . وجلسـا
منبسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسـمطين . وقـرأ
القراء واورد الشعراء . وتجاذب بينهـم اطـرا ف الطـرف والاداب
الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شـاعره السـنجاري ابـن
الهائم . ومن عادتـه ايراد المدائح في مثـل تلك المواسـم . فـأنشد
مدحا . ونشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البسـاط . ومـدت
الموائد . وعادت العوائد ونضـد الخـوان . وكونت الالوان . ولونت
الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهاة من كل حـاجة وبـاجه .
وخروف ودجاجة . وحلو حامت (٢١) وحامز وحـامض . وتفـه
(٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصـنوع ومقلي . مـاطاب
مذاق مذقه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من
ناديه القرى . وفرع بأياديه الذرى . قدم ماعده للهدايا . والتحـف
السنايا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعـدد المعجبـة .
والاسلحة المذربة . وكل مايروق ويروع . ويضيء ويضوع . ثم انفض
النادي عن ندي منفض . وسـدي لبـكر الشـكر مفتض . وعين
السلطان يومـا لحضـور عمـاد الدين عنده . وانه يسـتضيف فيه
خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمـارقة . وضرب
بيت الخشب له لحسب بيته . واسـميت الحسـنى بحسـن سـمته
وسمته . واحتفـل بحفله . واجـل لاجله . وارجـت ارجـاء النادى
بالند . وراق مد النواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على
البسط ماحضر من الياسمين والورد . وفاح النشر . ولاح البشر ،
وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . واشرعت القباب .
وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت نوافح النوافـج .
ووضحت مناهج المباهج . ووضـعت المطـارح والمسـاند . والاسرة
والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصـحبه . فتلقـاه

السلطان برحبه . وقرب له السرير وسر بقربه . واجلسه الى جنبه .
وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس
رسمه . وسما في الرؤوس اسـمه . ووقـف الامـراء والحجـاب .
والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتـزاز في
معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندي مجيبـا . والذرا رحيبـا .
والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل موردودا . والحفل حـافلا .
والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والنشاط مقبلا . والمرئي عاليا .
والمسموع مطربا . والمجموع مغربا . والمنظر والمخبر جليلا جميلا .
والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمـــــــــــان
جليا . والربيع في انتهائه . والصـنيع في اشـتهائه . والمصـيف في
ابتـدائه . والمضـيف في انتـدائه والنعيم في نضرتـه . والاريب في
اربه . والطـروب في طـربه . والضريب مـــن الخلق الحســـن في
ضربه .وكانت ايام المشمش وقـــد وصـــلت مـــن دمشـــق
احمالها . وحلت في تلك الحـــالة حـــالها . واقـــدم الجـــذل
قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبـر
مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية
حلاوذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى
من السكر . واعبـق مـــن العبير .واحســـن هيأة مـــن النارنج
الأحمر . والليمون المركب المدور . وقـد زفـت عروسـه في الثـوب
المعصفر . والخمار المزعفر . كأنما خـرط مـن الصـندل . وخلط
بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربـه مثـل
الثمل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه مـا نضر . ومـا
حظر مـا حضر . ورئي هناك لقـــطوفه قـــطاف . ولطـــوافيره
طواف . ولعقوده مصارف . ولنقـوده صيارف . فـكأنها وجـــوه
العشاق اكتست اصـفرارا . أو جمـرات تشـــتعل نارا وتبـــدي
شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بـل هـي
احداق الحدائق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صـبغها بلونه
البرق.وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت
من مهـــابة الجنات الجناه . وانتـــظمت مـــن جـــواهر الحيا
للحياة . واضطرمت لهاها شوقا الى فتـح اللهـاة . ثـم صرفـت

الاطباق . ونظفت الآفاق وبسط المكان . وسمط الخوان . ونبهت اجفان الجفان للقدور الرقود . وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوي الحقود . وتزيد مقال المقالي النشاشة . وتزينت مقار المقاري بالبشاشة . ومادت اعطاف الموائد بالالطاف . وتهادت اكناف السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخطوب المطبوخ . والمقلو المقلوب . والمحبو المحبوب . والاغنية والحمان .والاشوية والحملان . والالبان والالوان . والجوابي والروابي . والصواني والاواني . وقد صفت البوارد . وصفت الموارد . وتنوقت الطهاة . وتنوعت المشهاة . وحلت الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط . وعاش اخوان الخوانسلار الغابط . وتداولوا وتناولوا الذوالات والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحوضا موردا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا مسعودا . وصنعا محمودا . ولما فرغت الموائد . وبلغت المقاصد . أحضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من تحاياه . من خيل صفون . وحصن كحصون . وعراب جياد من طوائف الطريفيات . وسوابق سوابح من العتاق الاعوجيات . والمذاكي المنسوبات . من كل مطهم مطهر الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صافي الاديم . ومعرب مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سلهب . وبحر جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيظم . ويعبوب صلدم . واجرد قؤود . وضامر قيدود . وأقب نهد . وجواد ورد . ومسح رفل طمر . واشق امق غمر . ومفرع طموح . وعتيق غير جموح . وهيكل عال . وعنجوج نيال . فاختار منها كل طرف . قد حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشهب قرطاسي . واشعل سوسني . واغر صنابي . وادهم غيهبي . واحم احوى . واشقر مدمى . وابرش مدبر . وكمين مضمر . واخضر وادبس . وسمند اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحف اللائقة . والطرف الرائقة . والعدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابغات والدروع والزرديات . والرؤوس والرانات . والخوذ

والترائك . والبـواتر البـواتك . والدلاص الموضـونه . والنصـال المسنونة . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية . والملحـم والدبيقي . والمصمت والمغربي والعـراقي . ومـن نسـج تـونة وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شـاكله مـن انواع الطيب . على النمط والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جـده متنوع . وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح . وامـره متحبـر متـربح . ووده متـرح متـرجح .ودعاؤه صـالح . وثناؤه صـادح .ولسـانه داع . وجنانه واع . وعهـده راع . وسـعده ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجـي بما في النفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقـرر . ويورد ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصـده . ويوفي العزم فيها الجهاد حق جهـده . واتفقـوا على عرقـا وعرقهـا وعقـرها . والنزول بعقـرها . وانهـا اذا ملكت ملكت طرابلس . واسفر عن صبح فتحها الغلس . واقام العسـكر اياما على قدس . وبقبس النصر قد تـأنس . ولسـناء الظفـر قـد توجس . واتـي العـرب . وواتـي الارب . واجتمعـت الجيوش وجاشت الجموع . وآن لليل العـزم المدلج مـن صـبح النجـح الطلوع . ونبعت الفيوض من النعيم وفاض الينبوع . واينعت ثمـار المبار وطابت الينوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخـر الى البقيعـة تحت حصـن الاكراد وخيمنا على الربـا والوهـاد . وصـوبنا الى الجهـاد هـوادي الجياد . وادنينا قـطاف الطـاف الله لاجتناء الاجناد . وكانت الاعشاب بـالشعاب واصـية . والشـوائب مـن المشارب قاصية . والقضب للقرب في طـاعة الله عاصـية . وطـار الرعب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر .وطاف الذعر . وقـال ذفر الشرك نفر . ولانستقر . وتشـوروا وتشـاوروا . وحـاوروا وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا تـرتفع لهـم مـن الوهـل والوله اصـوات . واجمعنا على دخـول بلد السـاحل على التجريد للتجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر عن الاثقال .وتجرأ على اخذ اهبة القتال . وسار السـلطان ومعـه عماد الدين زنكي . وسيفه بصـقاله يضـحك ويـدم الكفـر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهــو الذي حين يوارى صــارمه المشهور في نجيع العدى لزند الظفر يوري . وصــحبه مــن فــرسان العرب كل فارس معــرب . ومــن شــجعان الاكراد كل فــاتك محرب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكديش على اكديش . وقارح على قارح . وخضم على سابح . وجــري جــار جــارح . وبهمــة وبطل . وجبل على جبل .وفحل على فحل . وذمر نكل وورد على ورد ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وباشر بالموت معبس . واهيس اليس . واحمى احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدام . وبــاسل ذي باس . وعاسل عاس . ورئبــال على رئبــال . ومشــتمل على شكال . وبحر على بحــــر . وصــــقر على صــــقر . وركبــــوا سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا بالذوابل نيولا . وطــار ابليس طــرابلس بخــوافي الخــوف . ودام الجوى في رعب اهلها بدم الجــوف . ومــا سار الا مـــن خـــف في نهضته . ونهض بخفته . واحس حصن الاكراد بالاكدار . وصــفت على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقــرت . وتعــرمت العريمة وتعرقت . ومــزعت تلك الاعمــال ومـــزقت . وارهقـــت وازهقت . وذفرت اذفارها . وبقــرت ابقــارها . وملئت بــالدوائر ديارها . وسيقت مــواشيها . وحشــيت بــالنيران اوســـاطها وحواشيها . ونزل السلطان على حصــن يحمــور فمـــا قـــدروا يحمونه . وابتذل مصــــونه واســـتخرج مـــكنونه . وفتحـــــه ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقــام في تلك الديار عشرة ايام يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفائسها ونفــوسها . ثــم رحــل بمغنمـــــه . وقفـــل الى مخيمـــــه . وعاد العســــكر مسرورا منصورا . محبورا مــوفورا . قـــد اطلع مـــن تلك البـــلاد على العورات .و اضطلع بالغنائم في تلك الغارات . ونكا منها في الاعمار والعمارات .وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يمــوج بــالعساكر موج البحر الزاخر . وقـــد وصـــل قـــاضي جبلة يحـــث على قصـــدها .ويحض على انجــاز وعدهــا . ويحـــرض على اعذاب وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقــول

ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحتراسها . وكثرة ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها الحصار . وتجنبها عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهذه جبلة وما وراءها من المعاقل . قنيصة الحابل . وفرصة المتناول . ولهنة للآكل . ونغبة الناهل . وامنية العاقل . لم يفترع عذرة امنها ذعر . ولم يفتأ سورة دفعها ضر .ولم يقرع باب يسرها عسر . فان سلكنا سبيلها . ملكنا سلسبيلها . وان جزنا ساحتها . حزنا راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتدنا حواءها حوينا عتادها . وان افتتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم . فعرفناه بصحة نصحه . ورفعناه بحجة نجحه ° واصغى السلطان الى قوله . واصفى له ورد طوله . واقبل عليه وقبله . واجزل له العطاء واكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا . فوفر لهم رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهم . واسعدهم بالمواهب واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشياعهم . واجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجحافل . ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الأول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي المنصل . فسرنا في آجام مؤتشبه . وآكام معشبه وحزن وسهول . وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل . وروابي وهواجل . ومغايض وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك النواحي المواحل . ومعنا احمال واوساق . واثقال واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيل عرم . والمجر لجب . والغيل اشب . والاسد في عريس من الاسل العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص . وقد نشأ العجاج كعجاج النشاص . فانحلت بحلولنا معاقد المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبه سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل . ونحن في استباحة واستباء . واصطلام واصطلاء . وارتياد وارتياء . وفتك باعداء . وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوي الفجور ، وهتك لحجاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدبير عليه في داره دائرة كل ويل • فما نقطع الا واديا يغيظ الكفار ، ولانحضر الا ناديا نزيدهم به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى وصلنا الى أنطرطوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفز عليها الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس ، وقابلتنا ساعة ، فلم يجد اهلها الدفاع استطاعة ، وودخلت من جوانبها وتخللت من مذاهبها واصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها، وفل غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نسائها وأطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما هناك من أحكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم مقدمهم الذي اطلق من الأسر ، وفي البرج الآخر المنهزمون الناجون ، والفارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمنوا بميثاقه • ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده ، وحل من احكامه ماالكفر شده ، وركب النقب على ركنه العالي ، ونكبة في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب الى اساسه سوره ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية بدائها الدوي • واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطرطوس وقوضها . وربضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج تركناه ، وماكانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن البلاد ، وللفرص أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك الجدد اللاحب لايعرج على بنيات الطرق ، ولايستغني مدلج الليل بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت • وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسبتارية عالي المنكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطـريق ، وقـد صـفت الفرنج في البحـر المراكب ، وسـدوا المذاهـب ، وردوا الراجـل والراكب ، وفوقوا الجرخ للجـرح ، وسـددوا الزنبورك للقـرح والطرح ، فعسر العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجـب الاحتـراز ، وأعوز الظهـور وظهـر الاعواز ، وذلك ان صـاحب صقلية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهـازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق وصوله في تلك الأيام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العادية تشعيث العمارة ، مع طاغية يقال له المرغريط • قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بـطوله واسطوله ، وصوله وصـوله ، فمـا أحلى ولاأمـر • ولانفـع ولاضر ، ولااستقل ولااستقر ، ولانقض ولاأمر بل صار على الفرنج وبالا ، واحدث لهم بما يسومهم من مؤونته امحالا ، وماخفف عنهم بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيه فلم ينتفـع ولم يرتفع شان شوانيه ، وصار الى صور ثم رجـع الى طـرابلس وتـردد في البحـر وتلدد وأبلس ، وتفـرقت جمـاعته ، وتجبنت شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولايظهـر له رأي ولايرى له مظهرا ، فتقطت اقطاعه • وتتابعت في الفرار اتباعه ، حتـى عاد في عدة يسيرة ، وشدة عسـيرة ، وكان هـذا الطـاغية قـد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جـوانبه ، قـد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفـاتي الى هناك وتصـفيفها ، والسـتائر وتـأليفها ، والتـراس وترصيفها ، واقعد من ورائهـا على مقـابلة سـفن القـوم وازائها ، الكماة النخبة • والرماة الجرخية ، حتـى تبـاعدت تلك السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمـت عليهـا المحـن ، وأنحـت الأحن ، ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لهـا بلنياس ، وقـد أجفـل عنهـا الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسـنا بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضـها

نواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجنبات الوادي مريضة ، والنسيم العليل بليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصبحنا على الرحيل مبكرين ،(فساء صباح المنذرين) ،(الصافات ١٧٧) وسرنا وسرنا في سرور ، وسفرنا في سفور وجمعنا في اجتماع ، وجدنا في ارتفاع ، ونهجنا في اتساع ، وركتنا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهو مطرد من الجبل الى البحر ، فازدحم العسكر عند ذلك النهر ، وتواقعت الاحمال والأثقال عند العبر ، وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر ، وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلده • وعانت الأثقال في تخلصها من الشدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل الى القرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطىء هذا النهر ، وساحل البحر ، حصينة البناء ، مصونة الفناء قد حصنها الاسبتار ، وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سالوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخترق ، والفينا بلدة خاوية على العروش • حاوية للوحوش • خالية من الأنس والأنس ،(وكأن لم تغن بالامس) (يونس ٢٤)، وقد انزعج اهلها ، وتشتت شملها ، وتخوف آمنوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضح في الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعـز الاسـلام معتصـمين ، وعلت على السـور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجـت القلوب المحبورة ، وتحصـن الكفـرة مـن الحين ، ولجـأوا في التحين الى الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا ، قـال انه بحصـانته ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصـن البلد وهـو المعقـل الأكبر ، وتوسط لهم قـاضي جبلة في أخـذ الأمـان بعـد قبض الرهائن ، على ان يعيدوا مـن استرهنوه ، في انطـاكية مـن أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا الينا كل مالهم مـن سـلاح وعده ، وخيل وذخيرة وغلة ، وتسـلمنا الحصـين يوم الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بـالكرام جبلة جبلة ، وذفت عنهـا بـالفئة المقبلة ، الفـئة الشـقية المختبلة ، وسعد أهلها بعد الشـقاء وتعـوضوا مـن الشـدة بـالرخاء ، وافضى اليأس بهـم الى الرجـاء ، وفـاؤوا الى الوفاء ، وانتقل أهـل الجبـل الى جبلة طـائعين بعـد العصيان ، مصافحين بـالمصافاة بـالايمان أيمـان أهـل الايمان ، وكان حصن بكسرائيل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحـه الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجـانب وأهله وكانوا لقـاضي جبلة مذعنين بـايمانه مـؤمنين ولدعائه ملبين ، ولبقـائه محبين • ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجـوا بـالاستبصار والاستغفار والاستذفار ، وأضت تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على سـكانها حـانية ، وتلك المدينة لأهـل الدين دائنة دانية ، وتلك الجنة العـذبة الجني لورد دم الجناة مـن شـوك القنا جانية ، وتلك البنية لمعالم المعـالي في هـدم اسـاس الاسـاءة بانية ، وتلك الهضبة راسـية ، والتـربة كاسـية والرتبـة سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحـالة حـالية ، واقـام السلطان بها ايامـا حتـى أزال شـعثها • وأزاع خبثهـا ، ورأب صدعها ورب ربعها ، وشاد ركنها ، وشـد حصـنها ، حتـى أزال كفرها ، وجبر كسرها ، وجـد بهـا جـدبها ، وحض بهـا خصبها ، وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبـالرعاية مـلأها

والرعية كلأها ، وبجل قاضي جبلة وشرفه • وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور الأولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب راجح الآراء ، وسار برعب الى العدو يقدمه • وعزم على الغزو يصممه ، وأمر لأمرار الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين يقفة ، وحد في تدمير المارين يرهفة ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار يشعلها ، وجيش للوثبات ينشطه ، وجاش بالثبات يربطة ، وهيبة تروع الخواطر ، وهيأة تروق النواظر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين ، قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة منهم خافقة والانية بهم متضايقة ، والمهج في سوق الردى نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر الذيل ، ومن السوابق في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم في احتزاز ، ومن انتخاب الأجواء والجياد في انتخاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالهواضيب في انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات تسرج والسريجيات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضى • والصرائم تقتضى ، والقوارح تضمر ، والقرائح تخمر ، والضوامر تجرى • والبواتر تعرى ، والصلاد تلجم • والدلاص تستلأم • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والجاليشية تعبي ، والجاوشية تلبي .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مربح .

والمفخر متوضح . والجاش فرح . والجيش مرح . وقرح العدو مقترح . وزند الفتح مقتدح • وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام من موقها آماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضنا اليها الحجار والنقاب والزراق . وأطرنا النشاب الى أوكار المقل . وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل . ورأيناهم تغلي من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل . وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين مابين تلك القلل . وجدوا في القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال . وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرخ دورك . وقلنا للكفر اخرج لندخل الى دورك . وأي دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك . وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من السور حجابه بالحجار . حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار . وأخذت عليهم النقوب . ووقذت منهم القلوب . وبلغ النقب من الشمال في الطول ستين ذراعا . واربعة أذرع في العرض اتساعا . وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول التل متناسقات . كأنهن على رأس راسخ . وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها . وشرعنا نستاصل أصلها وفرعها . وناوبنا عليه القتال . وجاوبنا بالنصال النصال . وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن . وأثارت من مكامن الاحقاد كوامن الدفائن • ودام الرماء • ومريت الدماء • وانتجع النجيع • ووقع ذلك الرفيع • فاستبطيء السريع . وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعاينوا ماعاذوه من غريم الموت المطل في مطله • وفتح الحتف بابه . وحفز الزحف اصحابه . وكشر الشرك نابه . وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه ومصابه . ونفر الناس اليهم • واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم . والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم • بواء في بوارهم . ووبل النبل هام . وأهل الجهد في ضراب وضرام . وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزمع • ومنافيهم الطمع . حتى ازدحم على التل الصغار والكبار . واستشعرا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق وارهف فقبل خده سهم . فرجع واذا وجهه طلق لاجهم • وهو بقرحه فرح . وللفرح بالشهادة مقترح . وقد عدله الجرح • وحسنه القبح • فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولايتركون . صاحوا الامان . واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيه . فانه موضع ما فيه مطمع • ولم يكن للكفر غيره مفزع • وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عذوه • وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلى النور . وأشرق الفلق وزهق الديجور . وبدا الفجر وباد الفجور • وسرت القلوب وأقبل السرور . وسلموا القلاع بما فيها من عدة ونخيرة . وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم • وانصرفوا بنسائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم . وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة . وتمسكوا بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه • وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه • ثم ولى بها سنقر الخلاطي مملوكه • وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه • فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية • وانتهى الى غاية في نهى أولى الغواية • واقام جاليا للغاية • عالي الرأي والراية • وركب السلطان الى البلد وطافه • وهز إلى إحسانه أعطافه • وأدنى الى عدله قطافه • ووفر الطافه • وأصفى نطافه • وامنه بعد ماأخافه • ورأيتها بلدة واسعة الافنية • جامعة الابنية • متناسبة المعاني . متناسقة المغاني . قريبة المجاني • رحيبة المواني . في كل دار بستان . وفي كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أمكنتها مخرمة . واروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة . ودعائمها منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة . ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية • وقطوفها دانية . وأسواقها فضية . وآفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها موذقة . وأرجاؤها فسيحة . واهـواءها صـحيحة . لكن العسكر شعث عمارتها • وأذهب نضـارتها • وأزعج سـاكنيها . وأخرج قاطنيها . وملك دوز المشركين المـوحدين . وطهـرها مـن رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامـراء الزحـام على الرخام • ونقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجـوه الاماكن • ومحوا سني المحاسن . وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة . نفيسة قديمة . بأجزاء الاجزاع مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة . وأجناس تصـاويرها متنوعة . وأصول تمـاثيلها متفـرعة وهـي متوازية الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه . وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخـوان الشـيطان . وعينت لعبدة الصلبان . ولما دخلها الناس اخـرجوا رخـامها . وشـوهوا أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهـد أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابـلاسها . وحـكموا بعـد الغنى بافلاسها . وافتقرت وأفقرت . وخـربت وتـربت . ثـم لما طـابت النفوس . وتجلى عن البلد بفتحه البوس . عاد الى هـذه الكنيسـة بالأمان القسوس وهي متشـوهة متشـعثة مسـتمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة • ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت . وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بـأنها عادت للاسلام مرابع . ولسروحـه مـراتع . ولجمـوعه مجـامع . ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت • وشأت البـلاد اذا شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسـلام إلى أحسـن حاله.وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فأض مأمول الجني مأهول الجناب . وعاد بتجار البحار مملوء الرحـاب . وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار . والاشرار أهل النار . وكانت شواني صقلية . قد قـابلت في البحـر اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لنيابه عنهـا ودفـاعها . فلمـا خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب مـن يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صـونها ببـذلها . فـامتنعوا عن

الانتقال . وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال . وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة مناها . فطلب مقدم تلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه . فأمنه حتى صعد ! ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان . وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك رحيم • وقد شاع عدلك • وذاع فضلك وقهر سلطانك • وظهر احسانك • فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليها واحسنت • لملكت قيادها • اذا أعدت بلادها • وصاروا لك عبيدا • واطاعوك قريبا وبعيدا • وان أبيت غير الغيرة والاباء • ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق • وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثأر .. وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر المأتي . وهؤلاء أهون منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان:قد أمرنا الله بتمهيد الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في الجهاد . وامتثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد . ولاتكترث الاساد بكثرة النقاد . ولو اجتمع اهل الارض . ذات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد الأعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على وجهه . وركبَ بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في نصره بين أنصاره يتهادى وقد تيقنا أن الفتح لايتمادى . وان العزم عن الفداء بالمهج في سبيل الله لايتفادى . وأخذنا على سمت صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتــون . وللإســلام محيون . وكان الطريق اليه في أودية وشعاب . ومنافذ صعاب . ومضايق غير رحاب . وأوعاث وأوعار . وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطــرق في يومين . ووصلنا ليلة الثـلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صــهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين . بها محيطين من جــانبين . والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وســور وثيق . والقلعــة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممتلئة بذئاب سغاب • وأســد غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء مــن نواحيهــا الاربــع . وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل الســلطان خيمته الى جانب الجبل بــكرة اليوم . وشرع في محــاصرة القــوم . وقامت أسواق الاقواس للمذون في مغالاة السوم . وتــوفرت ســهام السهام من المقل . وتبــدت بنات الكنائن مــن الدم القــانىء حمــر الحلل . وأسقطت حوامل المنجيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور الكنانيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مراء الرمــاء . وزخر دأماء الدماء • وطــارت الحجــارات . وحجــرت الطيارات . ودارت حميا الحمــــام على أولئك . واســـــتنجدت ملوكنا الملائك . وأدامت اليهم المجانيق والجروخ والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين • ونهــج بهمــا مــن جــانب الوادي الى رديء الأعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد العالي . والجد الوالي . والعزم الماضي . والحزم القاضي . والسعي الناجح . والرأي الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فــانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه . وقــد اســتصحب الكماة الحماة . ومعــه الرجــال الحلبية . والمنجنيقية والجــرخية . والجاندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب الذكر والثناء . وأنار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتــال على المكان من جانبه . ومن جانب السلطان . والملك الظــاهر في تــظاهر ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعنفوان جلاله . وشــباب رهان مجاراته . وشبا برهان مبــاراته • وابــراق عوده . واشراق سعوده . وغرة عزته• وميعه منعته • وصدر تصدره • وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشــوء اغتبــاطه • وفتــاء فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتفاعه • وايفاع يفاعه • وترعرع سنه • وتعرعر ركنه • وتسامي سيادته • وتراقي سعادته • واجد لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واســتلذ في ســبيل الله نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله ذوبــا • ولأحــواله رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجــارات الجاريات من منابعه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم المحصن • وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر . فالله در المسيء المحســن • ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصــن • وهــان بمــا دب فيه مــن الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الاخرة • وطمــا بحر العسكر بأمواجه الزاخرة . وازدحم الناس في الزحف كأنهم في الحشر بالساهره . وهاج الشباب . وماج العبــاب . وتســابق ذوو الجرأة والقوة . وتلاحق ذوو الحمية والنخوة . وكان في قرنة الخندق عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقــه . ولم يتــم تــوثيقه . فتطرقوا من تلك القرنة الى القنة . وتســوروا الســور وتســلقوا . وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا . وتملكوا الذروة . وامسكوا العــروة . واستولى على أهلها الرعب . واستشرى بهم الكرب . فتعــادوا الي القلة . وتفادوا من الخوف لامن القلة . وملكت عليهم ثلاثة أسوار . بما فيها من متاع وشــوار (٢٥) . ونعــم وأبقــار . وصــــاحوا الأمان • وبذلوا الاذعان . ونادوا مكنونا مــن الســلامة وتســلموا المكان . فما امنوا على المال والنفس . حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس . واغلقت دونهم الأبواب . وسير إليهم النواب . ومــاا ستقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار . وجبي الدرهم والدينار . وعم الكبار والصغار الصغار . وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ، ثم سلم حصن صهيون بجميع اعماله . وسائر ماحواه مــن ذخــائره وأمواله . الى الامير ناصر الدين منكورس بن خمار تــكين . اســد العرين وامير المجاهدين . المقدام الهمام • والمطعام • فألفى الثغر سداده بسداده . وامرع به مراد مراده .

ـ ٥٩٤٥ ـ
ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين • ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه . وسلكه في سلك الفتوح ونظمه .

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة الله والنصر قد نزل . والكفر قد انخذل . يوم الثلاثاء سادس الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر . وحكم السلطان في القهر ماض باذن الله على الدهر . وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القلل • على هضبة منقطعة . عالية مرتفعة • ومن نواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها • واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولا عليها طروق • ولا فيها للطمع علوق • ولا للسهم اليها مروق • ولا للزحف فيها مقطع • ولا للذر نحوها مطلع • ولا للطير في مراحها وكر • ولا للمكر في افتتاحها مكر • ولا للوهم في توقلها مجال • ولا للفهم من تصورها منال • ولا لها بمن يحتفل بها احتفال • وما عليها للنازلين عليها قتال ولا نزال • ولا يتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل الشغر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • ودا ومها بالحجارات أياما • ولكم سدد بها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رمائها • وابت الا ثبـاتها وثبتـت على ابـائها • وأعيا اعضال دائها • واستفحال بلائها • وخـام الرجـاء بـالارجاء عن ارجائها • ولو لم يضجر حاميها لضجر راميها • وسـئم سـائمها لتساميها • لكنه وهي جلده • وهوى خلده وخار قلبه • وحار لبه • وخاف من الاقامة • وخاب من السلامه • وارتـاح الى الراحـة • وسـما الى السـماحة • وعاج الى الانزعاج • وعاد لداء خـوفه في الاستئمان يطلب العلاج • ودعا الى الدعه • والخروج مـن الضـيق الى السعة • فبينا نحن في ترو وتفـكير • وتخيـر للرأي وتـدبر • ونقول هذا حصر يشتد • وأمر يمتـد • وعمـل يصـعب • وأمـل يتعب • ومعقل لايختل ومعقد لايحتل • ومقصـد لايدرك • ومـورد لايملك • ومكان لاامكان لفتحه • ورجاء يطـول الزمـان في تـطلب نجحه • اذ خرح من الحصن من يضرع في الأمان ويمتـري ضرع الامن • فشكرنا الله على تسـهيل المتـوعر • وتيسـير المتعسر • وتحصيل المتعذر • وتلقيح الرجاء من الياس • وتنقيح مناط حـكم الصحة عند اضطراب علة القياس . وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء • وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والارجاء • ليخبـروا صـاحب انطاكية ويستأذنوا • ويقبلوا عنده العذر ويخـرجوا مـن الحصـن ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والشغر شاغر . والكفر صاغروفـم القهـر منا لهـم فـاغر . والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مثاغر . والحصن البـكر مفتـرع • والدين المتأصل بشعب النصر متفـرع • وطلع العلم الى ذلك العلم الطالع • وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع • وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين ، وكأنمـا أبـراج تلك القلعـة مسـامع الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بـأيدي الأيد ايمان ذوي الايمان . فابتسم عن النصر ثغر الثغر . وفرغ القلب من شغل الشغر ، وسلم هـو وحصـن بـكاس ، الى غرس الدين قليج الساقي عدوه الموت بكاس الباس . وانتقل السلطان يوم السبت الى مخيمه والاقبال جاثم في مجثمه • وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واسـتطلق منهـا البـررة العانية . وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وماقطع

قرارها حتى قرر عليها قطيعه . وكلفها ماكانت له من المال مستطيعة • ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج حتى خربها عاليها • وعطل حاليها • وانجلى ثاويها • وانتأى جاليها • وبقيت دمنة دائرة • ودمية عائرة . ورسما عافيا • ورقما خافيا • وربعا باليا • وصقعا خاليا • وعادت دارا دارسة • مستوحشة بعد أن كانت آنسه • وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين ومن نوادر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية • في أيام الجمع الخمس المتوالية • باء فيها لنصر اهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد واصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد . ظاهر اليد •

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه • وسرنا سار • ودر الظفر لنا دار . وهي احصن القلاع وافرعها • واحسن التلاع وارفعها . واسمق الرواسي واسماها واسنم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سبق اليها واشرف عليها . ثم استدعي الاثقل واستحضر . وجمع بالفضاء تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله النبل ، فرأيناها قلعة شماء في الذرى . لاتكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال . مترامية في السماء ارتفاعا ،وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة ونيفا وسبعين ذراعا، فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها . وحارت الاوهام فيها وقلنا ماأعلاها وماأسماها. وتحاجزت عنها الحجارة فلها من اجازتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة قلائعها . ولاطلعت الى القلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طوالعه طوالعها . فـكأن الصــخور سـلم نحــورها . فإن سورتها تنكسر دون الوصول الى ســورها . ولما رأى الســلطان انه لاوصول الى نيقها بــالمنجنيق . وان الا شــتغال بــه يطيل زمـــان التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك اللحف . وذلك في السابع والعشرين من الشهر يوم الثـلاثاء . فقســم الناس ثـلاثة اقسام على السواء . وجعــل النوبــة الاولى لعمــاد الدين صــاحب سنجار . الليث الهصار . والغيث المدرار . والبحر الزخار . والسيد الحلاحل (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح وعفاة الصفاح . ونفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقــدام . وشــفاة الاوام بعلة الانتقام من الاقوام . واســاة ذوي الاســاءة بــاحسان الحسام . وكساة عرى العراء أردية القتام . ورقاة اراقــم اللهــاذم وسقاة حــوايم الصــوارم . والمزاق في حــومة الردى رداء المأذق . والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد بشفاء الشفار . وضارب هام المريد ببتار التبــار . ولاســع بحمــة الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولابس لبــاس البــاس كالاســد الباسر باسل . ومعتقد الدين.للرديني معتقل . ومعتــد على العــدو بعادي معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتــاز ، ومجتب لحب المنون لرهون نفائس النفوس محتاز . فــانقضوا على الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفا يد هــده . والصــدى يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقي . والمصــاعب تلقــى . والمضايق تولج . والبوائق تحرج . والاكام تفرع والرجــام تقــرع ، والصخور ترديد . والجــلاميد تميد . ومــازالت هــذه النوبــة تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وتــرد وترد . وتصد وتصد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجــم . وتصــدع وتصدع . وتحمل وتَرجع . وتذكو وتنطفىء . وتبدو وتختفــي حتــى كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبـــت . لولا انهـــا لغبت ، وسمت . لولا انها سئمت ، والغيت هــذه النوبــة خــاصة ، لاهــل الحصن حاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا للتناوب الاستبدال . ولما ظهــرت في النوبــة النبــوة ، وكاد جـــوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية . والسطوة الدانية . والعزمه الناوية غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف الى الجبل بالجبال . وتضافروا فتطايروا في الاوعار كالاوعال . وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا نيول السوابغ ، على تلك الهواجل . وترقوا في ذراها . وقروا على قراها ، وتلبسوا بجوانبها ، وتوجسوا من مشاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ، وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها، ودخلوا في مخارجها ، وصارت الجروخ تجوزهم . والجروح لاتحوزهم . والسهام تعبرهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميهم . والحمية تنخيهم . وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن أقبل أغبطه ، ومن أدبر أسخطه . ومن تقدم قرظة . ومن تقاعس أحفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا . وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا . فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا في تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء . وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت النوبة الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة الاولى لنشاطها . وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة . وقلعت الطلعه . وافتضت العذره . واقتضيت النصره . وأعان القدر فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وان اهل القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لايهلكوا . فلما سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا للضراعة التياعهم والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص . عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة . وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

واحرزوا النفوس والنفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان السلطان امنهم وحظرهم . وبقـي اولئك الافـراد بهـم متفـردين . ولتجريدهم للسبي متجردين . وصار مابالقلعة ومن فيها لهم كسـبا وسبيا . ومارأوا لحق مـن شـاركهم في السـعي رعيا . وحـرموا ماارتفقوا به وحرموا الرفقـاء . وحـازوا دون الغـانمين النهـب والاسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقـة ظمـئة . ولما تسنى ذلك الفتح وتهنا .وتسهل ذلك الصعب وتهيأ . عاد السـلطان الى خيامه . وعانت الايامن بأيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبهـا حتى أظهروها وأحضروها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن عليها بالاعتاق من الارقاق . وحل عنها وعن زوجهـا قيد الوثـاق . وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهـم في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات . ووصل حبلهم بعد البتات . وشعبهم وقد تصدعوا . وا شبعهم وقـد تجـوعوا . وحـظرهم وقـد استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهـم وقد استميحوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد مـاهتكوا . وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وا فتقروا . وجبـرهم ونعشـهم وقـد انكسروا وعثروا . وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها . فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضـمر بغضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمهـا والفـرج في كربهـا .
وتشكت لأخذ بلدها . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان بهذا الحصـن على عز الدين بـن المقـدم . الكريم المكرم والمقـدام المقدم . والعظيم المعظم . والماجد الممجد . ابراهيم بن محمـد . فإن هذه القلعة لثغر افامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهـي لهـا في السلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .

وسرت هـذه البشرى وسـارت ودرت هـذه النعمـى ودارت .

وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبـت ان هذه البشرى بما اجده الله من الفتح العزيز . والنصر الوجيز بفتـح حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب اثـوابها . وتفتحـت له

السماء لتنزل الملائكة من ابوابها . بل سـفرت بـه عرائس الايام في حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في ادوار محاسنها . وهـذا الحصن لايمكن وصف ما هو عليه من الحصـانه . وكأن حجـره في حجر حضن الحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصـون ، وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مـرتج لم يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في أسر الدهر بـه مخـرجا . حتى أتت ايامنا ، ودنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجأه امرنا . ووصل الينا ما هو في الازل ذخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخـرنا . وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية . وسـقينا بمـاء الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفـارس الهـدى الزاكية . وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العـدو البـاكية . وهـذه الحصون التي فتحناها . والمعاقل التي اسـتبحناها ، لو وكلنا الله الى اجتهادنا في فتح احـدها . لتعـذر ولو أنجـدت عسـاكر الدنيا بمددها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفـر ، وان حصن بزريه لم يكن عليه قتال . ولا للوهم فيه مجـال . ولا منصـب عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسـالك طـريق . وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟ فانقاد جماحه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سـلاحه ، وتوقل الرجال في ذروته توقل النجوم في الافـلاك . ولنصر الله اهـل التوحيد على اهل الاشراك.وفتحناه بالسيف عنوة . ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضـحوه . فـانا لما تـوكلنا على الله في منازلتـه . واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العـزائم والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتسلقوا الى القلل . وسعوا الى الاجل. في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (ومـا امـرنا الا واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في الاعتصام رجاء . وقد نقصـنا اطـرافها . واسـتبحنا اكنافهـا . وشفهنا نطافها . وعضدنا مـن رؤوس اهلهـا بحـدود الصـوارم قطافها ولم يبق من معاقلها الا القصير ودربساك وبغراس . وقـد تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس .

-٥٩٥٢-

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورحجت اعماله . وحل اقباله
واقبل جلاله وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد
دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد
الجسارة . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح
وللمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجدنا بتأييد الله
في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع
الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش
الداوية بل عزيمتهم . وطالما أطال في التعدى أيديهم وعرانينهم .
وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون .
وركنوا بسكنى هذا المعقل الى السكون . فلما اشرفنا عليهم اشرفوا
على المنون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد
وجب. ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم
مددات مراميها ومرامها . وراميناهم بها ليلا ونهارا وارسلنا اليهم
امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكدنا لا نذر في ارضها التي هي
في السماء من الكافرين ديارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى .
واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى .
واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا
والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من
السور الخارج . وظهر فيه عروج للدارج ودروج للعارج . فطلبوا
على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه
المكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم
من وديعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة
واصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة .

-٥٩٥٣-

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغـراس وقـد ضـايقنا الاعداء وضيقنا منهم وعليهم الذفوس والانفاس . وهي قلعة مـن انطـاكية قريبة . وانها في الشدائد لدعائهـا مجيبـة . ورأيناهـارا سخة على رأس راس . شـامخة على عاص عاس . ارضـها في الســماء . وجوازها على الجـوزاء . متـوغلة في الشـعاب ، متـوقلة على الهضاب . منسحبة في السحاب . مضـبية بـالضباب ، مـربة على الرباب . متعلقة بالنيريـن .. متسـلقة الى الفـرقدين . محلقـة الى النسرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مـطلع فيهـا لطـامع ، ولا مطمح للامح . ولا ملمح لطامح . وهـي للداوية وجـار ضـباعها . وغاب سباعها ودار دوائرهـا . وغار مغـاورها . وغيل غوائلهـا ومنزل نوازلها وجعبة نبالها . وهضبة رئبـالها ، ومـذب ذئابهـا ، ومدب ذبابها . وكوارة زنابيرهـا . ومغـارة خنازيرهـا . ومـرقب صقورها . ومرقد اسورها . ومكنس وحوشها . ومعرش جيوشها . فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسـنتنا في ظلمـاء نقع خيلنا مشعلات السرج. وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمـع غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظـر يقـظته وارقـد عينها ، فأقام على سبيل اليزك . ودخل في حفظ جـانبها في الدرك . وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطـاكية صـفا . ويسـومها مـن الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقـابل رجسـها منه الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق آمـريه بـالاذعان على خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خـذ الامـان وهـاته . ومـازالت الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه . والصـخور فيه تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بـابه . وألجـأ جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخـرج مقـدم الداوية يستأذن في الحضور . ويسأل الأمن مـن المحـذور والحـل مـن

المحظور . ويقــول انمــا قنينا بغــرا س بغــرا س القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصــن البنى . والمعــاقل لايحميهــا الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصــن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من الســلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربســاك بــالامس . وســلمها الداوية طــائعين فعجبنا مــن انقياد اولئك الشــمس . واباحوها لنا وكانوا يغارون عليهــا مــن طلوع الشــمس . وأنار في مطلعها سني السجق المنصور . وأذن المتطاول فيهــا مــن تــطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شــعبان . وسر النصر فيه شــار وبــان . وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفــاز . ومــاكان في الامراء الا كابر مــن لا يدعي ســواه الاعواز فــالزمه بهمــا ليعتني بحفظهما ، وحضه مــن عصــمتهما على حــظهما ، فتســلمهما بذخائرهما . واطلع من الذفائس على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر الغلة . وقل ســاكنوها لما كانوا فيه من القلة . والغرارة تســاوى اثنى عشرة دينارا . والقــوم قــد شارفوا فيها تبارا وبوارا ، وحزرنا ما في بغراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقــدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان مــن منبــع هــذا الملك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هــذه الغلة الى انطــاكية وبــاعها ، واعرض عن متاعب الاخرة وحوى من الدنيا متاعها . واذهــب الغلة بذهب يغله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي مــن حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظــن مــا كان بعــد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفــر مــن فتــوحها بــالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنهــا كانت مــريضة على شــفا

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والدهر قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها لحص (٢٧) دعائمها وحصدها ، وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على مافي يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصادها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الاقامة . وأبدى السآمة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عدة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها .وقتلنا نحلها. واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى:(وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا ، وللاوامر منفذا . وعلى المقاصد مستحوذا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخلب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعه بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة

مجملة ، وحرمة مكملة ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جـزيل منسكب الجود ، وذلك سوى ماغنموه مـن كسـب وكسـبوه مـن غنم ، واستطاقوه من رسم واستجزلوه من قسم ، وملكوه مـن رق سبي . وادركوه من حق سعي . وأجـدوه مـن غرض . وأدوه مـن مفترض . وأحيوه من حسـنة النصر ، وأمـاتوه مـن سـيئة الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجـح . وسـار السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتـاح الى العبور على أرتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتـاح ، ووصـل الى حلب وحلب احتفالها بـوصوله حـافل ، والملك بهـا للاهتـزاز بقدومه في ملابس البهاء رافل ، ودخلناها وقد خـرج كل مـن بهـا للتلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المتـرقي ، وشـاهدنا مـن النظارة عيونا للمحـاسن ناظـرة ، ووجـوها ناضرة ، وقلوبـا حاضرة ، وألسـنا شـاكرة ، وأيديا في بسـطها الى الله للابتهـال بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء لساكنيها سـكون الدهماء ، وأقام بقلعتها أياما يسيره ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقـام ، واتسـقت الأمور بـأوامره على النظـام . ولم يرحـل الا وقـد خص عوامنا وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل منقبـه ، وأعان بكل موهبة ، فما رآه والده مذ حل بحلب الا في أجمـل حلية وأكمـل حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجـد لعينه ولنفسـه قـرة وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طـرقنا المتصـلة بدليلي الشكر والثناء ، وتنكبنا طـريق المعـرة ، بسـلوك طـريق المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السـلطان بـزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي . ابـي زكريا المغـربي . وهـو مقيم في مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السـلطان على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسـخ واهتـدى بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حمـاة . وبتنا بهـا ليلة واحدة ، ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جـاحدة ، فـان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بـن ايوب ، قـد كشـف عنهـا

بايالته الكروب ، وملك القبول مـن أهلهـا والقلوب ، وأعاد لهـا بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبتـه ظـلا مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولاتذكر مع المعاقل المرعية المرضية ، وهي ذات تـل متبـطح ، غير متـرفع ولامتسفح ، فلما تولاها تقي الدين قـطع مـن التـل مـاكان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيدا عاطيا ، وعمق خندقها في الصـخر وحصنها على الدهـر . وبنى فيهـا الدور المرخمـة ، والأروقـة المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصـينة ، فـاضلة في الشـام كل مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرتـه ورفعنا ، والنادي قـد جمعنا ، والشـادي قـد اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فمـا انفصـلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضـل سـني . وعدل احيي . ورسم نائل السـماح واجـري ، وزند سـائل بـالنجاح أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرأ لذوي الحاجات القصص ، وأزال من الظلامات الغصص ، وأنال لذوي الخصاصات الحصص ، واصـبحنا على الرحيل ، ووصـلنا العنق بـالذميل (٢٨) ، وعبرنا مغنين على حمص وزدنا في الوصول الى دمشـق على طريق بعلبك الحرص ، وجـئناها قبـل شـهر رمضـان بأيام ، وركنا الى ماأنسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلالنا أهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما لبث السلطان ولامـكث ، ولانقض عهـد عزمـه على الغـزاة ولانكث ، وقال لانبطل الغزوة ، ولانعطل هذه الشتوة ، وقـد بقيت صـفد وكوكب وأخـواتها ، وبـطول مضـايقتها فنيت أقواتها ، وقواتها ، فنتهز فـرصة فتحهـا التـي لايؤمـن فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شـهر رمضـان . وحـد عزمـه رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجـوه الأيام لأياديه البيض بيض ، ولسان الدهـر في ذكر سـيره وتسـيير ذكره

مفيض ، وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناجحه مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك ، وذلك ان مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية ، وكان الملك العادل اخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر ، مقويا للأمراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون ، وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدي بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقي داؤه معضلا ، وأمره مشكلا ، حتى فنيت ازوادهم ونفدت موادهم ، ويئسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم ، فتوسلوا بالملك العادل ، وابدوا له ضراعة السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت الرسالات تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يلينون والعادل يتشدد ، حتى دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة ، وكتبت عن السلطان في بعض البشائر ، ماالهى بحلاوته عن أرى (٢٩)الشائر ، وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا ان لانستريح ، ولانثني عن كسر العدو عزمنا الصحيح ، فقلنا نغتنم هذه الشتوة ، ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب قلوبا وعساكر ، وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وبيمن صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهاد على الشيمة ، وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماح الأصحاب ، وخرج منه الفرنج ودخله الأصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب اشراك اشراكه منه على طرق

الاجتياز ، فأذقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العـــام ، واضـــطر الكفـــر في اســـلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام ، وقـد كان هــذا الحصن ننب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج وابتســم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا ، فــالحمد لله على ماقدر من الحسنى ، ويسر من النعمى ، حمدا يكون لما قدر ازاء ، ولما يسر جزاء والحمد لله الذي انجز صادق عداته ، في كاذب عداته .

ذكر محاصرة صفد وفتحـــه ، وادراك الســعي فيه ونـجحه

وقطعنا مخـــاضة الأحـــزان خـــائضين في بحـــار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت رايته مفتوحة ابوابها ، والنصرة فوق ألويته مشـدودة اسبابها ، في اطلاب ابـطال اذا أوعاهـا الفجـر لم يســعها الى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط مـن عجـاجها على عشائه . ونزلنا على صفد . والصـبر قـد نفـد . والنصر قـد وفد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد ، وجاء الملك العـادل وظـاهر اخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشـد بـالرأي والحـزم مـاالزمان أرخاه ، وبعث كل ذي عزيمـة على التصـميم ونخـاه ، وشرعنا في مراومة القلعة ، ومساومة الســلعة، وجثـت المجـانيق لاجتثـاثها وحدثتها بألسنة أحداثها ، ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وســمت الى هضاب تلك الابراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجـارة ، ولم نعطهامن العذاب الواقع بها اجازة . فما رفع بهـا الحصـن الراسي رأسا ، ولاالحجـــارة مســت منه ركنا ولاالنقـــوب بـــاشرت أساسا ، ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها ، والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ، ودمنا عليها ، الى ثـامن شوال ، ونوعنا في افتتــاحها الاحتيال ، حتــى انن الله في الفتــح

فسهل ماتصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ماتحجب ، وتيسر ماتعسر ، وامكن ماتعذر ، وتأتى ماتأبى ، وأجاب نداء الاسلام ولبى ، وعلموا ان صفد ان لم تخرج من ايديهم دخلت ارجلهم في الأصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالأساد ، ونزلوا من سماء العز الى ارض الهوان ، فأذعنوا للضراعة وتضرعوا بالاذعان ، واخرجوا اسارى المسلمين ليشفعوا لهم في طلب الأمان ، وصارت صفد المسلمين صدفا ، وكانت بالمشركين هدفا ، وعادت للاسلام سدا ، بعد ان كانت للكفر ردءا ومردا ، وطالما مكث فيها المشركون و (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) (البقرة ١١٦) (لقد جئتم شيئا اداء تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا)(مريم ٨٩-٩٠) ، ولقد كانت مارنا للكفر جدع.ومرفقا للشر قطع.وناظرا للعدو غض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص ، ويدا للباطل شلت ، وقد امتدت ، وعقدة الضلالة حلت وقد اشتدت ، وتخلصت الداوية بادوائها ، وتملصت بأسوائها ، وصاروا في صور ، وأبدوا بعد استطالتهم القصور .

ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج ان صفد لنا صفت ٠ وانها على الفتح الذي يشفي اشفت . قالوا لم يبق لنا الا كوكب . وان صلاح الدين عن قصدها لايتنكب . وقد أقوت من القوة . وهي تهي ان لم نعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها ٠ وقل ظهورها لظهور اقلالها ٠ وهذا أوان انجائها وانجادها . وهي مشرفة على العدم فدبروا في انجادها . فاذا قويناها وحميناها بقيت عدة في العواقب . وعصمة من النوائب ٠ فقال مقدم الاسبتار هي كوكبنا المتلالي ٠ ومذكبنا العالي . ومعقلنا المحكم ٠ ومعقدنا المبرم

وحصننا الحصين . ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع . والمذبع المنيع . والمحل المحلى • والمعلم المعلى • وهي قفل من البلاء على البلاد . وموئل من الخطوب الشداد • ولعلها تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا . وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا • فما تبطىء جداتنا . وما تخطي نجداتنا • واجمعوا على تسيير مائتي رجل من النخب • المعدين لدفاع الذوب . من كل جرخي نخسي • وكمي أكمي • وجهم جهنمي . وسقر سقري . ووعل جبلي . وبطل باطلي . وكلب كلب . وذئب سغب • وعاسل معاسر . وباسل باسر • ومغوار مغو . ومتلوم متلو • وذمر متذمر . ونمر متنمر . وسبع ضار . وشواظ من نار . وجمر من الجحيم . وحام من الحميم . من شياطين يجذون الجذون . ويمذون المذون . ويشيذون الشؤون . ويهدون الهدون . ويحزون الحزون • ويفوتون الفتون . ويظنون بالله الظنون . وقالوا لهم: كيف تمضون وطريق السلامة مخيف وطارق الاسلام مطيف . والشجامنيف . والشجب مضيف . فقالوا نحن نسير ونصير في ضمائر الكهوف اسرارا . وعلى اجياد الاطواد أزرارا . وفي اوكار المغارات اطيارا . وفي اعماق السيول اكدارا . وعلى ظهور الريود اوزارا . نسري ليلا ونختفي نهارا . والليل للعاشقين ستر . ولكم ادلج من الوتر . والنهج وان بعد فهو في قرب عزمنا فتر .. ومن رام النفيس الخطير رمى نفسه في الخطر . وطار الى الوطر . وغرب الى الغرر . ثم عزموا على ما زعموا . وعملوا بما عنه عموا . وخطروا الى الخطر . وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوقلوا في الاكم . وتوغلوا في الاجم . وتبطنوا في الاودية . وتمكنوا في الاقنية . واحترسوا بالكمون . واحترزوا من العيون . وتحركوا على السكون . وكادوا يصلون الى الموضع . ويحصلون على المطمع . ويدركون الطلاب . ويهتكون الحجاب . ويعيدون الى الحصن روحه . ويأسون بعد اليأس جروحه . فعثر بواحد منهم بعض المتصيدين فتصيده . وقاده وقيده . واتى به الى صاحبه صارم الدين قايماز واستغرب من الافرنجي هناك الجواز ، فأخبره بالحال . وان بالوادي مكمن الرجال . فركب اليهم في اصحابه . والتقطهم من سرر الوادي

وشعابه . وركب الشجاع مسعود في طلب اولئك الاشــقياء . وانتشر الناس في تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج . ولا نجح راج . ولا عاش عاش . ولا حصل عاثر بانتعاش . فما شعرنا نحــن على صفد الحصار . والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله مــن الانصار . حتى وصل صــاحب قــايماز بــالاسارى مقـــرنين في الاصفاد . مقودين في الاقياد . وكان بهم مقدمان من الاسبتار . وقد اشفيا على التبار . فان السلطان مـا كان يبقــي على احــد مــن الاسبتارية والداوية . فاحضرا عند السلطان للمنية . فانطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما . وقالا عند دخولهما . وامام مثولهما . ما نظن اننا بعد ما شــاهدناك يلحقنا ســو . فعــرفت ان بقائهما مرجو . وانتظرت امر السلطان فيهما . وايقنت انه يبقهما . فمال الى مقالهما . وامر باعتقالهما . فان تلك الكلمــة حــركت منه الكرم . وحقنت منهما الدم . واستبشرنا بانعكاس ما احكمه الكفـر من التدبير . واتعاس من جردوه بالتدمير ٠ وفتــح الله علينا صــفد ثامن شوال . فشكرناه على ان مدد النصر متوال . وسلمت القلعــة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجــئنا الى كوكب . ووجــدناها في مناط الكوكب . كأنهــا وكر العذقاء . ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية . ونزعت بهــا ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية . وحمتها بحميتهما وابــت النزول على امنيتنا ولو بنزل منيهــا . واختــارت العــطب على العـــطاء . وامترت خلف الخلف والشقاق للشقاء . وابت غير الابــاء . وبصرت بالامر فصبرت على الضر . واصرت على تحمــل الاصر . وتــرامت على التعامي بالمصائب . وتعامت عن المرامي الصوائب . وقــالوا لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار . وخلصه الى الأبد من العــار . ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار . فنتجلد للاصطبار ٠ ونتشدد للانتظار . فقاتلوا اشد قتال . ونازلوا . احد نزال وفوقوا الجــروخ

المصمية . وصوبوا الصخور المردية ورفعوا المنجنيقات الموجية .
وتواترت زيارات الزيارات الموتره . وتناوبت ذوائب الزنبوركات
المطيرة . واجترأوا على الاجتراح وجرى سيل الجراح • ودمنا في
الدم . ورد الوجود الى العدم وتجرئه الرجال . والتجريد للقتال .
وايتار الحنايا . وايثار المنايا • والرمي في المنجنيق . والجمع
والتفريق . والرقع والتخريق . والنقب والتعليق . والحفر
والتعميق . والحصر والتضييق . وألهدم والرد والردم . والصد
والصدم . وكان الوقت صعبا . والغيث سكبا . وتكاثرت السيول .
وتكاثفت الوحول . ودامت الديم لدموعها مريقة . وبقيت الخيم في
الطين غريقة فلا لمركب مبرك ولا مربط • ولا اسالك مسلك ولا
مسقط . وكنا في شغل الشاغل من تقلع الاوتاد وتوتد الاقدام .
ووهي الاطناب ووقوع الخيام وكأن الخيم مناخل الانداء •
وعدمت الانوار لوجود الانواء • وفقد ماء الشرب مع سيل الماء •
والروايا ما نهضت . ولا نزعت ولا غمضت • والرواحل في الطين
باركه . والحياة فاركة . والعلاف تاركة . والمطية مطينة وسبل السيل
مستبينة • وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالذرد .
والطرق زلقة لزقه وهي مع سعتها ضيقة . وللمشق (٣٠) ثقل •
وللقلق عقل . وما ثم الامانيط بالطين • وصعب علينا بصعوبة هذا
الامر أمر اولئك الشياطين • فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان .
لتقريب وجوه الامكان • وبني له من الحجارة ما صار له
كالستارة • فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا .
والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا والنقاب قد قلع وعلق •
والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند . وانجد الجد .
ونزلت الاثقال والخيم الى اسفل التل . فحفت الثقل بنقل النقل .
وطاب المقام بالغور • وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين
وتحللت الى الطيب عقد الطين . وما زال السلطان ملازما للحصن .
وهناك ظاهرة له منه اسباب الوهن . حتى علق بعض جدرانه .
وطرق الهدم الى بنيانه . فتسلمه بامانه . واذهب سكون سكانه .
فاخرجهم راغمين . واحرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل ما
فيه . واصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معتفيه . وذلك في

منتصف ذي القعدة . وانتصفت الايام بحل تلك العقـدة . ورجعـت الليالي بالسكون الى طيب الرقده . وعرضت القلعة على جمـاعة فلم يقبلوها . وخلوها وابوا أن يلوها . وتخلوا عنها بهمم واهية فوليها قايماز النجمي على كراهية . بعزيمة عن مهـامها لاهية • وانتقـل السلطان الى المخيم بـالفضاء . وحمـد الله على قضـاء التـوفيق وموافقة القضاء . وودعه الاجل الفـاضل على عزم مصر بعـد مـا استكمل لنا مقامه بصدق الكلمة وجد اعتزامه الفتح والنصر، ثم تحول السلطان الى ارض بيسان • وأزال البـؤس • وزاد الاحسـان • واقام بقية الشهر في تمهيد مجد يقيم في باقي الدهـر . واظهـر مـن الفضل ما لم يكن مستورا، وأعطى الأمـراء والاجناد في إنفصـالهم دستورا . وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة واضـح المحجة لائح البهجة . وأوجها الى القـدس في طـريق الغـور وزارا للبركة • وتبركا بالزور • ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في قبة الصخرة وخص ذوي الخصاصة بعميم المبـرة • وعيد بهـا يوم الاحد الاضحى • واضحى بعد ما ضـحى ، وقـد اصـحب مـراده واصحى.وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظـر في مهـامها ونظـم أسباب أحكامها • وتدبير أحوالها . وترتيب رجالها • وأقام أياما يوضح الجدد.ويصلح ما فسد ويذشد من الذفع مافقد • ويخمد مـن الشر ماوقد • فاذا وجد شـعثا لمه . وان الفـى نشرا ضـمه . وان صادف فتقا وثقة . وان لقي حقا حققه . وان عثر على بـاطل عفـى اثره ، وان بصر بأمل خصه بعرفه وآثره.ثم ودعه اخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكا موفقا في مورده ومصدره • فما عبر ببلد الا قوى عدده • وكثر عدده وواصـل بالرجال مدده • وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبنى الامكان ، والحمد لله الذي وفر حصـة الصحة وحول المحنة الى المنحة وكمل الشفاء بعد الاشـقاء واهـدى عند اليأس أرج الرجاء .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكا مقيم والامر مستقيم • والنهج قويم . وهو يبوب اسباب حفظها • ويسبب ابواب حظها ، ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب • مناجحها . ويعدل جوانح امورها . ويذال جوانح جمهورها ، ويقوي ما وهي • ويسري ماهوى ، ويحلي من الشان ما عطل ، ويعلي من المكان ما سفل • ويعيد نظم ماانتكث • ولم ما تشعث ، ويجيد كل مادعا إلى بعث مامات منه وبعث • ومكث بها لايريم القصر إلى ان وصل جماعة من مصر ، فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة • فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور ، واحكام احكام الامور . وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا واليا ، ولم يزل لآثار الدولة في ايثار العدل تاليا . ثم خرج السلطان وسار على طبرية • ودخل دمشق مستهل صفر . وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر • وعز من آمن وذل من كفر • وحزب ألهدى قد انس ونفر الضلال قد نفر ، وجلس على سرير السرور • ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر واقام سفور بشره للمقيم والمسافر . وأفاض الفضل • ومحا المحل • وأعلى أعلام العلماء • واحلى احلام الحلماء • وأمضى أحكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء • واسدى المعروف واعدى الملهوف • وانكر المناهي ، ونهى عن المنكر، وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر • واقام مدة الشهر . واولياؤه جناة النصر واعداؤه عناة القهر ، وايامه مسفرة ولياليه مقمرة، ومغارس اياديه ثمار المحامد مثمرة • ومجالس اعاديه في ديار الشدائد مقفرة • والملك بزهوه زاه زاهر • والدين ببهائه مباه باهر والافاق منيرة والانوار مفيقة • والدولة حق مدال وحقيقة والجاه وافي جده وللجود وفي عهده وللسماح سماء تهمع.وللمراد مراد يمرع وللوجود بالبشر بهجة ، وللالسنة في الشكر لهجة • وللشريعة شرعة

واضحة وللحق سنة لستر الباطل فاضحة • والصنائع راجحة والذراع ناجحة .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد عدة الدين ابي نصر محمد ابن الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد امير المؤمنين

بتاريخ اوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر الجلالة ، ومربع الامامة • وموضع الكرامة • ومطلع الهدى ومنبع الندى • ومشرق نور الايمان • ومشرع فيض الاحسان • ومرجع المرجين • ومفزع الملتجيين ومنجي الناجين • ومنتجي المناجين ومهبط الوحي • ومصعد الامر والنهي • ومقصد نجاح السعي ، ومخفض جناح الرحمة • ومقطف جني النعمة • ومجر ذيول المناقب • ومجري سيول المواهب • ومزار املاك السماء • ومدار افلاك العلاء • ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض • وموطن التنزيل . وموطيء جبريل ، ومقام الخلافة . ومرام الرآفة . ومحمل الامانة .ومحل الديانة . ومطاف الطائفين . ومعرف الواقفين . وموقف العارفين.وقبلة المقبلين . وموئل المؤملين . وكعبة القاصدين . ومثابة الوافدين.ومعفر وجوه العظماء . ومكفر ذنوب الكرماء . ومعصب السيادة القرشية . ومنصب الوراثة النبوية والسدة الشريفة الناصرية . ودار السلام . وقبة الاسلام . فابتهج السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السول . وسر سره . وأبر بره . وصدر بنشر الانشراح صدره . وقدر على الاتسام بالتسامي قدره . واحتفل بأسباب التلقي قالحتف باثواب الترقي . وسأل عن الرسول المندوب . السؤل المخطوب . فقيل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه . وصل بالضياء والسكينة . والاحوال الحالية المزينة . وكان وزير الخلافة يومئذ معز الدين بن حديده • فعين لهذه الرسالة ابن سكينة حين عرف

اراءه السديدة • فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان واولاده •
وكان يوم مشهودا حضره أعيان البلد ماثل العسكر واشهاده •
وانزله في دار الكرامة . ورتب له وظائف الاقامة • ثم جلس له في يوم
سعد صباحه . وبدت في جبهة الدهر البهيم غرره واوضاحه . وملات
طرفي الزمان والمكان افراحه • وجاء على وفق الآمال اقتراحه .
وختم باليمن والاقبال رواحه . وورد بكل ماابهج الاولياء • وأزعج
الاعداء . وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه • وثنى
عطف تباهيه وهزه . ورسا له طودا بالوقار في ايراد الرسالة .
وجلالة في مهب المهابة انوار الجلالة . وتلفظ له بالتفضل . وتطوق
منه بالتطول . وبشر بان امير المؤمنين فوض ولاية عهده • الى ولده
عدة الدين ابي نصر محمد من بعده • واخذ بذلك العهد على من
حضره من اعيان الامة . وحفظ عليهم بتوليته ماأولاهم الله به من
النعمة . واستظهر بما خص به من هذه المرتبة • وامر بذكر اسمه
ونقشه في الخطبة وعلى السكة . وعاد الاسلام به ظاهر الشوكة .
والشكة.وخطبنا لولي العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر .
ولم يبق من الامراء والاماثل والافاضل إلا من حضر • واحضر معه
الدنانير ونثر • وتولى ذلك الملك الافضل فاظهر ابهة ملكه وبهاء
فضله . وحصل الاسلام من ري رأيه على نهله وعله . وندب
للرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين الشهر زوري القاسم بن
يحيي . ليذشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيي . وسيرت
معه الهدايا . والتحف والطرف السنايا . وأسارى الفرنج
الفوارس . وعددها الكوامل النفائس . وتاج ملكهم السليب
والصليب • والملبوس والطيب • واضفيت على رسول الامام ملابس
الاكرام . وقفل ناجح المرام . واصطحب الضيآن لاضاءة مطالع
الايمان . بسفارة سافرة عن سني الاحسان . وبشارة شائرة جني
النحل من نحل الجنان . واهتزت الاعطاف . واعتزت الاطراف •
وابتسمت ثغور الثغور لسدادها . وانتظمت امور الجمهور
لسدادها . وسرت القلوب . وسريت الكروب . وخزي الحاسد
الحاشد . وقوي الساعد المساعد . وواصل في طريقة الاغذاذ . حتى
وصل الى بغداذ • فتلقي الرسول بالسول • وقوبل بالقبول .

وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيأة يوم قراعها . راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها . وادراعها . وقد نكست بذودها واتعست اذوفها . وهيئت على هيأة فتوحنا حتوفها . ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها • ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها . والفى الوزير ابن حديدة قد عزل . وأقام في بيته واعتزل . وتصدر في الدست للنيابة . وسماع الخطاب والاجابة . من له المجد الاثير:الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء . وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء . فتولى سماع الرسالة وجوابها . وأولى صوبها ووالي صوابها . وسياتي في موضعه ذكر ما انهت اليه الحال . وجرى به القال . وكيف شغلت العوائق وعاقت الاشغال .

فصل مما كتبته في المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال . وأداه من فرض الاعظام والاجلال . وقام به من الامر الذي قام بـه أمـر الدين والدنيا . وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في إزكاء مغارسها السقيا . وحل حبا الحب لما حل من حبائها • وعقد خنصر النصر لعزائمه على مااعتقده من ولائها . وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها . واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها • ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين • وابرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووثق لما وافق المراضي الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا . واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده • وافتتح فريضة طاعته في حلاوة

عبوديته بتلاوة فاتحة حمده . وأنهى الى نهـاية النهـى • وأطـاع ماأطاق فيما أمر الله به ونهى• وماوضع الكتاب من يده حتى رفـع بالدعاء يده . وسأل الله لمولانا وسـيدنا أمير المؤمنين وافـد النصر ومدده • وان يعضده بولده ولي عهده المطـاع بـأمر الله عدة الدنيا والدين • ويقر به عيون المسلمين . فقد فاضت البـركات . وآضـت الحسنات . وأضاءت الكرامات • وراضت جماح الاماني المبـرات المبرات . وهاضت جناح الكفر الفتكات المرديات . وعمت الميامـن . وتمت المحاسن . وتمت النعم الظواهر والبواطن . وضمت بسـكون الدهماء اهلها المعاهد والمواطـن . وصـدحت المنابـر . وصـــدقت المفاخر . وصدعت الأوامر . وصدفت الفواقر . وصدمت قلوب أهـل النفاق من بواعث الرعب والبـواعث البـوادر . ونقشـت صـفحات الدرهم والدينار .ونعشت عثرات الاخيار الاحرار . وفرشت مفوقات الاذواء والاذوار • وعرشت اسرة المبار والمسار . ورفعـت رغبـات الابـرار • وسـمعت دعوات الاسـحار . ونزل النصر . وفضـل العصر • ووجب الشكر . وشجب الكفر . ورحب الصدر • واصحب الدهر • وسحت سماء السماح . وصـح ارواء الارواح . وتضـوع نشر الانشراح • وتوضح صباح الصلاح . وطـال جناح النجـاح . وطاب جني الافراح . وعظم القدر . ونظم الامـر . وحسـن الذكر . وأمن الذعر . واهتزت اعطاف الاسلام . واعتزت اطراف الشـام . وتبلجت ايا من الايام . وتروجت امـاني الانام . وأرجـت أرجـاء الرجال • وثبتت باسناء الاسناد رواية أمالى ري الامـال . وقـرت الأعين وابتهجت بالسعد الطالع • وأقرت الألسن والتهجت بـالحمد الجامع . وقرت الأنفس وانتهجت بوسعها سنن العـز الواسـع • ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشـارع في نفـع الأوام (٣١) ونقع الانام مناب المنابـع • وأرخـت السـير وسـيرت التواريخ • وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمهـا وتضـخيمها التضميخ . واشرق المغـرب مـن بشر البشرى . وانارت مصر مـن حسن هذه الحسنى . وبسـمت بسـمة الشرف منابـر الاقـاصي والأداني . موافقة لمنبـر المسـجد الأقصى . وتـطرزت الفتـوحات الفاضل عصرها • الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب . وفاحت في

مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب . وعاد الزمـان الى اعتداله . وعاذ العدل بزمانه . وتاب الدهـر مـن عدوانه . وآب إلى احسانه . ورجع الدين إلى سناء سـلطانه . وفجـع الكفـر بعبدة صلبانه . وبطش الايمان بايمانه . واستخلص مـن الشرك بلدانه بلدانه . وتقاضى الربيع بقروضه . وضافت ضيوف فيوضه . وعتـب العزم على ربوضه . وحض الخط . على نهوضه . وحث الحب على اقامة سـنن الجهـاد وفـروضه . فقـد درت افـاويق الآفـاق . وذرت أشـعة الاشراق . وافتـرت نضرة الحدائق لنظـرة الاحـداق . وراقـت أوراق الألوية كالتـواء الأوراق . وأزهرت البيض والسمر كازهـار الرياض . وأنف غرار الجفون في الاغماد من الاغماض . وتيقـظت الاقـدار للاقـدار على ايقاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطلول . وتنزل البـركات في انتجاع المراق مـن تجيع المارقين لا تـزال نص النصر على النصـل المسلول . وقـد آن ان تـرعى الحشـاشات منهـم على رعي الحشيش . ويطير الى اوكار المقـل طير السـهم المريش . وتـرتع ثعالب العوامل في عشـب الكلى . ويطـن ذبـاب المناصـل في لوح الطلى . وترن رقـاق المرهفـات في الرقـاب رنين الخـطب على الأعواد . وتذوب قلوب علوج الكفر مـن نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد . وتحمـل اشـجار القنا بثمـر الهمـام . ويجيش الفضاء المعشـب بـزهر الجيش اللهـام . ويقـطف ورد الموت الأحمر . من ورق الحديد الاخضر . ويوقـف حـد الهندي الأبيض على قصر بني الأصـفر . ويجـري في ورد الوريد جـداول البواتر . وترمي من الحصون العاديات الى حصـون العـدا جنادل الحوافر . وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضـافر ضوامن الضوامر . وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر مـن عقبـان الجو بالفتخ الكواسر . ويعبق ثوب الدارع من ردغ الثـواب بسـهك الماذي . وتعلق في ملتقى التقـي الفـات السـمهري . بـلامات السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل . ويحل بأيدي الأيد ما بقي مع الفرنج من معاقل المعاقل . ويغرق بحر المجر الجرار مـا تخلف

من ساحات الساحل . فلم يبق بـه مـن المدن المنيعـة الا صـور وطربلس . ومعالم الكفر بهما في هذه السـنة المحسـنة بعـون الله تدرس . وأما انطاكية فانها بالعراء منبونة . وعند الاتجـاه اليهـا مأخوذة . على أنها بوقم قومها عام أول موقونة . وحدود العـزائم اليها عند انقضاء هدنتها مشحونة . فـانها قـد نقصـت مـن اطرافها . ودخل عليها من اكنافهـا . وجـدعت بفتـح حصـونها عرانينها . وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيهـا عرينها . فهي نهـزه لمفتـرض . وطعمـة لمقتنص . وسـلعة لمسترخص . وبلغة لمستفحص . وقد خرج الخادم ليدخـل البـلاد . ويستأنف بجهـده الجهـاد . ويسـتقبل الربيع بـربيع الاقبال . ويستنزل ملائكة النصر مـن سـماء الرحمـة لأوقـات النزال . وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان ينجـد جند ارضه بجند سمائه . ويوفق الخادم لتصديق امله في تـطهير الأرض من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فـالجحافل حافلة . واسراب الكفر بين يديها جـافلة . ومعـاطف الاسـلام في لباس البـاس رافله . ونصرة الله بـانجاز عدائه في قمـع عداتـه كافله . والحمد لله الذي وفق عبـد مـولانا أمير المؤمنين في طـاعته لنصر أمره . وإخلاص الولاء في سره وجهـره . واقتناء كل منقبـة حقق بها فضل عصره . وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما يفتح مرتجا الا بتقليدها . ولا يستنجح مرتجى الا بتأييدها .

ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف ارذون وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر في دمشق . وقد اطاب لمناشق الآمال من نشره النشق . ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الاول يوم الجمعة . بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعه . متوجها الى شقيف ارذون . ليقر بفتحه العيون . ويصدق في استخلاصه الظنون . وأتى مرج برغوث . وأقام به الى يوم السبت حادي عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث . ثم رحل على سمت بانياس . وقد اوقع رعبه بين اهل الكفر البأس . وأتي مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف . وجمع على من به من آلات الحصار اسباب التخويف . وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول في أواسط فصل الربيع . وأقام في ذلك المرج الوسيع . والروض الوشيع . وأسمنا الخيل في اعشاب واصية . ورتعنا في الطاف من الله دانية غير قاسية . وكان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط .وقد أكمل في حفظه الاحتياط . فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا . ولأمره سامعا . ولرضاه تابعا . وفي موضعه شافعا . وعلى حصنه خاشيا ولأجله خاشعا . وسأل ان يمهل ثلاثة اشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من اهله ، وأظهر انه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله . وحينئذ يسلم الموضع بما فيه . ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه . ويخدمه على اقطاع يغنيه . وعن حب أهل دينه يسليه . فأكرمه وقربه . وقضى اربه .وأجابه الى ما سأله . وقبل منه عزيز ما بذله بذله . وأمهى (٣٥) غرب رغبه وأمهله . وأخذ له وما خذله . وخلع عليه وشرفه . ورفعه في ناديه بنداه وعرفه . واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه . ووجد اليه سكونا وعنده سكينه . فشرع ارناط في ازالة حصنه ، وازالة وهنه . وترميم مستهدمه . وتتميم مستحكمة . وتوفير غلاله . وتوفية رجاله . وتدبير احواله . وتكثير امواله . ونحن في غرة من تحفظه . وفي سنة من تيقظه . وفي غفلة

من حزمه . وفي غفوة من عزمه . وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميرة . ويكثر فيه الذخيرة . وقد صدقنا كذبه . وحققنا اربه . وانهي الى السلطان ما هو مشتغل به من عمارة يجدها . وذخيرة يعدها . وثلمة يسدها . وقوة يشدها . وميرة يستمدها . وكان بالمذكور سديد الظن . شديد الضن . لا يقبل ما فيه يقال . ولا يظن به عثورا يقال : فلما كثر فيه القول . وتمكن من مسألته العول . لم يرد ان يبدي له ما قيل . ولم يصدىء بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج الى سطح الجبل . وتحويل الخيم اليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم . والمقيم به سقيم . وأم الدهر فيه بالصحة عقيم . وكان المقصود ان الشقيف من عيانه يقرب . واخباره عنه لا تعزب . فلما علم صاحب الشقيف بقربه . شرع في ازالة ما في قلبه . وجاء الى الخدمة . واستمسك بالعصمه . وذكر انه متعزز ببذل الطاعة . وببذل الاستطاعة . وتضرع خاضعا . وتعرض خاشعا . وذكر انه تخاف له اهل بصور . وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وانه يترقب وصولهم . ويأمل عنده حصولهم . وشرع في تقرير هذا الحديث . وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده الذكير الذكيث . واقام بوما وعاد الى حصنه . وقد وجد من السلطان دلائل امنه . وكانت المدة قد دنا انتهاؤها . وقرب انقضاؤها . فانها الى آخر هذا الشهر . ولم يجد بدا من التسليم او الغدر فعاد بعد ايام . باكتئاب واغتمام . وحضر عند السلطان فقال ما اظهر به الابتهال . واستزاد الامهال . وذكر انه رقيق الامتنان . وعتيق الاحسان وانه العبد القن . وقد دخل عليه الوهن . وغلق به الرهن وانه يبقي أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومن انشأ غرسا سقاه فأبقاه . وأشكاه فأزكاه . وأسماه فانماه وقد اصطنعتني ورفعتني فلا تضع الرفيع . ولا تضع الصنيع . وسأل ان تكون المده سنه . وان يتبع الحسنة في حقه حسنه . وان يرخي بطوله طوله . وان يشفي بشفاء آلمه أمله . فراقه قوله . فرق له طوله . ثم افكر في أمره . واستمر في فكره . فغادر على عزيمة

غدره . وجاهر بسر شره . بعد ان ماطله وطاوله . وزاوله على ما حاوله . وأقام اياما يردده . ويخصه من الكرامة بما يجدده . ثم كشف له الغطاء . بعد ان أجزل له العطاء . وقال له قد قيل عنك ما لا نظنه فيك ولا نعلمه منك . فجحد ما عنه رقي . وانه كيف يلاقي بالكفران ما من الانعام لقي . وأنه لم يسعد بامهاله في الشقيف شقي . ثم سأل في ندب من يوثق بأمانته . ويؤمن الى وثاقته . ليدخل الموضع ويلمحه . ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه . وذكروا أن الحصن قد غيروه . وانه قد استجد في سوره باب . واستمدت له من احكام احكامه اسباب . فاستحكم به الارتياب . وعرف ان السرح قد حوته الذئاب . فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم . وقيل لعله يحسن فلا يحوج الى عقابحته ويسلم . ثم قيل له قد بقي يومان من المدة المضروبة . والمهلة الموهوبه . فتقيم عندنا حتى تنتهي المدة وتنقضي . وتسلم الحصن وتسلم وتمضي . فأبدى ضرورة وضراعه . وقال سمعا وطاعه . وكان له ملقى وملق . وفي لسانه زلق . وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال انا انفذ الى نوابي في التسليم . وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم . فأظهروا عصيانه . وقالوا يبقى مكانه . فقال قد بقي من المهلة يومان فماذا العجلة التي يفوت بها الغرض . ويطول منها المرض . فصبر عليه الى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة وهو آخر مدته . وأول شدته . وأوان انقضاء عدة عدته . وقد رتب على الشقيف يزك يمنع الخروج والدخول . والصعود والنزول . ويضايق غريمه المطول . قبل ان يمتد حصاره ويطول . وحمله جماعة من الامراء ووقفوا به ازاء حصنه . فناداهم في درك امره . وفكاك رهنه . فخرج اليه قس قاس . بأسرعن باس . فحادثه في حادثه بلغته . ونافثه في كارثه بغلته . وتحاورا في السر . وتشاورا في الشر . وكأنما امره بالتجلد . وصبره على التشدد . وعاد القس الشقي الى الشقيف . وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف . فقيد وحمل الى قلعة بانياس . وبطل الرجاء فيه وبان الياس . ثم استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ في تخويفه . على

ان يبلغ المراد في شقيقه . فلمـا لم يفـد خـطابه . ولم يجـد عذابه . سيره الى دمشق وسجنه . وألزمه شجاه وشجنه . وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبـل يوم الاربعـاء ثـامن رجـب لمحاصرة الحصن . ورتب له عدة من الأمراء . وامرهم بمـلازمته في الصيف والشتاء . الى ان تسلمه بعد سنة بحـكم السـلم . وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمـرج عيون مـن الاحوال وماكان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص مـن الاسر ، وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر . وقد تـواصلت الينا امداد البحر . فثربنا للثار ، وأعرنا من هذا العار . وجاء من كان بطرابلس وخيمـوا على صـور . وفـارقوا بـالاستطالة القصـور . وجـرت بين المركيس المقيم بهـا وبين الملك مراسلات . وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمـكنه مـن دخـول البلد . ولج معه في اللد . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر . وانه منتظر لما يبرمونه من الأمر . ويصله من الأمـر . ثـم اتفقوا على ان يقيم بصور المركيس . ويدوم منه لملكهـم التـأسيس ولملكهم التأنيس . وانهـم يجتمعـون على حـرب المسـلمين وقتالهم . يتساعدون علي رم ما تشعث من احوالهم . ويتعـاقدون على حل اشكالهم . ويتعاضدون في تسديد اختـلالهم . ويقصـدون بلدا اسلاميا من الساحل . ويقيمون عليه بالنوازل اقـامة المنازل . والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد . وبجميع مـا يحتـاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي . وبلغوا في الغى الي هذه الغـاي . وشرعوا فيمـا شرعوه . وفـرعوا ذروة الأصل الذي فرعوه . ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمـادى

الاولى من اليزك . ان جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر الى المعترك . وانهم على قصد صيدا للحصر . وقد جسروا على عبور الجسر . فركب السلطان في الحال فيمن خف من ثقال الرجال واقتال القتال . وأطلاب الابطال . وانجاد الاجناد . واجلاد الجلاد . والباذلين المهج للجهد في الجهاد . ووصل الى الملتقى والشغل قد فرغ . والسيل قد بلغ . والصدمة قد وقعت . والوقعة قد صدمت . والثورة قد ثارة . والسورة قد اسأرت . فان اليزكية لما شاهدت جاهدت . وتعاقدت على لقائهم وتعاضدت . وخالطتهم . وباسطتهم . ووا قحتهم ووا قعتهم وجالدتهم وجاولتهم وجاردتهم وحاولتهم وردتهم مفلولين مخذولين . وصدتهم منهزمين مثلومين . وقسرتهم وكسرتهم واسرت سرانهم . وبزت بزاتهم . وقنصت عقبانهم . وقصمت شجعانهم . وصادت صيدهم وفرست فرسانهم . ووقع في الاسر من سباعهم سبعة . وغودرت للنسور من اشلاء المارقين بالمازق شبعة . واستشهد من المماليك الخواص ايبك الأخرش . وقد كان شهما بالوقائع يتحرش . وثبتا بالروائع لا يتشوش وانيسا بالحوادث لا يتوحش . وكميا كميشا بالكوارث لا يذكمش . وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان . وكانت الدائرة على اهل الشرك والطغيان . وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك . وقال لعلهم يعودون الي ذلك المعترك . فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم . وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم . واقام الى يوم الاربعاء تاسع عشر الشهر . والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوي الظهر . وركب في ذلك اليوم . ليطلع من الجبل على القوم . ولم يكن له نية القتال . فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال . وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه . وظنوا ان السلطان انما ركب للقتال وعلى عزمه . وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه . ثم ظنوا ان وراءه عسكرا في الكمين يحميه . ونفذ السلطان بعض الأمراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا . وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا . وختمت بشهادة اولئك السعداء تلك العشية . ونفذت من الله في استشهادهم

المشية . وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة اردتهم وردتهم . وصدقهم عن الجرأة وصدتهم . وتزاحموا على الجسر . فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يوما علينا ولنا . جنى المنا واجنى املنا . والحرب رجال . والحرب سجال . ولم يكن لأولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه . واقدامهم على العدو له قربه . فخاضوا من الدم في اللجج . واعتاضوا الجنة من المهج . وممن لقي الله بالشهادة . وختم له بالسعاده . الامير غازي ابن سعد الدولة مسعود بن البصارو . وكان شابا لنار الحرب شابا . ولدين الرب رابا . ولما شاهد ما تم من الغزاة . انقض في اصحابه على الفرنج انقضاض البزاه . فدعته جنته . الى طعنة لبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده . وكدرت عليه موارده . وأوجد جمعنا الأسى على فقد ذلك الواحد . وساء عدم الساعد . وبتنا نشكر مساعي ذلك المساعد . وضاقت القلوب . وفاضت الكروب . وألم البوس . وألمت النفوس . وهذه وقعة ندرت . وواقعة بدرت . ونذير حدث وحادثة انذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ اصيبوا غير هذه الكرة . واذاقونا بعد أن حلا لنا جني الفتوحات مرارة هذه المرة . فايقظتنا من رقدة الغرة . وأخذ الناس حذرهم . ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا الى الله وقالوا بهذا وعد الله حيث قال : (فيقتلون ويقتلون) (التوبة ١١١) وعباده هم الذين يتبعون امره ويمتثلون . ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم في مخيمهم . وكبسهم في مجثمهم . وعبور الجسر اليهم . والاحداق بهم من حواليهم . وشاع صيت هذا العزم وصوته . وسارع الناس الى موسمه . وخشي فوته . وتسامع اهل البلاد . بتصميم عزيمة الجهاد . فتباشروا وتبادروا . وتسابقوا وتسارعوا واتوا من كل فج . وجاءوا من كل نهج . وسالوا في كل واد . وجالوا في كل بقاع ووهاد . ووافت مطوعة دمشق وحوران . يجرون الى مر الموت. ويجرون المران . وتوافد من بالمرج والغوطة . على الحالة المغبوطة . وقالوا هذا اوان احضار الضوامر المربوطة . واجتمعت بمرج عيون . جموع مرجت العيون . فخافت الفرنج من هذا الجمع . وانافت على القمع . وتعكست الى سور

صور . وعاين اولئك البور البذور . وتحرزوا وتحرسوا . وتـوجلوا وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم . ليتمـكن على غرتهـم حشدنا من حصدهم . وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى تبنين . صـــبيحة يوم الخميس الســـابع والعشرين . لتفقـــد احوالها . وتأمل اعمالها . وعرض رجالها . ثم سار منها الى عكا جريدة . ورتب في عمارتها وولايتها احوالا سديدة . ووصى رجــالها بالاحتياط والتحفظ . والاستظهار والتيقـظ . واسرع عودتـه الى المعســكر . عظيم المفخـــر كريم المعشر . مـــــوفق المورد والمصدر . مقرظ المنظر والمخبر . وأقام الى يوم السـبت ســادس جمادى الآخرة . وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخرة .

ذكر ما تم من استشهاد عدة من امراء العرب

وانتهــى الينا ان الفـرنج ينتشرون في الارض . وينبســطون في مـوضع القبض . ولايتحفـظون في الرفـع والخفض . ويحتــطبون ولايحـــاطون . ويحتشـــون ولا يختشـــون . ويجذون ثمـــار الحيل . ويجذون على ما يصادفونه بانواع الغيل .وهم في غرة مـن غاره . وفي جسارهم تعـود عليهـم بخســـاره . وفي غفلة تجـــر عقله . وفي ضله ترفع عليهم من العـذاب ظله . وانهـم اذا خـرجوا للاحتشاش والاحتــطاب . وانتشروا لضـــم الاعشـــاب مـــن الشعاب . خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد . وتحفـظهم مـن متعد . ونفذ السلطان الى خيل تبنين . وامرهم بأن يصبحوا اولئك الملاعين . فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصـلت بهـا الكمين . وذلك يكون في صـــباح الاثنين ثـــامن الشـــــهر المذكور . وواعدهم على هذا السر المستور . ونفذ الى عســكر عكا ليكمن في موضع عينه . ولا يظهـر مـكمنه . حتـى يكون مـن وراء القوم . مستعدا لما ينالهم من الوقم . وسار الســلطان ليلة الاثنين على الموعد .مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد اغارت واثارت وابرت وابارت . فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها . وعين اليزكية

واوقظ عينها . ورتب ثمانية اطـلاب مـن الابـطال . وكمـن بتلك الارجاء كماة الرجـال . وانتخـب مـن كل طـالب عشرين فارسا اجوادا على الجياد .واجلادا في الجلد على الجلاد . فامرهم بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم . وهـم يفـرون قدامها . ولا يقرون امامها . ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها عليه . ويوا قعونها اذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به امروا . ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا . وانفـوا مـن ان يقـال عنهـم فروا . بل جالوا فيهم وكروا . واتصل القتـال وا شـتد . واحتـدم المصال واحتد . وطال زمان الحـرب وامتـد . وطـارت جمـرات الصفاح . وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البـرى . ودارت عثرات الثرى . وانحلت عرى اللمم .وانحـطت ذرى القمـم . وعدم كل قرن قراره . وكل جفن غراره . ودام نهارنا يجري بانهار الدم انهاره . وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسـد قـد اعتركت . وان البرك قد ارتبـكت وابتـركت . فتـواصل انجـادا للانجاد . وترا سل امدادا بعد الامـداد . فلمـا رأى العـدو ان المدد يكثر والعدد يكثف . وان عساكرنا لا تتـوقى ولا تتـوقف . صـمم العـزيمة . على الهـزيمة . وعلم ان النجـاة عين الغنيمـة . فثنى اعطافه . وضم اطـرافه . ورد احـلافه . وجـرت بين الفـريقين مقتله . عادت ارض المعركة بها وهي مذقلة وكان قد حمـل العـرب على وعد العود الى الكمين . والرجوع الى أسد ذلك العرين . ولم يكن لهم بالطريق خبرة . ولا عبـرت مـن الطـوارق بهـم عبره . فتطاردوا بين يدي الفرنج في واد ما له نفاذ . ولا لسالكه الى منهج ملاذ . ورآهم العدو فعـدا وراءهـم . وسـار بجمعـه ازاءهـم . فلمـا انتهـوا الى الجبـل ادركوا . ولم يقـدروا ان يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا . واقبلوا على الله فقبلوا . وهـم الامير زامل بن تبل بن مـرى بـن ربيعـة امير الذقـره . وسري الاسره . والامير حجي بن منصور بن دغفل بـن ربيعـة . والامير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرى بن ربيعة وآخر معهـم . فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع . وقدر لهـم في رياض النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز . وانتقلوا مـن العـز

الفاني الى الباقي من العز . وكان معهم من المماليك الخواص . من ذوي الجد والاخلاص . تركي عربي النخوة . غضنفري السطوة . فلما حصل في المضيق . وأيس من الطريق . نزل عن فرسه على صخرة بنحوه . ونثل بين يديه كنانته . فارعا لذروه . وقد اوتر قوسه وسدد اليهم سهمه . وقبل قضاء الله وحكمه . وحن الى منيته من حنيته . واصاب منيته من اصماء العدو في المصاب بامنيته . فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه . ومازالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا انه قضى نحبه . فأصبح .وقد نزف دمه ، وترجح على وجوده عدمه ، ولما قيل انه استشهد وطلب ليلحد ، رمق وبه رمق ، وهو في دمه غرق ، فحمل على أنه من الأموات ولم يرج له فوات الوفاة ، فأحياه الله بعد ان أماته ، وجمع أعضاءه عليه وقد شارف منها شتاته ، وأنشأه خلقا جديدا ، وأوجده في أجله مزيدا ، وهو أيبك الساقي زاده . ماجرى اجتراء على الاقدام ، واجراء الى مضمار الحمام ، فما سمع بعد ذلك هيعة الا طار اليها ولاأبصر للكفر ضيعة الا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج الى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها

وصل الخبر يوم الاربعاء ثامن رجب ، ان العدو قد ركب ، وأجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودب دباه في رجله ، وسرحت ذئابه ونجت كلابه ، وجاش عرام جيشه العرمرم ، وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ، وذوى القرب من الذواقير ، وأضرم بنار السعير مساعي المساعير ، وهو على قصد عكا يجري الى المدى برأي جمعه المدامير ، وأن ذفرا منهم ذفر ، وسبق الى الذواقير وعبر ، ونزل باسكندرونة ، واستباح طرقها المصونة ، وهناك من المؤمنين رجال يجمون طرف الثغر ، ويضمون نشر الأمر ، ويصمون نحر الكفر ، ويجبون غارب

الشر ، ويجوبون جانب البحر ، ويطوفون للحراسة ، ويطاولون بالحماسة ، فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها وعاقروها وقارعوها ، وأهلكوا عدة وملكوا عدة ، ولما تكاثرت أعداد الاعداء ، استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء ، وتدافعوا بعدما دافعوا ، وتراجعوا بعد ماراجعوا ، واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور نفرهم ، فكتب الى العساكر الدانية بالدنو ، وللعدو على العدو فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوفروا للجهاد ، وتوافقوا في ابناء المراد بابعاد المراد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد . وافرة العدد ، ونزلت على عين بصة ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة.

ووصل اوائلهم الى الزيب . واجابوا داعية الصليب ، فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ووصل العنق بالذميل . وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة في الاودية جري السيل ، وسرنا على جب يوسف الى المنية ، آخذين بالحزم تاركين للونية . وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ، وبتنا بها تلك الليلة وسكنا ، ثم اصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبة . واطلع منها على الاسرار المحجوبة ، واشرف على العدو النازل ، ودنا حزب الحق من حزب الباطل ، وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، والفرنج مقابلين مقاتلين ، فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ، ونزلنا في ارض صفورية بالاذفال ، وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال ، وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ، ولم يزل رأيه بذور فطنته وطيب فطرته أذكى وأزكي ، ان يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم ، واتعب قتالهم . واذا نبتوا تعذر حصدهم ، واذا ثبتوا تعسر قصدهم . واذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، واذا خلقوا في جو الدو طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له بل نستقيم على السنن

القويم ، ونطالبهم طلب الغريم ، ومااهـون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا أقبلنا ، والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التـطاول فيه عذر ، فنمضي على اسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق ، وتبين لنا بالعافية ان الرأي السلطاني كان أصوب فان نزالهم عند نزولهم صار أصـعب ، ونزل الفـرنج على عكا مـن البحـر الى البحر ، محتاطين بالانحصار . محيطين بها الحصر . وضرب الملك العتيق كي خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه ، وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكا بعثا دخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث اليها التـي هـي على التزايد والنمو ، حتـى اسـتظهرت بقـوتها . وقـويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر . واتصلت بالاوائل الاواخر . كي جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا ، وسار بهيأته وهيبته ، وانزل العسكر على تعبيتـه ، ونزل بمـرج عكا على تـل كيسان في ذوي اختصاصة ، وقـد نصـب مـن خيامـه عليه اشراك اقناصه ، وامتدت الميمنة الى تل العياضـية والميسرة الى نهـر الماء العذب ، فدارت رحى الحرب ودام كر الكرب ، وطاب طعـم الطعـن والضرب ، وطـافت كأس البـأس بمـدام الدم على الشرب ، ووافى للأنجاد عسكر الشرق ماضي الغرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين مكابرين للمكابرين ، قد أحـطنا بـالعدو وهـو بـالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط ، واحدقنا بـأولئك الكفـرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطـرق مـن ورائهـم في وعرهـا وسـهلها ، ورتبنا بـالزيب والذواقير رجـالا يصـدونهم عن سبلها ، ودمنا نصـابحهم بـالقتال ونمـاسيهم ، ونرا وحهـم ونغاديهم ، ونعـاودهم ونبـاديهم ، ونقـدم بعـوادينا على عواديهم ، ونصـدهم ونصـدمهم ، ويوجـدهم البحـر ونعدمهم ، ومازالت مراكبهم تتواصل . ومناكبهم تتطاول ، وأهـل الجزائر من أهل الجـزائر متـوافرون متـوافدون ، متـرادفون مترافدون ، قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجـذبوا بـالقلوس على ثجبه عران الرعن ، والقوا على تياره بسط البـطش . وحملوا على البحـر أوزار النجس . وتبـالهم وتعسـا . فـانهم زادوا على

رجسهم رجسا ، وبقي القتال بينهــم وبين اليزكية ، كل بــكرة الى العشية ، الى أن وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ، ومــظفر الدين كوكبوري الأسد الغضــنفر ، فــاستظهرنا بهمـــا وبعســـكرهما الدهم ، ووصل مقدموا الرجال في الجمع الجم ، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بـــالمركز ، وزادوا مـــن جـــانبنا في التحـــرس والتحرز ، ومنعوا مــن الدخــول والخــروج ، ولج اولئك العلوج في ضبط طريق الولوج ، وذلك في يوم الأربعاء والخميس آخــر رجــب لانسلاخه ، والاسلام ينادينا باستصراخه ، وأصبح الســلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته ، واستقلت آياته ، وعز عزمه ، وعلا حكمه ، ومـــامنا الا مـــن اسرج الجـــرد وجـــرد السريجيات ، وعاج بـــالاعوجيات . واشرف بـــالمشرفيات ، وبـــرز بـــاعتقال الردينيات ، ورديان العقيليات ، وأزكى المذاكي وقـــرب المقربات ، وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه ، وساف سـيفه ردع الدم ، وضـــاف جـوده مضــــيف العــــدم ، واقبلنا والنصر مقبـــل ، والظفـــر متهلل ، والميمنة والميسرة بـــــاليمن واليسر ممتدتان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان ، واتفقــت الآراء واجمع الامراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبــول الدعوات المرتفعــة ، ومناب منابــر الاســــــلام عن أهله في جميع بــلاده ، واجمـــاع الالســنة والقلوب في الضراعة الى الله في نصرة المجاهدين من عباده ، وأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم ، وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وفلل مضاء مضاربهم ، وهم في مــواضعهم واقفون . وعلى مصارعهم عاكفــون ، وفي مــواطنهم ثــابتون وعلى مواطئهن ثابتون كالبنيان المرصوص ما فيه خلل ، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل ، وكالسور المحيط ماعليه متسلق ، وكالجبل الأشــم مافية متعلق ، فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهــم فلم ينزحــوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم ان يمتطوها ، ودامــت الحــرب قــائمة ، وديمــة الدم دائمة ، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز ووعد النصر مانجز ، وحزب الحق ماعجز . فــأصبحوا يوم السبت على الحرب كمــا امســوا . وزادوا على مــاجرى امس

وأهلوا عنه وأنسوا ، فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس الظهور ، واصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض النور ، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكا حملة شديدة ، كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة ، وفرشوهم على تلك التلول ، وردوا مضاربهم من فلهم بادية الفلول ، وانهزم الفرنج الى تل المصلبة نحو القبة ، وثبتوا عند الوثبة ، وأخلوا ذلك الجانب ، وخلوا تلك المذاهب ، وقلعت خيامهم . وقطعت اطماعهم عنها ، وانفتح لنا طريق عكا . ودخلها الرجال .وحملت إليها الغلال ، ونقلت اليها الأحمال ، ودخل العسكر اليها وخرج ، وانشكف ضيق حصرها واطلع السلطان على الفرنج من سورها ، وشرع في تدبير أمورها ، وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادي ، وترك الهوادة في قصر القصر ، والهوادي والفرنج قد رهبوا ، ولو قدروا هربوا ، ولكن اصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة ، وانهم أي وقت ارادوا كانت منهم عزيمة . ومن العدو هزيمة وتوقفوا على الاتمام ، وتقدموا عن مقام الاقدام ، ولو أنهم استمروا في الحرب على هيأتهم وهيبتهم ، لباء الاعداء لنجحنا بخيبتهم ، فان الصدمة الأولى أخافت وحافت ، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها انافت ، ولكننا تركناهم حتى عادت اليهم الأرماق ، وعاود فرقهم الافراق ، وابصروا مابين ايديهم وما خلفهم . وازالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم . واثبتوا في مستنقع الموت ارجلهم . ورأوا أن الوقت قد أمهلهم . وقال أمراؤنا هؤلاء قد سهل امرهم ، وخمد جمرهم ، وقد حص رياشهم حصرهم ، وهم في قبضتنا اي وقت اردنا ، ولقصدهم تجردنا ، وقالوا نصبر الى الظهر ونمضي ونسقي الخيل ونعود وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود . فانصرفوا على وعد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود . وبلع العدو ريقه ، ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه ، وضم عن الانتشار راجله ، وزم رامحه ونابله ، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات ، وقد صوبوا الجروخ وفوقوها ، وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها ، كأنهم في الدروع أراقم ، وفي المجان

علاجم ، وفي النهوض قشاعم ، وفي الضراوة ضراغم ، واختلفت الآراء مع العلم باحتراسهم وتسترهم بتراسهم ، فمنا من يقول نصبحهم بالزحف ،ونزورهم بالحتف ، ويترجل الامراء فيتبعهم الأصحاب . وتنشب من آسادنا في تلك الخنازير من النشاب الأظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب ، فننسفهم ولو أنهم جبال ، ونطفىء نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال.

ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد . مستعدا بالاهب متأهبا بالعدد .فاذا زحفنا اليهم . واوجفنا عليهم . خرج من في البلد من العسكرية والراجل . ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين .ولايبقى للدين بعد درك الثار منهم دين . ومنا من يقول لابل نفرج عنهم .ونبعد منهم .فما دمنا على هذه المضايقة والمصابرة .والمحاقة والمحاصرة .والمكابدة والمكابرة .فانهم يتيقظون وينتبهون .ويتحفظون ولاينهون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون . فاذا ارخينا طولهم واوسعنا املهم . استرسلوا بعدما استبسلوا . واستقبلوا الدعة بعدما مااستقلوا . واطمانوا فطمعوا،واذا ابطأنا تسرعوا واغتروا بانا على غرة فأغاروا .وظهرت لهم اثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا .فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . واذا ظهروا ظهرنا عليهم . ومتي اصحروا اصحرنا اليهم . وان بارزوا بارزناهم . وانجزنا عدة امانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول : هؤلاء في عدد النمل . وكثرة الرمل . وظلام الليل . وعرام السيل . فما يقمهم الا العدد الكثير . ولايقمعهم الا الجمع الجم الغفير . والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لابادتهم البادي والحاضر . ونستجيش الحجافل ونستثير الفارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم • وازوادهم عن قريب تفرغ . وامادهم في الصبر تبلغ . وامدادهم تنقطع . وانجادهم تمتنع . وموادهم تقل . وجوادهم تضل . ولمراكبهم في الشتاء شتات . ولحبائلهم وحبالهم انبتات ، فاما ان يضطروا الى الانفصال . واما ان يؤذن فناء ارزاقهم بحلول الاجال . ويهون علينا

حربهم في تلك الحال . (وكفى الله المؤمنين القتال).(الاحــزاب ٢٥)
فهذا عسكر الاسلام . وجند مصر والشام . وفي الاقدام به خــطر .
وفي المباشرة بحربه غرر . والمصــلحة العــامة تلحــظ . ورأس المال يحفظ ومنا من يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها الاباطيل . ونستكثر من مراكبها . ونسـتعدي على هــذه الافــاعي بعقاربها . ونستطيل على الشناة المستطيلة بشوانيها. ونعــدو على عوادي الاعادي بعواديها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحــر . وصلت لنا اسباب النصر. وحينئذ نقاتلهم برا وبحــرا . ونوســعهم بمضايقتهم فيهما قتلا واسرا . ومازالت هذه الاراء بيننا متــداوله . وخواطرنا في تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفــرنج جــاريه وزناد الهيجــاء لاشــعال نارهــــا واريه . وفي كل يوم نتصــــافح بالصفاح . ونتكافأ بالكفاح . وننطق فيهم بــكلام الكلوم . ونلحــق منهم الموجود بالمعدوم. وللطلائع وقائع . وللسهام افــواق فــائقة . وللحمام اسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتــأسر . وتبري وتأبر . وتكبس وتكسب . وتسبي وتسلب . والسلطان يباشر ذلك كله بنفسه .وهـو يدأب في يومــه لغــده مجتهــدا في الزيادة على امسه نائبا عن اعوان المسلمين وانصارهم .ساهرا لهــم في ليلهــم. قائما بــأمرهم في نهــارهم .والعين الســـاهرة في ســـبيل الله قريره .وتعب يوم واحد لله في اليوم الاخر نخيرة

ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج اخر يوم الاربعاء سادس شعبان بأجمعهم .وتقــدموا من موضعهم .واشــتاقوا إلى مصرعهــم .وفـــارقوا الحـــزم في تسرعهم .وخرجوا عن رجالتهم .وتجردوا بخيالتهــم .وحملوا على الواقفين من اصحابنا حملة الرجل الواحد .فتحرك الصف الثــابت الساكن امامهم كالبنيان اذا تحلحل من القــواعد .وتــراجع عنهــم المسلمون استدراجا .وملأت الارض السماء عججا وعجاجا .وزخر

بحر الحرب على أمواج امواجا . فما قربوا من خيام اليزك . الا وقد اعتكر جو المعترك وعساكرنا قد أوجفت عليهم . وزحفت إليهم . وأردتهم بعقابهم . وردتهم على اعقابهم ووصلت الى رؤساهم فقطعت رؤوسا والحف بأسها ذلك الجمع بؤسا. وثنت وجه الكفر عبوسا . وولوا مدبرين . وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر عاثر . والذمر الباسل باسم بالموت باشر . فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ . وهمة متنبهة للتحفظ . وحراسة وحماية . وسياسة ورعاية . فلما اصبحوا عادوا الى عادتهم في اللقاء . وهاجوا بعاديتهم الى الهيجاء . هذا وابواب البلد مفتوحة . والصدور بطروق الظهر اليها مشروحة والفرنج قد ندموا على ماقدموا . وعدموا بصيرتهم بما صدموا . وعادوا لايفرطون ولايتورطون . وينقبضون ولاينبسطون .

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادي عشر الشهر الى تل العياضية . ليكون به في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل المصلبه منزلة العدو . وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام الميمنة ممتدة الى البحر ، وخيام الميسرة الى النهر ، واتسع مجالنا وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الامير طمان صاحب الرقة مريضا ولم تزل وجوه الايام الغير في سبيل الله باحمرار بيضه بيضاء ؛ وهو الحسام الفاضل . والهمام الباسل . والقرم البازل والندب الحلاحل . والمحترق لحمية الدين . والمقترح لحماية المسلمين . ولما وافت وفاته . وفاته رجاؤه ولم يرجأ فواته . أسف على عمره . وأسي على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيدا . ولم يستشهد في الجهاد سعيدا. وقال:قدموا حصاني حتى اشهد الحرب واستشهد ، واجاهد الى ان اقتل واجهد ، فاني ارى موتي على الفراش عبثا . وقد عرفتم مني شجاعة لاجبنا ، وتوفي عصر الاربعاء

ثالث عشر شعبان ، وبواه الله الجنان ، وبشر به رضوان . وكان قد توفي بالقرب الامير الندب . فـارس الحـرب . ليلة الاثنين السـابع والعشرين من رجب . حسام الدين سنقر الخلاطي النجيب المنتجـب فنبت مضارب الدين باغماد الحسامين . وحلت الهموم لاجـل اجـل الهمامين ، فوجمت النفوس ، والمت القلوب وفاضت لغروب فيضها الغروب .

ذكر واقعة للعرب . أربت لنا بالأرب

انتهـى الينا ان الفـرنج . يتـطرقون ويتـطرفون . ويأمنون ولايتخوفون . ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب مـن الاعشاش ، ويصلون الى طرفي النهر ، وهـم لمن يحلق عليهـم مـن فوقهم تحت القهر ، فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فـارسة من الفرسان ، فاغاروا وهم غارون ، وسـاروا الى جمعهـم وهـم بتجمعهم سارون .وحالوا بينهـم وبين خيامهـم ، وحشروهـم الى حمى حمامهم . وحملوا اليهم حين حملوا عليهم بـؤسا ، وقـطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوسا . واحضروها عند السـلطان فـاجتابوا بها خلع الاحتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء ، وذلك يوم السـبت سادس عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين اصحابنا في عكا متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم منتقي وفيهم منتقـل . وفي كل يوم تقـوم الحـرب على ساق . والارواح في مساق ، والمصاع على اتسـاق ، وكم قتـل مـن حزب العدو واسر . وكم حمل ليكسر فكسر . وربما مل الحـزبان ، وكل الغربان . فتوافقا على الامان . وتوافقا يتكلمان . وربما اقدموا ثم نكصوا . وغذوا ورقصوا . واذا لغبوا لعبوا . واسـتراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومـن نوادر مـاجري وغرائبـه ، وملح مـاتم وعجائبه ، ان الطـائفتين في بعض الايام . ضـجرتا مـن مبـاشرة الحرب على الدوام ، فقال واحد من الفرنج الى متى هـذا القتـال . وقد فني الرجال ، فاخرجوا صـبيانكم الى صـبياننا . وليكونوا في

امانكم وامانـا ، فبرز منهم صبيان . ومن البلد اخــران . فقـاتلوا
مليا ، والفوا نار الحرب صليا ، ثم وثب احد الصبيين المســلمين .
على احد الصــبيين الكافـرين . وضرب بــه الارض . وقفـــز عليه
وانقض . وقبضه كسيرا وجذبه اسيرا ، فافتداه بعضهم بدينارين .
وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين . والعدو من كفره وفكره
الى نارين ، ومن الاتفاقات النادرة ، وامارات السعادة الظـاهرة .
انه افلت من بعض مراكب الفرنج حصان . له عندهم صيت وشأن .
فلم يقدروا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربـطه . ومــازال يعــوم في
البحر وهم حواليه . حتى دخل مينا البلد وتسارع اصــحابنا اليه .
واهدوه الى السلطان ، وعده العدو من امارات الخذلان ، ورأيناه لنا
من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الواقعة الكبرى

واصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين مــن شــعبان . وقــد رفعــوا
الصلبان ، وزحفت اسودهم في غاب المران . وطارت بهــم خيولهــم
عقبانا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح . وجالوا دون التــل
كأنهم له وشــاح . وخــرجوا على التعبيه . وشــفعوا نداء الكفــــر
بالتلبية . وشفعوا بالتبرية للتربية . وتقدموا معتــزمين . وعزمــوا
مصممين . وثاروا ثورة الشيطان . وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا
الراجل امام الفرسان ، وزحفـوا اطــلابا ، ودبـوا دبيب الليل الى
النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، واجروا سيول السوابق
الى القرار . وجروا ذيول السوابغ الى الغــوار ، وتحــركوا وهـــم
هضاب ، وتدركوا وهـم غضاب . ومازالت ميسرتهم تكثر وتــكثف .
وتعطوا (٣٣) وتعطف . وتفور وتثــور . وتــرود وتــدور . وتهــم
وتهمهم . وتدمدم وتدوم . وقد عبى الســلطان ميمنتـــه وميسرتـــه ،
وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثــابت . وحــزبه في صــف
الحرب ثابت . ورعبه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف . ويأمر

بالوقوف . ويحض علي حظ الابـد . ويحـث على الجـلاد والجلد .
ويثوب للوثوب . ويندب الى الندوب . ولما شـاهد شروق بـروقهم .
وخروق مروقهم . وكثافة ميسرتهم . وحشو حشود كثرتهم . انهض
رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين
من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح ، وكلمـا
تقدموا تأخر يستجرهـم . ويحذر مكرهـم ومكرهـم . فعرفوا انه لا قبل
لهم بمقابلته ، وان هذا ليس ميقات مقـاتلته ، فتـركوه واسـتقبلوا
القلب وزخـر بحـرهـم وعب . وحملوا حملة ذوي حملة دوى منهـــا
الدو . واسود منها وجو الجـو . ووصـلوا الى جمـوع ديار بـــكر
والجزيرة . وغاصوا في لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغزيرة ،
وكانت من القلب الى الجناح للطيران وجبالها على الرياح للجـريان
فعرفوها بالغر . واستضعفوها لدى الكر . وألموا بهـا فمـا ألمت .
وهموا بها فما همت . واندفعت ومادفعت . وتراجعت وما رجعـت .
وتعكست وماعكست . وادبرت وماتدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال
الفرنج هابت وماهبت ولابت (٣٤) ومالبت . ورابـت ومـاربت .
وجاؤوا الى القلب وقلبوه . وحـاربوه وحـربوه وخـربوا حـزبه .
وخرقوا حجبه . وهناك اسـتشهد كرام بـاعوا انفسـهم بـالجنة .
واسنو نحورهم نحو الاسنة . منهم الامير مجلي بن مـروان . وكأن
مجليا في المروة . والظهير اخو الفقيه عيسى وكان ظـاهر الفتـوة .
واخرون اعترفوا بذنوبهم فرحضوا بمـاء الشـهادة دون حـوبهم .
وصعدوا الى مخيم السلطان . طامعين في استطالة حزب الصلبان .
وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم . ووقفنا على
التل نشاهد الوقعة وننتظر مايكون من القوم . ومـاظننا ان القـوة
بهي (٣٥) . وان الواقعة الينا تنتهي . فلما خـالطونا في المخيم .
وباسطونا في المجثم . وكنا على بغال . بغير أهبة قتال . اسـتدركنا
امرنا . واخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا . والمهـزم عمـا
تركه مـن خيامـه ورحله متخليا . فـوافقنا في الاندفـاع . والفينا
الاستضرار في المال عين الانتفاع . فوصلنا الى طبرية فيمن وصل .
ووجدنا ساكنها قد اجفل . فسـقنا الى جسر الصـنبرة ونزلنا على
شرقية . وكل منا ذاهل عن شبعه وريه . مفكر فيما يكون من امره .

منكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره . لايألف مبيتا . ولايلفى بيتا ، ممسك بلجام فرسه . قد اذن ضيق نفسه بضـيق نفسـه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق . وهو غير مفيق . ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طـريق . واقمنا بمـوضعنا على الخـوى والخيل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق . والفـرق غير مفـارق . والقلوب مـرتاعة مـرتابه . والادعية الى الله مـرفوعة مستجابه . وتحدث الناس فيما بينهم بان الاسلام عاد جـده . وعدا جنده وان الكفر حاد فله وفـل حـده . وان الميسرة ثبتـت فثـاب اليسر . والاسدية انتصروا فـأسد النصـر . وكان هـذا الصـدى يقـوى . والصـدأ يروى . والبشرى تسري . والبـرد بهـا تجري . والناس بين مصدق ومكذب . وذاهب في مـذهب مـن الظـن مذهب مهذب . حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صـافي وقـد ورد مورد الظفر الصافي . فنادى أين العمـاد . فقـد جـاءه مـن النصر المراد . فأسرعنا إليه . واجتمعناعليه . فقلنا ماالخبر . وكيف ضـفا الظفر (٣٦) . وصفا الكدر . وقدر السلطان وتسلط القدر . والى اين انت سار بالنبأ السـار . وفي اية دار تنزل بمنزل النصر الدار . فقال:أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم . والخبـر الكريم . فقلنا:اهـلا بشائر البشائر وطائر الاوطـار . والسـائر بـالمسار والاخ البـار بالاخبار . والصديق الصادق . والموفق الموافق . ومرحبا بـالخصي الخاص لما مر حيا فحل بالخبر الفحل فحلا . وكم ام للنجـح امـلا وجلا وجلا . فأبنا محبورين مجبورين . وثبنا مثـابين مـأجورين . وندمنا على ماندمنا في الهزيمة . وعز علينا ترك الاخـذ بـالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل . وجد وجدل . وانتقم من القوم ومـن مقامه ماانتقل . وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وادام الاجراء حتى اجرى الدماء .

-٥٩٩٢-

ذكر حصة النصرة بعد صحة الكسره
وكيف ادال الله الاسلام واذل الكفر بتلك الكره

لما تمت الكسره . وعمت الفتره . وكرت الكره . وامـرت تلك المره . وصل جماعة من الفرنج الى خيمـة السـلطان وشـيم مـن عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جـوله . وخـالوا دوله . وصالوا صوله . ثم رأوا عنهم انقطاع اشـياعهم . وعدمـوا اتبـاع اتباعهم . فشرعوا في اندفاعهم . وهابوا الوقوف على اجتمـاعهم . فانحدورا عن التل . وقد جاؤوا بقـوة العـز فـآبوا بضـعف الذل . واستقلهم اصحابنا فركبوا اكتافهم . وحكموا في رقابهم اسيافهم . وردوهم وأردوهم . وعدوا على شركائهم في الشرك فأعدوهم . وكان في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ومازالوا . بل وصلوا وصالوا وصلوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بـالجبال الرياح . وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد مـن كان مـن الميمنة الاسلامية بالبعد . حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين . وقايماز النجمي والحسام بن لاجين . ومـن ثبـت مـن أبـطال المجاهدين . فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وانهلوها من دمائها وأعلوها . ولفوها وفلوها . ولقـوها واقلوهـا . ووضـعوا فيهـا السيوف . وأوضعوا اليها الحتوف . واوسعوها قتلا ذريعا .

ومالبطأ الوقت حتى صار مقدامها ضريعا سريعـا . فلم يفلت مـن الاعداء إلا أعداد . ولم ينج من الافها الا احاد . وامست لنا الحـرب فراشا . ولارض المعركة فـراشا . وتبعهـا اصـحابنا حتـى كلت سيوفهم وكلوا . وملت لتوتهم وليوثهم وملوا . وفرس زهاء خمسـة الاف فارس من كل ممار ممارس . ومستوحش بالموت انس . وممن اودى في الاقدام مقدم الداوية . ولم تحمه من الحمام ناره الحـامية لنار الحمية . وحكي عنه انه قال:عرضنا في مائة الف وعشرة الاف . احلاف الحاف والاف اتلاف بلا تـلاف فلمـا عجـزوا . وبـالخندق

احتجزوا . وقـف عنهـــم اجنادنا . وبلغ المدى فيهـــم جهـــادنا واجتهادنا . ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا الفـا فـردوا مائة الف . واتاهم الله قوة بعد ضعف . وكان الواحد منا يقول قتلت من المثلثين ثـلاثين واربعين . وتـركتهم بـالعراء عراة مصرعين . ولا شك ان الله انزل المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك ممـا شـهده . ويعهد الينا بما عهده . وحكى بعضهم قال كنت على فرس قـطوف . ماله منة سير ولا وقوف . وانا منهزم من فـارس مـدجج . في بحـر الحرب ملجج . وهو على جبل يجري به جري الريح . وينادى بشعار المسيح . وقد لز بقربي حصانه . وهز لصلبي سنانه . فما شـككت انه يشكني بلهذمه . ويفكني بمخذمه . وايست من البقاء . واذنـت للشهادة واللقاء . واستعذت بـالله واسـتعنت . وتشـاهدت ممـا شاهدت . ثم ابطأت على صدمته . واخطأتني حدمته . فالتفت فـاذا هو وحصانه ملقى كلاهما. ومـاوجدت بـالقرب احـدا اقـول انه ارداهما . فعرفت انه نصر الهي . وصنع رباني في مـذاق الايمـان شهي . وفي افاق الاحسان بهي . فايقنت ان النصرة مـاملكت ، الا الملائكة نصرت . وان الظهور ماسر الا لاسرار الله ظهرت .

ذكر مكاتبة انشأتها الى بعض الاطراف بشرح ما يسره الله في هذه الوقعة من الألطاف

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرهـا . وشـكر الطاف الله الخفية وابداء سرها . ونشر مطاوي النعم باذاعة طيهـا واشاعة نشرها . وذكر فيها ماالفرنج عليه مـن اجتمـاع راجلهـا وفارسها . والاحتماء بخنادقها ومتـارسها . وان لنا كل يوم فيهـم نكاية بالغه . وسطوة دامغة . وثعالب عوامـل في دمـائهم والغـه . ومضارب مناصل لرؤوسهم فـادغة . ونيوبهـم عواسـل مـاضغهم ماضغة .ونيول نقم عليهم في تقليص ضـلالهم سـابغه . وايدي ايد لصفحات البيض بنجيعهم القاني صابغه . وضمائر وضوامر عن كل

شغل سوى شغل الجهاد فارغه . وهمما وعزائم لاترى عن وقم القوم اهل الزيغ زائغة . ومابرح الفرنج في برح شديد . وامر غير سديد . وظل الذل مديد . وضيق حصر في كل يوم جديد جديد . حتى ضاقت انفسهم وانفاسهم واخفق رجاؤهم . وظهر يأسهم ووقع بينهم بطول المقام باسهم . فاجمعوا امرهم على انهم يجدون في اللقاء . ويهجيون الى الهيجاء ، ويلقون الالوف بالالوف . ويصدمون الصفوف بالصفوف . ويعرضون نحورهم ووجوهم على الاسنة والسيوف . ويكسفون بشبه التثليث ادلة التوحيد . ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد . والحد الحديد . وبرز ذلك الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان . ورفعوا الصلبان واشرعوا الخرصان . واتبعوا الشيطان . ورتبوا الرجال . وطلبوا الفرسان . وحملت لهم اطلاب تضم ابطالا . وتضمن بباطلها للحق ابطالا . وتأمل لشملها المتفرق اجتماعا . وترجوا للصليب السليب ارتجاعا . وعصفت رياحها الهوج . واقبلت بحار سوابحها وسوابغها تموج . وكاد ان يثبت للشيطان قدم ، ويراق للايمان دم . فانها خرقت حجاب الصف . وفرقت شمل الجمع الملتف . وزاغ جنان الجبان وهمه وهمه . وادبر موليا وعزمه زعمه . فظن من لايقين له ان الاسلام قد اسلم . وان نصر الله الموجود قد عدم . وان الكفر المتأخر قد تقدم . وان الصبح المتبلج قد اظلم . وهناك عرف اهل الثبات . وثبت اهل العرفان . ورقصت المران على اشاجع الشجعان . والتفت العنان بالعنان . والتقى السنان بالسنان . وخطبت الصوارم على منابر الطلى . ورتعت اللهاذم في كلا الكلي . وفتحت اليغالق مغالق الحتف . وزحفت الفوارس الى فوارس الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب . ووصلت ضرب الاعناق بقطع الرقاب . ومازالت تشل الفرنج وتفلهم . وتحل بعقدهم الوهن وتحلهم . وتروي ظمأ الظبا من ورد وريدهم . وتخضب شيب البيض بدم طريدهم . حتى فرشت بعد ان سلبت اشلاؤهم بالعراء عريا . وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع اجراء ولم تطق جريا.حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات الصفاح . ووقفت اشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح . واعرب

حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح . وقتل مــن مقــدميهم ومقدمي مقدميهم زهاء خمسة الاف . زهي الاسلام بما اتســع مــن عطن عطبهم . وحسن منقلبه بسوء منقلبهم . وعاش بما شاع مــن قتلهم . واشتغل العسكر المنصور بشغلهم . وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين . وقصم الهدى متن الضلال المتين . وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحــاملين . وانجلى الغبــار عن كل قتيل مالعاثره من مقيل . ولالقائله مــن مقيل.وعادت اعلام الاسلام ظاهرة . وأيمان باطنة قاهرة . وهــدي الهــدى على النصر مزفوفه . وعيون العدا عن النظر بالعمي مكفوفة . ولم ينج ممن حمل من حمل رأسه . ولم يقدم من اولئك الرجال الا مــن فقــد رجــاءه . ووجد يأسه . وعاد الفرنج الى خيامهــم وقــد فجعــوا بتلك الالوف واصيبوا بمن صفا في تلك الصفوف . وتراءت وجوه الفتوح لنا مــن خلال تلك الحتوف . ودخل الليل عليهم . ووقفت العساكر حواليهم . وهم وان وهنوا لما اصابهم من الكسره . واخــطأهم مــن النصره . وحل فيهم من الرزء . وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء . وفجــع كلهم بالجزء . ونقص منهم العــدد الكثير . وركد مــن ريحهــم ذلك العاصف المبير . فانهم في حشــد كالدبــى . وجمــع اغص الوهــاد والربا . وقد اخلدوا الى الارض وشــدوا على حــب الموت الحبــا . وودوا لو وجدوا مهربا . وتفرقوا ايدي سبا . وقد عادوا وتحصــنوا وتصــبروا . وتخيروا المقــام على الحين حين تحيروا . واوســعوا الخنادق وعمقوها . واحــكموا المتــارس ووثقــوها . وندمــوا على الحركة . فانها افضت بهم الى الهلكة . وانهم ماداموا رابضــين . وعلى يد الصبر قابضين . يتعذر الوصول اليهم . والدخول عليهــم ، وتطول ايام الاحاطة بهم من حواليهم . وفي تلك الحركة التي حلا بها للشجعان طعم الطعن . وغلب فيها للجبناء وهم الوهن . وتجافى عن الثبات من محبي الدنيا جنب الجبن . ارتاع عسكر الشرق مــن ذلك الغرب واختار المتسللون المتقالون منهم البعد على القرب . ومــا ثبت الا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للامور . سديد ساد الثغــور . ومجاهد الدين يرنقش قد صدق نعته بالمجاهدة للدين . وجــلا ظلمــة الوهم بنور اليقين . وقرت عين طمان بالجنة بــاقدام الولد . ومــاذا

يقال في شبل ذلك الاسد . وانما الغرباء هابوا . وكانوا قد ضجروا من الحضور فغابوا . والفرنج الان في ذل وخسر . وفي عسر بغير يسر . وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه ان يقدر على قطع دابرهم . واهلاك سائرهم عن اخرهم . وتحريك همم المؤمنين في تسكين سائرهم . وتخريب عمرهم وعامرهم . وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهم . ومادام البحر يمدهم . والبر لايصدهم . فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بادوائهم وا سوائهم ملازم . وتدبيرها الان في التدمير على هذه الجموع . وسوقهم الى مصارعهم في ورطة الوقوع . فأين حمية المسلمين . ونخوة أهل الدين . وغيرة اهل اليقين . وما يقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه . وتظاهره في اتساع مسلكه واتساق سلكه . وقعود المسلمين وتقاعدهم وتعاضلهم في تعاضدهم . وانحلال عقود تعاقدهم . فلا ملبي فيهم لمناد . ولا موري منهم في اجابة داع لزناد . فانظروا الى الفرنج اي مورد وردوا . واي حشد حشدوا وأية شالة نشدوا . واية نجدة انجدوا . واية اموال غرموها وانفقوها . وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم . ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم واكابرهم . الا جارى جاره في مضمار الانجاد . وبارى نظيره في الجد والاجهاد . واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والارواح . وامدوا اجناسهم الانجاس بانواع السلاح مع اكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا . ولا بذلوا ما بذلوا . الا لمجرد الحمية لمتعبدهم . والنخوة لمعتقدهم . وليس احد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك . ورفع فيه حجاب عزهم وهتك . يخرج بلد من يده . او تمتد يدإلى بلده . والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا . وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة . وعدموا الغيرة . ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان . اوخباسنى ونبا سنان. لما وجد في شرق البلاد وغربها . وبعد الافاق وقربها . من لدين الله يغار . ومن لنصرة الحق على الباطل يختار . وهذا اوان رفض التواني . واستدناء اولي الحمية من الاقاصي والاداني . على انا بحمد الله لنصره راجون . وله بـاخلاص السر وسر الاخلاص مناجون . والمشركون باذن الله هالكون . والمؤمنون آمنون ناجون .

-٥٩٩٧-

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر
فصد عن قصد المباكرة لمناجزة اهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء . وزادت مشاربه من مادة الصفاء . وامر بمواراة الشهداء . ومن جملتهم الفقيه ابو علي بن رواحه . وكان غزير الفضل قد اكمل الرجاحة والسجاحة . وهو شاعر مفلق . وفقيه محقق . من ولد عبد الله بن رواحة الصحابي الانصاري في الشهادة والشعر معرق . فطرفه الاعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار . وطرفه الاقرب يوم عكا في لقاء الكفار . ومنهم اسماعيل الصوفي الارموى المكبس . وكان سديدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلام في الخزانة امين على البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة . وذهب قبل الرجعة . واجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم . ويباكر في طلب ارواحهم السوم . وقال هؤلاء قد اضعفنا قوتهم . واعجزنا قدرتهم.

وفثأنا سورتهم . واخمدنا فورتهم . وقتلنا مقاتلتهم . وادوينا داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق . وبلغوا في الاحتراز والاحتراس الطريق . فنحن نوافيهم غدا . ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع . ونذرعهم بباع السباع . ونقيهم بذراع اليراع . ونوسعهم قرى القراع . ونذيقهم حر الحرب ، ونسقيهم في طعم الطعن شرب الضرب . ونعين من عيونهم للسهام سهاما ، ونتخذ لارواح النصال من اجسامهم اجساما . ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات . ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم النصر ، ونطيب من نتفهم النشر . ونقطع دابرهم . ونلحق بأولهم آخرهم . فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم . واجراء هذا الحكم . تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب . لما ناب من الامر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها . واوباش الجمع واوشابها . ظنوا تلك الفورة هزيمة . فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمة .

وانهزم من انهزم من الجند . وثبت من ثبت من اهل الجد . فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا . وكان ظنه انه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فمضوا وراء الغلمان . وبلوا بسوء دين السودان. واصبحنا واذا العسكر غائب . والعازم عازب . والقاصم قاص . والطائع عاص . والجمع متفرق . والثابت قلق . والامن فرق . والغني معدم . والجرىء متندم . فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب . وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب . فتفتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم . وانتعش الفرنج في تلك المدة . وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار . وفرغوا شغل الحصار . وجاءتهم في البحر مراكب اخلفت من عدم . وبنت ما هدم فكمل بالمدد . ما نقص من العدد . ولولا ان الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة أمكنت . والحصة تعينت . والجو خال . والضو عال . والحال جميلة والجمال حال . فقضى الله بما قضى . وعرانا المضض بما مضى . وبقيت هناك تلك الجيف منتنة منبتة مبتته . وتلك الجثث محينة مجتثة . تعرفنا ان نشورها من حواصل النسور . وان قدرها بطون الضباع والنمور . فشكونا نتن رائحتها . وشكرنا يمن جائحتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر . ليشرب من صديدها اهل الكفر ، فحمل الى الماء اكثر من خمسة الاف جثة . بعثت الى النار قبل يوم البعثة ، فما عبر بها الا من اعتبر واستشفى من اقبل بمن ادبر . وسلم الله من اسلم وكف ورد بالردى من كفر .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من الثقل واستدراك ما حزب من الخلل

تقدم الامر الى المقدمين والامراء . بعد النداء واعلام الجهلاء ، باحصاء كل ما نهب . واحضار كل ما سلب . وانه من لم يرد ما اخذه اخذ بالردى . واعتدي عليه بمثلما اعتدى . فاحضر كل ما

عنده وبذل في الكشف جهده . وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان . وضاقت عن كثرته سعة ذلك المكان . وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع يقين من شعبان . فكل من عرف من ماله شيئا اخذه بعد احلافه . وحلا في مذاق الشكر قطاف الطافة . وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة اخلاقه . وشفى العلل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقة . وقمش ذلك القماش . وحصل من ذلك الوبل الرشاش . وصح بعد العري والعشار الارتياش والانتعاش . وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي . والاقطار والضواحي . بحث البحث وجد الكشف . واستخلاص كل مايوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس . وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائها . وقضاة القواضب الى اقتضابها . وغار الآنف وأنف الغيران . وتسلط العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحنق الثائر . وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل الذكور . واشرأب للشرب نبات الاسل الى ماء النحور . وحمي ذوو الحمية التقاضي . وقالوا حتى متى التراضي بالتغاضي

ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد

وحضرا أكابر الامراء عند السلطان . يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقال إعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله . وأناخ بكلكل كله . وقد برز بالكفر كله إلى الاسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه . واستنفد وسعه . وإن لم نعاجل الآن فريقه . والبحر قد منع طريقه . أعضل داؤه . وتعذر غدا لقاؤه . فانه إذا سكن البحر . واستسهل ركوبه السفر . تضاعفت أعداد الاعداء . فظهر الاعدام من الأعداء . وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها . ولا قوة نستحضرها . وما بلي بهذا المعشر إلا معشرنا . وما بازاء عسكر الكفر إلا عسكرنا .

وما في المسلمين من ينجدنا . وما في بلاد الاسلام من يعدنا . وعساكرنا حاضره . وعزائمنا للتواني حاظرة . وعيون أسنتنا إلى الفتك بالعدا ناظره . وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين . ولا بقاء للنقاد إذا أصحر منه ليث العرين . فالرأي كل الرأي في المناجزة . قبل وقوفهم على محاج المحاجزة . ثم قال ليشر كل منكم برأيه . ولايقدم على قول ورأيه من ورائه . فتجاذبوا حبل الاضطراب . واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب . وركب كل منهم هواه . وأعلن بما نواه . ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين الثاني لا الأول . وقد دفعنا إلى الخطب الاعضل والتعب الاطول . والنائب الأعصى والناب الأعصل . وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوما . وما طعمنا في هذه الليالي نوما . ولا سمنا لطارق طيف غمضا . ولا شمنا الا لبارق سيف ومضا . ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها . وكأن أبا الطيب عنانا بقوله . « وكأنما خلقوا على صهواتها » . وقد كلت الضوامر . وفلت البواتر . وملت العساكر . وهذا الشتاء قد أقبل . والعدو قد استقل . والشر قد استفحل . وما يتأتي قلعه الا لمن يتأتى . وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم بالمصابرة مصابون . ونحن على المثابرة مثابون . وهؤلاء لايتمكن منهم إلا بالجمع الجم . والسيل لايغلبه غير الخضم . والصواب أن نصابرهم . هذه الشتوه . ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتأخر عن هذه المنزلة . لتحصيل هذه المصلحة المؤملة . ونوكل بهم مناوبة من يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء العلوج . ونعيد السريجيات إلى سلها والسلاهب إلى السروج . والصواب الأخذ بالاحتياط . وتقديم الكتب والرسل إلى الاطراف والاوساط . ومكاتبة دار السلام . واعلام الأمام عليه أفضل السلام.بما دفع إليه الاسلام بالشام . فان المسلمين لا شك ينجدون . ويقومون بالنصر . ولايقعدون . ولايترك استنفار التركمان . وترغيبهم بالبر والاحسان . واستدعاؤهم بالعطايا . والتشريفات السنايا . وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية . في تحريك الهمم والعزائم الوانية . إلى ان تمتلىء بالجموع ساح الساحل . وتغلى بنار الحميات بها مراجل الراجل . فحينئذ ينتهي أمد المصابر .

ونصمم على المكابرة مع المكاثرة . ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر . ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر . وننسفهم ولو أنهم جبال . وننزفهم ولو أنهم بحار . ونعدمهم حتى لايطرق جفن بلد منهم خيال . ولايلم بجفن طارق لهم غرار . ومازلنا في مشاورة ومحاورة . ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة . حتى تنخل الرأي وتمخض . وخالوا أنه تبين الصواب وتمحض . ومالوا إلى الدعة . والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب . إلى المنزل الرحب . ومن المعترك المعتكر . إلى المبرك المبتكر . فلم تعجبني هذه الحالة . ولم توافقني هذه المقالة . وقلت لعمري أتيتم بمصلحة . ولكنها غير مترجحة . فان الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار . ولم يحدقوا بجميع الأسوار . فإذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخينا خناقهم . وأطلنا إلى مرادهم اعناقهم . وباب عكا من جانب البحر مفتوح . والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق مصبوح . والطريق إليها سابلة . والذخائر إليها في كل يوم داخله . والفرنج عن قطع الطريق عاجزه . وعزائمنا على مصابحتها ومماساتها لها دون قصدها محاجزه . فإن تأخرنا تقدموا . وان هونا احكموا . وإن نقضنا أبرموا . وإن قعدنا قاموا . وإن بعدنا حاموا . ومتي رمناهم تحفظوا . ومتى نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فانهم لحصر البلد لايتفرغون . وإلى أمد الأمل لايبلغون . فقالوا هذا أمر هين . وما ذكرناه صواب متعين . ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا آنسوا بالرجاء،لم ييأسوا من الارجاء . أرخينا لهم حبل الانظار . حتى استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة . ونعاجلهم كرة بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث . ونصدهم بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث . وكان السلطان متكرها لما أبدوه من الرأي الملتاث . لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

ذكر الرحيل إلى الخروبة . عند خيم الأثقال المضروبة .

كان السلطان مع ما ألم به من الألم . غير مبد وجه الملل والسأم . وهو في كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف . ويقف مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر . وعليه أثر الضر من الصبر . فليم على فعله . وخصه الطبيب بعذله .

فانتقل الى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان ، وخلى المنزل الاول وأخلى العسكر ذلك المكان . وتقدم إلى من بعكا باغلاق الباب . وسلوك نهج الاحتراس والاجتناب . وجرى الامر على ما كنت قلته . وتحقق من الخلل ما خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذي كان خاليا . ورخص عنده ما كان من سوم خوفه غاليا . وشرع الفرنج في حفر خندق على معكسرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر . واخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم . وبما ظهر من أثرهم . والجد في تعميق الخندق وتتميم محتفرهم . والعسكر هاجم . كأنه واجم والظن فيه راجم . وشر الكفر ناجم . وما فينا لعود الأمر عاجم،وقلت يوما للسلطان يركب العسكر إليهم . ويركض عليهم . فلعله ينال ظفرا . ويقضي من كسر العدو وطرا . فقال ما يعمل العسكر شيئا إلا إذا كنت معه راكبا . ولعمله شاهدا مراقبا . ولقد صدق في مقاله . فانه كان أعرف برجاله . فإنهم كانوا يبذلون معه المهج . ويخوضون من بحر الحرب اللجج . ويوسعون لهزم العدو المازق اللجج . وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم . وأمهلناهم بل أهملناهم . حتى عمقوا الحفور . ووثقوا من ترابها السور . وملأوه بالستائر . ومنعوه من الطير الطائر وبذوه وأسسوه . وستروه وترسوه . ورتبوا عليه رجالا . ولم يتركوا لواغل مجالا . وتركوا فيه أبوابا وفروجا . ليظهروا منها إذا أرادوا خروجا . ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقول

لامبالاة بهم ولا أكتراث . وما أســهل إذا عزمنا عليهــم لأصــولهم الاجتثاث . وبسيول ســيوفنا نغســل تلك الأخبــاث . وأي وقــت قصدناهم وجئناهم وجــأناهـم . وذكأنا قــرحهم ونكبناهــم . ومــا فوارسهم لنا الا فرائس . وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما حفروا الا قبورهم . وماديروا الاثبورهم ومتــى قصــدناهم كذبـت ظنونهم منونهم . وامتلأت باشلائهم خنادقهــم . وأظلمــت عليهــم بغربنا مشارقهم . وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم .

ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أســفر عن داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب .

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره . ووكل بــاتمامه ســمعه وبصره .

لما تمت على الفــرنج تلك المقتلة وعمــت فيهــم الهلكة . وضــمت أشلاءهم المعركة . وشوهدت على الربا حجب نحــورهم المهتــكة . وخمدوا وخملوا . وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الاكابــر انه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر . وانهم قــد عدمــوا القــرار . وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا . ولو فتحنا طريقهم ما تصبروا ولا تربصوا . وقال السلطان:ارحلوا عنهم حتى تروا مــا يكون منهم . فانهم يرهبون ويهربون . ويبعــدون إلى صــور ومــن بعدها من عكا لايقربون . فمــال قــوم إلى مقــاله . وتخيلوا مثــل خياله . وأشار بقطع طريق البلد . والصدر عن ورد الرصد . والجــد في تعمية الجدد . وان يفتح لهم ما سد من الطريق . ولايعوقهم فانهم كلاب تعوي من التعويق . ولما بلونا رأيه . وتلونا آيه ، أخلف ظنه . وبدا وهنه . ومازاد الفرنج الانباتا ولم نعرف لشملهم على ما توهمه شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأي القائل . ونقول ما أعجــب قبــولنا لقول هذا القائل .

- ٦٠٠٤ -

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث . وتجدد العزائم من البواعث .

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه . وايضاح منهاجه . ومداراة ألمه . ومداواة سقمه . فوهب الله له العافية . وكمل له عصمته الكافية . ومنته الشافية . ونعمته الوافية . وأبدى له ألطافه الخافية . وقوي قلبه على المقام . بنية الانتقام . وصرف الأجناد الغرباء ليرجعوا في الربيع . ويستريحوا في مرابعهم لوقت الرجوع . وأقام في مماليكه وخواصه . ورجال حلقته المنصورة من ذوي استخلاصه . ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا . وأدار بهلاك القوم منه فلكا . وكان في مماليكه كل مقدم مقدام . وكل همام همام . وكل ليث ذي لوثه . وكل حدث محسن له حسن أحدوثه . وكل ضيغم ضاغم . وكل أسد عرين ليس الاعرنين قرنه براغم . وكل ريبال ذي بال . وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطال . وكل مغير للنصر مريغ . وكل مسيىء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ . وكل تركي للرماء غير تارك . وللاصماء غير فارك . قوسه في ظفر الهدى مؤتر على الوتر . وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر . وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر . وكل حميدي في الروع حميد . وبالحرب عميد وكل هكاري على القرن عكار . وفي الوغى كرار . وللقنا جرار . وكل زرزاري بالأسد زار . وللبسالة كاس ومن الغار عار . وكل مهراني في القتال ماهر . وللرجال قاهر . وعلى الابطال ظاهر . وكل كمي كميش واكيش . فما خلا يوم من وقعه . وما صار من بارزهم إلا إلى صرعه . وما عاد من نجا من زنابير سهامهم إلا بلسعه . وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من طاولهم إلا على لطعه . وما تبقى على لتوتهم ليت . ولصوتهم في النزال كل صباح ومساء حيت . وبلي الفرنج منهم بالمبير والمبيد . واعتاق بهم مراد العدو والمريد . ومازال هذا دأبهم في الركوب . ومباكرتهم ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم . وثبتوا عدل النصر بتعديهم . وصدوا شر الشرك بتصديهم . وحركوا

ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم . وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا . واجتلينا به من سني النصر مطلعا . وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوة . وغنيمة صفوة . ونشوة أعقبت صحوة . وصحيحة استصحبت ضحوة . وقوة من وهن العدو . ومحبة فكت رهن السلو . فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم . وانخفض اغتباطهم . وفترت عزمتهم . وقصرت همتهم . وخمدت فورتهم . وركدت ثورتهم . فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتفشوا . وتدفعوا وتنعشوا . ودب الروح . وشب المروح . وتحرك الساكن . وتدرك الضامن . وصاروا يخرجون ويحرجون . ويقتلون ويجرحون . ويمسون على القتال ويصبحون . ويكافحون ويدافعون . ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هاجم . وجم جمعه واجم . واليزكية زكية . والعيون زكية . والذوب راتبة . والعدة المعنية المعينة في كل يوم راكبة .

ذكر وصول ملك الألمان

ونمى الخبر بوصول ملك الالمان إلى القسطنطينية في عدد دهم دثر . ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور الى بلاد الاسلام . وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وانه في ثلاثمائة الف مقاتل . من كل سالب باسل . وطالب باطل . وجهم جهنمي . وأشقري سقري . وأنمش أفعواني . وصل صليبي صلائي . وأرقش حنشي . ومستعر سعيري . ومحرب لظوي . ومغوار ناري . وضار بالقرن ضار . وجار للدرع جار . وكل ذئيب عاسل .ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل . وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمي جاحم . وجمري فاحم . وحربي بحري . وبار بري . وقاطع في طريق الوصول . وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال . وصال بنار الصيال . ومشمر على الموت متمرن . ومتحين إلى المذون متحين . وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع . ماله سوى السوء

من مقنع . وأنه مع الالماني ملوك وكنود . وكل شيطان لربـه كنود .
وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن . وهو في قلعته على الفـرات
ومن أهل الذمة في المأمن . يبدي تنصحـا وإشـفاقا . وتخـوفا على
البلاد واحتراقا . ويقطع بان الواصلين في كثـرة . وان الناهضـين
الى طريقهم في عثره . وابـرق في كتـابه وارعد . وابـدع بخـطابه
وابعد . ولا شك انه الى جنسه النجس مائل . وبمـلاءة اهـل ملتـه
قائل . ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم . وورد هذا الخبـر وخيل
أنه أليم . كاد الناس يضطربون . على أنهم يصـدقون ويكذبـون .
ومن طرف كل حبل من الراي يجذبون . وقلنا ان وضح هذا الخطر .
وصح هذا الخبر . فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون . ويغضبون لله
ولايرضـون انهـم لايعضـدون . على أن الله ناصرنا . ومـوازرنا
ومظاهرنا . وحققنا باظهار القوة لمن اسـتوحش التـأنيس . وبثثنا
بـالارسال الى بـلاد الروم عيونا وجـواسيس . وندبنا رسـل
الاستنصار . وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار .
وقلنا ما هذه المرة الامرة ولايسيغها الا كل مرىء ابي . ومـا هـذه
الكرة مثل كره . ولايحضرها الا كل كميش كمي .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافـع
ابن تميم . ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له
ما احتاج اوصي . وانت تستوفي القول وتستقصي . وجعـل له الى كل
الذي طرف في طريقه رسالة . واودعه اليه مقاله . فسار من عندنا في
شهر رمضان مغذا . يبذ خيل العزم بذا . ويجذ حبل السـير جـذا .
ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيي بن عبـد الله
الشهرزوري رسول السـلطان ببغـداد قـد عاد . وذكر انه قـد بلغ
المراد . وانه استجدى واستجاد . واستفاد واستزاد . وانه استكمل
للعدة الاستنجاز وللعدة الاستنجاد . فمـا هـذا الرسـول الرائح .
وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح . واذا اختلفت الحديث حـدث

الاختلاف . ومتى الف غير ما القى الغي الائتلاف . فما هذا العجل . ومم الوجل . فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . عن كل ما ابان عنه واعرب . وكتب الى والده . بذكر مقاصده . وقال انا لا اقدر على صد من للخدمة تصدى . ولا رد من بثوب الرسالة تردى . وأنت تمضي الى السلطان . بما اوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم . ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع . ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعا . وتجد شمل ما الفته جميعا . فوصل ضياء الدين الشهر زوري وهو مغتاظ . وسجايه السجاح غلاظ . وتغير علي . ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي . فانه كان مخاللي ومخالطي . ومجالسي ومباسطي . فازلت عنه كل ظن . واعتذرت اليه بكل فن . فما بسط عذر . ولا قبض ذعر . فاني على اسبابي ببغداد خائف . ودون رضا كل سائر اليها واقف . واسترضيته فما رضي . ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضي . ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه . واعلمه بما علمه . وقال له الشغل قد فرغ . والمقصود قد بلغ . والسؤال قد اجيب . والسؤل قد اصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم . وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للامام يكن لك . واقبل امره ليقبلك . واجتمع بالسلطان دوني . واتفق بجماعة شاركوه وافردوني . وقرروا معه سرا امرا . وحذروه ان يصير جهرا . ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذي ابرموه غير مبرم . وأن الرأي الذي أحكموا . غير محكم . ومازلت أوكد الأمر حتى يؤمن انتقاضة . واتعرض دون الرأي حتى لايمكن اعتراضه . وأيقن ان الامر ما فيه خلاف . وان الوعد ماله اخلاف . فما فعل الرسول يتلبث ولا امهل يتمكث . بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه . وزعم فيما دبر نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب . واسرع العودة على النجب . فلما انفصل عن السلطان . بما وصله من الاحسان . جمع السلطان الامراء على المشورة . ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم، قد وعدت الخليفة على لسان الشهر زوري بشهر زور . واستدعيت عسكره المنصور . وربما قدم الينا الحضور . فيكمل لنا النصر والحبور . فقالوا هذا راي رائب . وشاو شائب . وأمر عنه الصواب ناء . وكيف تعد

الامام بما لايقرن بوفاء . وكيف ينجز هذا الوعد . وينجح هذا القصد . ودونه ايحاش من هو في طاعتك . فكنت تبذل ما يدخل في استطاعتك . اما صاحب الموصل طلبها فمنع . وصاحب اربل عنها دفع . ومملوكك بها لمن يجاوره خائف . وكل ايوائي لحدها وحقها خائف . وما من هؤلاء الا من بذل عنها اموالا واحوالا . والتزم من الجنود والنقود انجادا خفافا وحمولا ثقالا . فاذا عرف انك اخرجتها لمن له الامر . دخل عليهم الضر . وملك مالك الامر امركم . وابدوا في انقطاعهم عنك عذرهم . وانقطع الواصل . وارتفع الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد . ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد . اما هذا بكتمر في خلاط . قد جمع الاخلاط . وجهر بالعداوة . واقام على الغباوة والغباوة . فقال السلطان الخليفة ملك الخليفة . وهو مالك الحق والحقيقة . فان وصل الينا اعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زورو . وسيحدث الله بعد الامور الامور . ولما وصل ضياء الدين الشهر زوري الى بغداد . صادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد ، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد ، وقيل له جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، ونندبه فيما نتخيره ، وشرف بهاء الدين وأعيد ، وزين ضياء الدين وزيد ، وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الأحماد وسيأتي ذكر ماآلت اليه ذوبته حين كانت أوبته .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان والاستظهار بمجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة الايمان .

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال . في جيش وآل . وجمع حال . وشوكة رائعة . وشكة رادعة . وشارة سارة . وديمه من البأس داره . وعدة منتخية منتخبه . وعدة منتقاه مهذبه . من كل أجدل على مرقب . وأجود على جواد مقرب . وصاف

عتيق على صافن عتيق . وطود ونيق على نيق (٣٧) . وصقر على سوذليق .(٣٨) وبحر على سابح . وجذع على قارح . ومن كل رئبال على تذفل(٣٩) . وأغر محجب على أغر محجل . ومن كل ابيض ضرب بالبيض ضراب . وكل أسمر باسل بالاسمر سلاب . وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعتقل شجاعا . وكل أحمى احمس . وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر . وقسور قاسر . وضيم ضاغم . وقمقام وأقم . وليث به لوثه . وحدث له في الشهامة أحدوثه . واحضر معه من سودان مصر كل ذمر كانه العبسي عابس . وكل مغامر الموت مغامس . وكل غربيب حلكوك . وكل سرحان صعلوك . وكل ضرغام غريفي . ومقدام ريفي . وكل خارح لثار . وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ . وكل رأس في الشر راسخ . وجاؤوا بالغبسة القبطية . والترسة اللمطية . والصلال القفطيه . والالال النوبية . والحراب الحربية والصعاد الصعيدية . والصوارم المذروبة . والصرائم المشبوبه . والاسنة المسذونة . والصوابغ الموضونه . والسراحين السارحة . والثعابين الجارحة . والتماسيح المزدرده . والشياطين المتوقدة . والزانات واليزنيات . والهنديات واليمانيات . وكان يوم وصول العادل مشهودا . لم يترك في كل ما يراد من القوة مجهودا . واقبل في روع ظاهر . وضوع باهر . وبشر ذائع . ونشر ضائع . وحبور تام . وسرور عام . وهزة وطرب . وعزة وأرب . وقلنا سيف الدين المنتضى . وناصر الاسلام المرتضى . وغياث الانام المرتجى . وسلطان جيوش المسلمين المجتبى . لقد نص النصر . وكف الكفر . وسلم الاسلام . ونام الانام . وأمن الايمان . وتسلط السلطان . وحليت الاحوال . وفرغ البال . وبلغت الآمال . ونيل رجاء الرجال . وأزيل إبطاء الابطال . وورت زناد الأجناد . ورويت ظماء الصعاد . فما بعد اليوم . الابعد القوم . وادرك ما استقام من النهج . وهلاك من أقام من الفرنج . ونزل الملك العادل في مخيمه . وقدم اليمن بمقدمه . وتقدم السلطان إلى راجل دمشق والبلاد فحضر . وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخل العدو في كل حين من حين . وفي كل وقت من مقت . وفي كل شأن من شين . وفي كل بقعة من وقعة . وفي كل صقع من صقعه . وفي كل ليلة

من بليه . وفي كل سحرة من كبسة بالنكاية فيهم مليه . والملك العادل يركب في كل يوم ويبلي . ومن جهده في القتال لايخلي . والفرنج على البلاء صابرون . وللعناء والعناد مكابرون . لايبرزون ولايبارزون . ولايجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الاحوال .

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل . ومحاولة أهل الغواية بالغوائل . ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكا المحروسة . براياتهم المنكوسة وآرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة . وظلال الضلال الممدودة . وأقدام الاقدام المصدودة المسدوده . وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه . وبسط الكفر جناحه . وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت . والروعات التي وقعت . أكثر من عشرين الف مقاتل . من فارس وراجل ورامح ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم . ولا أرث الا نار حرصهم . وما فلل حد حديثهم الحادث . ولا قلل عدد كثيرهم الكارث . ولا غضوا عيون أطماعهم . ولا فضوا ختوم اجتماعهم . ولاردوا وجوههم عن مواجهة الردى . ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى . ولو قطعوا بالمدى . وهم لمواضعهم ملازمون . وفي مصارعهم جاثمون . وعلى الموت صابرون . وإلى الحمام سائرون . وبالخنادق من البوائق محتمون . وبالطوارق معتصمون . وعندهم انهم للبلد محاصرون . وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصورون . وإن جندنا لهم المنصورون . والعساكر الاسلامية فيهم كل يوم نكاية شديده . وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية . وجمرة ذاكية . وصدمة صادعة . وحدمة رادعة (٤٠) . ولما امتنع الدخول عليهم . وتعذر

الوصول إليهم . جمع راجـل البـلاد . وحشـد إلى حشـودهم ذوو الاستعداد . حتى نقاتل الراجـل بـالراجل والفـارس بـالفارس . ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقـد وصـل الأخ العـادل وفقه الله المراضي الشريفة . بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحا لأبواب الفتح . ويعجل الليالي آمـال المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بـواحد فينجـع فيه التدبير . ويأتي عليه التدمير . وإنما هو كل من وراء البحر . وجميع من في ديار الكفر . فانه لم يبـق لهـم مـدينة ولا بلدة ولاجـزيرة . ولاخطة صغيرة ولا كبيرة . الا جهزت مراكبها . وأنهضت كتائبها . وتحرك ساكنها . وبرز كامنهـا . ونفضـت خـزائنها . وانفضـت معادنها . وحملت نخائرها . وبذلت اخايرها . وثار ثائرها . وطار طائرها . ونذلت كنائسها . واستخرجت دفـائن نفـاسها . وخـرج بصلبانها أساقفها . وبـطاركها . وغصـت بـالأفواج فجـاجها ومسالكها . وتصابت للصـليب السـليب . وتغضـبت المصـاب المصيب ، ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم . وأن اخـوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجرا . وبحرب الاسلام مجاهرا . ولمتعبده مستردا . ولجده في النخوة لدينه مستجدا . فقد وهبت له نذوبه . ونهبت عنه عيوبه . ومن عجـز عن السفر . سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدره . فجـاؤوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسـين للحـداد . وتـواصلت منهـم الامداد بالامداد . وتـوالت أنجـاد الانجـاد . فهـم على النقص يزيدون . وعلى الأبد يبيدون . وبالمهج يجـودون . وعن اللجـاج في حوض اللجج لايعودون . وهؤلاء الواصـلون في البحـر القـاطعون أثباجه . المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصـلون في البـر فقـد تواترت أخبارهم . بأن خلت منهم ديارهم . ورمتهم إلي أغراضـهم البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر . ويعضل الأمـر . ويصـول الكفر ويجول . ويتطاول الشرك ولكنه لايطول . فـان لدين الله مـن خليفته ناصرا لايسلمه . ورازقا لايحرمه . وما تمسك بحبل طـاعته إلا من فاز قدحه . وحاز السناء مدحه . وأسـفر صـبحه . ووفـر نجحة . وبدا علوه . وباد عدوه . والخادم بقوة رجائه في العـوارف

الامامية . والعواطف النبوية . وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية . الى أن يفرق الجمعين . ويجمع للفريقين القمعين . ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر . ويقطع بقطع دابرهم دابر الكفر .

ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة بالبأس والشدة وكانت عدته خمسين شينا .

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكا قد كتب إلى مصر . بتجهيز الاسطول وتجزيه حياله . وتزجيه أمور رجاله . وتكثير عدده . وتوفير عدده . وإصلاح شؤون شوانيه . واسناء رواسي سواريه . فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره ؛ وشرح لايراده وإصداره صدره . وأنفق من ماله . ما جمع به شمل رجاله . وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته ، وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيهاأحد . ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد . ما سلك نهجا الاملك . ولاطلب غاية الا أدرك . وهو ميمون النقيبه . مشكور الضريبة . وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز . ووقف لهم على الطريق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف . ولم يبق لهم دليلا يعرف . وغزواته مشهورة . وفتكاته مذكورة . وأمواله مبذولة . وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله ، فتولى الاسطول . وجمع به الطول والطول . ووصل به وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب ما تغيب وما تغب . وسفن حمالة ومقاتلة . وبطس للازواد والميرناقلة . فصدمتها مراكبنا بمناكبها . وملأت معاطنها بمعاطبها . واستطال الاسطول المنصور على أساطيلها . وجاء حقه بازهاق اباطيلها . وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما . وقذفت لشياطين الكفر رجوما . واقبلت سواريها بالرواسي . مبرمة الأمراس محكمة

المراسي . وقطعت اللجة بأشباه أمواجها . وسدت فجاجها بأفواجها . ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود . وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود . وطارت بقوادم المجانيف وخوافيها . وزارت بجوارح المقانيف وعوافيها . فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب . وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب . فصدتها وصدعتها . وردتها وردعتها . فكأنما نعت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها . واناحت ظعائن الضغائن على شواني . شوانيها . وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريها . فأول ما ظفر الاسطول المنصور . بشيني للفرنج عظيم الشأن . عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتلته . وتبع ما يليه . فوقعت بطشته الكبرى ببطسه كبيرة . تشتمل على ميرة لهم ونخيرة . وأمتعة كثيرة . وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ . وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محسورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم . وايقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار . وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول انشأتها فيها

منها فصل:

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة . وجموعهم متكاثفة . استدعينا الاسطول المصري المنصور فجاءها فجاءة . وامتدا سطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءة . وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص . وصدمت شوانيه شواني الشناة فعادت مراكبهم وهي نواكص . وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبة . وأطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لا

لاغبة . وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة . وألهبت في الماء على أهل النار كل نار للنكال مسعره . وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت . وعملت ما شاءت . وتبعتهم مرارا وبالغنائم فاءت.وأعشت أعين الرائين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعا . ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الاسطول المصري بالسطو الشديد والبأس القوي . فارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع . وذل جمع الكفر لعزه الجامع . وجاء بكل شيني شاني . لشانئ الدين واجيء مفاجع العدو بالهلاك مفاجيء . مفرق لمراكب الشرك المجتمعة . مضيق شاهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها . ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة . ولامداد اعانتها ممن وراءها مستمدة . وقتل من فيها من الرجال . وغنم ما وجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى:

وصل الاسطول المنصور في كل شيني شاني للشرك شائن . زائد لبهجة الاسلام زائن . زائر بكل أسد زائر . سائر بكل مقدام إلى مقام الاقدام سائر . وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها . وأرهقت غروبها وسنمت غواربها . وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض . وأرجلها على الثبات في روابي متون سفنها روابض . وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه . ويلقوه وبالمدافعة ويجاولوه. فلما وصل وصال . وراع أمره وهال . وجلا عليهم

الاوجال والآجال . بتوا المراسي والحبال . وانهزموا بسفنهم وآذنت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوءة وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها . وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والذخائر والعدد .

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث . وتبحرت السهول . والوعوث . وحالت الاوحال ولاحت على خلاف المراد الاحوال . وتعذر الخروج إلى تلك المروج . وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج . وزال حكم النزال . واستقال من استقل بالقتال . شرع السلطان فيما هو أنفع واجدى وأنجع وأنجى . وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى . وهو تقوية عكا بالميرة والذخيرة . والاسلحة الكثيرة . والرجال الحماة . والابطال الكماة . فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الامثلاء بأجنادهم . فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده . فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحري حربي . على الجري إلى الموت جري . فامتلأ البلد بكل منتخب منتخ . مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنيقات . والرمي في العرادات . والحذف بالنفاطات . والاحراق بالزراقات . والزرق بالمحرقات . والقاء القوارير . واذكاء المساعير وتطريح النار . وتطويح الاحجار . ومواصلة القطاعات . والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروخ والزنبوركات . وتطيير الناوكات . الذواكي من مقاتل العدو الى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقذ . والجد في الجد والجذ . وطروقهم ليلا على سبيل التلصص .

وسوقهم على وجه التصيد والتقنص . وكبسوا ليلة سوق الخمارات والسواهر . وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا .واجترأوا منه على ما أجروا . وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين . ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه . ومن تعذر عليه اخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بمد مديته . ويسلبه سكونه بسكينه . ويجعله ان لم ينجذب معه من حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر . ويجذبه بخدام الأسر . ووقع القوم من هذا في بلاء مبل . وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز . وشق عليهم الاحتراس والاحتراز . وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق . وازداد فرقهم من كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار . والمكابرة والجهار . حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الانهار . فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امراة افرنجية مستحسنة . متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر . وانتدبن واغتربن لاسعاف الغرباء . وتأهبن لاسعاد الاشقياء . وترافدن على الارفاق والارفاد . وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية . زاهية هازية . عاطية متعاطية . خاطية خاطية(٤١) . متغنية متغنجة . متبرزة متبرجه . نارية متلهبه . متنقشة متخضبة . تائقه . فائقه . راقعة خارقة . مارقة رامقة . قاسرة سارقة . فارجة فاجرة . فاتنة فاترة . مشتهاة متشهية . ملهاة متلهية . متفننة متفتيه . ناشية منتشيه . متشوقة متسوقة . مقترحة محترقة . متحببة متعشقه . حمراء مرجاء . نجلاء كحلاء . عجزاء هيفاء . غناء لفاء . زرقاء ورقاء . متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها .

وتسحر بنضارتها نظارتها . وتثني كأنها غصـن . وتتجلى كأنهـا حصن . وتميس كانها قضيب . وتزيف وعلى لبتها صـليب . وهـي بائعة شكرها بشكرها . باغية كسرها في سـكرها . فـوصلن وقـد سبلن أذفسهن . وقدمن التبذل أصونهن وأذفسـهن . وذكرن أنهـن قصدن بخروجهن . تسبيل فروجهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان . ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان . وتفردن بمـا ضربنه من الخيم والقباب . وانضمت اليهن اترابهن من الحسان الشواب . وفتحن أبواب الملاذ . وسبلن ما بين الافخـاذ . وبحـن بـالاباحة . ورحن إلى الراحة . وأزحن علة السماحة .وذفقن سوق الفسـوق . ولفقن رتوق الفتوق . وتفجـرن بينابيع الفجـور . وتحجـرن بنزو الفحول منهن على الحجور . وعرضـن الامتـاع بـالمتاع . ودعون الوقاح إلى الوقاع . وركبـن الصـدور على الاعجـاز . وسـمحن بالسلعة لذوي الاعواز . ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقـراط . ورمن فرشهن على بسـاط النشـاط . وتهـدفن للسـهام . وتحللن الحرام . وتعرضن للطعان . وتضرعن للاخدان . ومـددن الرواق . وحللن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للاوتـاد . واسـتدعين النصول منهن إلى الاغمـاد . وسـوين أراضـيهن للغـراس . واستنهضن الحـراب الى التـراس . واسـتنفرن المحـاريث إلى الحرث . ومـكن المناقير مـن البحـث . وأذن للرؤوس في دخـول الدهاليز . وجرين تحـت راكبيهـن على ضرب المهـاميز . وقـربن الاشطان من الركايا . وفـوقن النبال في أعجاس الحنايا . وقـطعن التـكك . وطبعـن السـكك . وضـممن الاطيار في أوكار الاوراك . وجمعن قرون كباش النطـاح في الشـباك . ورفعـن الحجـر عن المصون . وترفعن عن ستر المكنون . ولففن الساق بالساق . وشفين غليل العشاق . وكثرن الضباب في الوجـار . وأطلعـن الاشرار على الاسرار . وطـرقن الاقـلام إلى الادوية . والسـيول إلى الاودية . والجداول إلى الغدران . والمناصل إلى الاجفـان . والسـبائك إلى البواتق . والزنانير إلى المناطـق . والاحـطاب إلى التنانير . وذوي الاجـرام إلى المطـامير . والصـيارف إلى الدنانير . والاعناق إلى البطون . والاقـذاء إلى العيون . وتشـاجرن على الاشـجار .

وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قربة ما وفوقها قربه .
لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه . وسقين الخمر . وطلبن
بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية . وعجبوا
كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية . وأبق من المماليك الاغبياء
والمدابير الجهلاء . جماعة جذ بهم الهوى . واتبعوا من غوى .
فمنهم من رضي اللذة بالذلة . ومنهم من ندم على الزلة فتحيل في
النقلة . فان يد من لايرتد لاتمتد . وأمر الهارب اليهم لاتهامه يشتد .
وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت
منها الأعزب حرج . وما ازكاها عند القسوس إذ كان للعزبان
المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضا في البحر . إمرأة كبيرة
القدر . وافرة الوفر . وهي في بلدها مالكة الأمر . وفي جملتها
خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم . وغلمانهم واشياعهم . وهي
كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة . زائدة بما تدفقه فيهم على
المعونة . وهم يركبون بركباتها . ويحملون بحملاتها . ويثبون
لوثباتها . وتثبت ثباتها لثباتها .

وفي الفرنج نساء فوارس .لهن دروعوقوانس .وكن في زي الرجال .
ويبرزن في حومة القتال . ويعملن عمل ارباب الحجا وهن ربات
الحجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة . ويخلن أنهن يعقدن به سعادة .
ويجعلنه لهن عادة . فسبحان الذي اضلهن . وعن نهج النهى
ازلهن . وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة . لهن بالفرسان أسوة .
وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كسوة . فما
عرفن حتى سلبن وعرين . ومنهن عدة استبين واشترين . وأما
العجائز . فقد امتلات بهن المراكز . وهن يشددن تارة ويرخين .
ويحرضن وينخين . ويقلن ان الصليب لايرضى الا بالاباء . وانه
لابقاء له إلا بالفناء . وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء
فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن
للغيرة على الملة ملان الغيرة . وللنجاة من الحيرة ناجين الحيرة .
ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن . ولما ضامهن من الامر تبلهن
وتبلدن

ذكر ماأهداه عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدة . وتقوية النجدة . بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة . سير من أحمال النفط الابيض مع عزة وجوده ما وجده . ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده . وشاع الاعتداد . وذاع الاحماد . ودل ذلك على اتشاج الوداد . والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح . وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح . واستجيدت التراس والرماح وفارقت للقائها أجسام الاعداء الارواح واتصل بالنفط الواصل إلى أهل النار الاحتراق . وطغت وضربت منهم النحور والاعناق . وقد هدا بما أهداه النصر إلى الهدى . والردى الى العداء . وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جاد بما أجدى.واهدى ما هدى . وعاد من المكرمة بما بدا . لاأخلى الله المجلس من يد يتخذها . وأياد يسيرها وينفذها . ومحمدة يستخلصها لنفسه ويستنقذها . وحمية للدين يقم بها حماة الشرك ويقذها . ونخوة للاسلام تمهي حدود الهمم النابية وتشحذها . وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة . والضرورة الشاقة . فان الحروب المتطاولة المدد . أتت على جميع العدد . فالسمر متحطمة . والبيض متثلمة . ووجوه الصفاح بلثام النجيع متلثمة . وعيون النصال عن حواجب القسي إلى مقل الاقران رامقة مارقة . وحمام الحمام في مريشات السهام بكتب الكبت من حنايا المنايا السائقة

سابقة . وقد أفنى المصال النصال . والنضال النبال . والرماء الافواق . واللقاء العتاق . والمصاع المناصل . والقراع الذوابل . والصيال الصواهل . وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر الا وهو وإن كان غالبا لاغب . ولاصارم الا وهو في دم العدو الفائض ناضب . ولاجارح إلا وهو مجروح . ولاقارح الا وهو مقروح . ولاجامح الا وهو مصحب . ولاباشر الا وهو مقطب . فباية عدة من هذه العدد انجد . غار الحمد وأنجد . وتاسس الشكر لانعامه وتمهد . ومن العجب أن العدة تفنى ولاتفنى العداة . وتنمو على الحصاد وكأنها النبات . ويتسارع الى أمدادها الموت والهلاك ويخلفها في إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم . والكفر إلى الردى يردهم . وكلما اخلقتهم الايام فان الليالي تجدهم . وما جمعهم القدر إلا ليفرقهم . وما حمل أهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره . وقدم عليه قطب الدين ولده وسيره . فقال السلطان هذه أيام الشتاء . ولاينتصف فيها من الأعداء . ونحن محتاجون الى العسكر في الربيع . واستنهاض الجموع الى شمل النصر الجميع . فكتب بتاخيره . والتمهل في تسييره . فتاثر قلب عماد الدين برد ولده . ورجوعه بعد المسير من بلده .

فكتب اليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بامره . والتقدم بتجهيز العسكر الى نجدته بكل ما يعود بسرور سره وانشراح صدره .

وعرف مسيره قطب الدين ادام الله له مضاعفة العلاء . وأقر باذواره عيون الاولياء . وظن انه لم يقدم حركته المقـرونه بـالحسنات . ولم يقرب من عبر الفرات . اشـفق عليه مـن التعـب . ليكون عسـكره مستريحا عند الطلب . فإن الحاجة اليه في الربيع أدعى . ومصـلحة الاسـلام في ذلك الاوان أولى أن تـراعى . ولو عرف أن الركاب القطبي قد دنا . لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بـالنفوس والارواح . وتلقتـه القلوب بـالقبول العبـق بنشر الاشراح . وان اشتغل القلب بما فاته من حظ من الاستسعاد بـوفوده . فقـد بشر أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده .

وفي آخر هذه السـنة ندب الرسـل الى الاقـطار والامصـار . للاستنفار والاستنصار . وبث الكتب وكتب بالبث . وحـث الرسـل وأرسل بالحث . وبعث المسرعين لاستبطاء البعـث . وانهض للتبليغ كل بليغ . وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسـيغ . وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن . وشرح في الكتـاب اليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جلية الحال . وما نحن عليه من دوام القتـال . وطلبـت منه الاعانة بـالمال . واسـتعين واستنجد . واستلين واسـترفد . وحض على حـظه مـن انجـاد الاسلام . وان يكشف بسني طلوعه من الاظلام . وأرشد الى نهـج السماح . وتسيير كل ما يقدر عليه من العـدد والسـلاح . وتجـريد الجرد العتاق . وتوفير الحمـول التـي تخـرجها في سـبيل الله يد الانفاق . وكوتب قزل ارسلان بهمذان . بمـا دنا منه عزمـه ودان . وحكم على كل ملك بحجة الايمان . وهدي إلى محجة الاحسان .

ذكر وصول رسول سلطان العجم ركن الدنيا والدين طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل الاحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم . أمير من خواصه هو أيلدكز أمير العلم . فضرب له من الخيم الخاصة سرادق . ووفرت في الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته أنه خانته من امرائه ومماليكه العامة والخاصة . وخصته في سفراته ونكباته الخصاصة . وان عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه . وضيق عليه سعة مسالكه . والجاه الى هذا الالتجاء . وهو بقوته من هذا الجانب قوي الرجاء . وقد وصل الى حد مملكتك بقرب اربل . واراد الوصول الى الموصل . لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم دولتكم . والمستمسكين بعصمتكم . والمستوثقين بذمتكم . وانا عنده مقيم . وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتني اليك قدمت . وان أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت . وانا الآن هزيل عامك . ونزيل إنعامك . ووصل معه كتاب بخطه . قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة . واستدعى الاعانة . واردف رسولا برسول . وكرر سؤالا فيما التمسه من سول . فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل . وانه لامطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب إلى زين الدين يوسف صاحب اربل والى حسن بن قفجاق والى نائبه بشهر زور بالتوفر على خدمته . والارتياد لمصلحته واشاعة معونته . ثم ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد،كونه نسيبي . ليكون القيام بهذا الامر من نصيبي . وسعى في المصلحة والمصالحة . والمصافاة على صفقة المودة والمصافحة وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه . وسياتي ذكر ما آل اليه الامر في موضعه .

وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمنزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ولقد كان من الاعيان . ومن مقربي السلطان . ومن أهل الجد في نصرة الايمان . فنقله الله الى الجنان . وحمل من يومه الى القدس فدفن به . وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن ابي عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله . ودفن معه فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الأخيار . والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الافضل والملك المظفر في خيمته المضروبة . وعكا محصورة . وجموع الفرنج الى حصارها محشورة . وعلى تعذرها عليهم محسورة . وخرجت هذه السنة والحصر مستمر . والسلطان في ملازمة القتال مستقر . وحيا النصر في الاحيان مستدر . وقد تسنت للاسلام مباهج . ووضحت للسعادة مناهج . وبانت للقتال مداخل ومخارج . وانقطعت بين الوشيج وأرخام الارواح وشائج . واشتدت لتباريح الأشواق الى لقاء الاعداء لواعج . وتالفت في الاقدام مقدمات ونتائج . ولمناجح المنى منا في مدى الرجاء مدارج . ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج . وللجهاد جهات . وللعزمات أزمات . واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات . ووقعت عجائب . وأعجبت وقائع . وأبدعت غرائب . وأغربت بدائع . واجتمعت كتائب . ونابت نوائب . وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الاقدار . وتباعدت الاكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع عدد لايقع عليه الحصر . ولكم أسفر صبح أصحب فيه جماح الظفر وسفر النصر . وسيرد حديث كل حادث بمفرده . ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده .

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب احيانا للصيد . بعد ان يحذر على مـا يظهـر العدو من الكيد . وهو لايبعد من الخيم . ولايقرب من مسائل الديم . وركب يوما في صفر على عادتـه فتصـيد . وطـاب له قـرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة . على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقـت العصر في عدد لايدخـل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فـزحفوا اليهـم . وحملوا عليهـم وطردوهـم إلى خيامهم . وأخذوا عليهـم مـن خلفهـم وأمـامهم . ومازالت بينهم حملة وحملة . وشلة وشلة . وسلة وسلة . وركضـة وركضة . ونفضة ونفضة . ومشـقة ومشـقة . ورشـقة ورشـقة . وجذبة وجذبة . وضربة وضربة . وشدة وشدة . وردة وردة . وضمة وضمة . ولمة ولمة . وأصحابنا ظاهرون . وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العدو قلائع . وللفرنج في كل كرة على الرمل مصـارع . حتى فني النشاب وبقي الانتشاب . وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب . والفرنج لايعجزهم الا الرمـاء . ولا يهتكهم إلا الاصماء . ولايذفـرهم الا رنة الاوتـار . ولاينذرهـم الا انة القسي بـالدمار والبوار . فلما آنسوا بخلو الجعاب . تجاسروا على الدنو مـن تلك الشعاب . وحملوا حملة واحـدة ردوا بهـا اصـحابنا الى النهـر . وكادت تعبث بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صـف مـرصوص البنيان . واشرعوا الى نحـور تلك الذئاب ثعـالب الخرصان . واستشهد جماعة مـن الشـجعان اسـتحلوا طعـام الطعان . وشاقهم جني الجنان . وذلك انهم لما ردوا الفـرنج قلعـوا فرسانا . وصرعوا اقرانا . فنزلوا بعد فرسهم . لسـلب لبسـهم . فمرت بهم الحملة في الاوبة . وأعجلتهم عن الركبة والوثبـة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان . واجتمع في مراكزها الفريقان . وكثر التاسف على من فقد . وكان الحاجب ايد غمش المجدي ممـن استشهد . وزاد التلهـف على فـوات الفـرصة . وكيف أغفـل ذلك القنص عن تلك القنصة . فان العـدو صـار عرضـة للصرعة في تلك

العرصة . ومن نوادر هذه الوقعة . وطرائف هذه الدفعة . ان مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر . وهو يتطاول في كل معترك ولايقصر . عثر به جواده . وثبت على الجرأة فؤاده . ورجله عثاره . وأسلمه أنصاره . فقبض من أسره شعره ليجذبه . وسل آخر سيفه ليضربه . فضرب يد قابض شعره فسيبه . واشتد سرا سنقر يعدو ناجيا والخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه . وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المذون من لهاتها بعد ازدراده . وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

ذكر فتح شقيف أرذون

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف ارذون . واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون . وصاحبة ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل . وباب خلاصة دون فتح شقيفه مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فني زاده . وعز اجتهاده . ومرد عليه في الحفظ مراده . وخانه في الصبر ارتياؤه وارتياده . فسلمه على أن يسلم صاحبه . وتخلص في النجاة مذاهبه . وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه . وتركه للاسلام بما يحويه . وافرج عن صاحب صيدا وصار الى صور . ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور .

ذكر حال عكا ودخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتنم هيجان البحر . وحضور مراكب الاسطول من مصر . فمازال يقوى عكا بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها في المراكب . وقد ملأها بالذخائر والاسلحة والكمات المساعير والحماة المحارب . فلما سكن البحر . وأمن غائلته الكفر . عادت مراكب

الفرنج الى مراسيها . ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مـراكبنا في موانيها . وانقطع عنا خبر البلد . وامتنع عليه دخول المدد والعـدد . فانتدب العوام للسباحة . وحملتهم الســباحة لهـم بـالرغائب على وضع المنهج في ميزان السماحة . وعلموا انهم اذا سبحوا ربحـوا . واذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صـاروا يحملون نفقـات الاجناد على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتبـا وطيورا . ويعودون بكتب وطيور . ونكتب اليهم ويكتبـون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور . ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور . وكان في العسكر مـن اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجا من خشب . وهرادي من قصب . ويدرجهـا على الطيران مـن البعـد . ويوردها لشبعها وريها احب الحب واعذب الورد . وكنا نقول ماهذا الولع بما لايدفع . والوله بما لاينجـع . حتـى جـاءت نوبـة عكا فدفعت . وشفت الغلل ونقعت . واتت بـالكتب شـارحة سـارحة . ووفت بمفاتيح الغيب بالبشرى مفـاتحه . فصرنا نحبـو صـاحب الطيور بالاطراء . ونخصه بـالمدح والثناء . ونامـره بـالاستكثار . ونطلبهامنه مع الليل والنهار . حتـى قـل وجـودها عنده لكثـرة الارسال . وكنا نعرف بها جلية الاحوال . ونعلم ان الله علمـه ذلك البر . والهمه ذلك السر . فانه اطلع على مـايدفع اهـل الاسـلام . فحمى حمي هداهم بهداية الحمام . فانها امينة على الاسرار ضمينة بالاسفار . قمينة بكرامة الاحرار . مصونة من بين الاطيار . جريئة على الاخطار . بريئة من الاعذار . معدودة من الانخار . مودودة مع الاخيار . وحمام البلد الينا مع العوام محمـولة . وعقـود الاكياس عليهم محلولة . والضرورة تحمل على تحمل الضرر . والغرارة تبعث على الانبعاث الى الغرر . والفقر يدعو الى ركوب الخـطر . وفيهـم من سلم مرارا من القوم . فاجترأت نفسه وأنس بالعوم . ولقد عطب عوامون . بالامانة قوامون . فما ارتدع الباقون . وما قالوا انهم لما لقي رفقاؤهم لاقون

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر . وانتشى الربيع وانتشر . أمر السلطان عساكره بالعود فتوافت أمداد أجوادهم توافي امداد الجود . فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة . وهو بأكمل العدة وأحسن الاهبة . وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وهو الذي ببسالته يقسر الليث القسور . وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام . الهمام بن الهمام . والكريم بن الكرام . والاسد الضرغام والسيد القمقام . ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان . وحشود من العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء . واكتسى برياشهم العراء . وكثرت الجنود . وانتشرت البنود . وحلقت عقبان الالوية . وتلاحقت ذؤبان الاودية . ولمعت بوارق البيارق . وارتفعت عوائق البوائق . وحملت بواسق السوابق . وثبتت وثائق العلائق . ونبتت شقائق العقائق . ونظرت أحداق الحدائق . ويسرت طرائق الطوارق . واعجبت أزهار الرايات وانهت غايات الغايات . ونزلت بحسن الصنيع نصوص النصول . ودارت بيد الربيع فصوص الفصول . وعلت الاعلام . وحلت الاحلام . وومضت المواضي ومضت . واقتضت القواضب القواضي وقضت . وعريت البيض من الحلى . وغربت السمر بالكلى . واشتاقت لدات اللدان الى العناق . وتاقت شفاه الشفار الى لثم الاعناق وتحدث في المجاراة باجراء العتاق . وطالت رقاب الرقاق الى غلاظ الرقاب . وأعجم عن جمجمة الجماجم اعراب العراب ، وحمي عزم البطل . ومحي رسم الملل . وعاد الجد الى جدته . والحد الى حدته . وخرج البرد من عدته . وفاز النصر بعدته . وجليت بنت الغمد في زي الهند وري الفرند . وقطف ورد الورد للشد الى الورد . وقال الناس إلام ننتظر . وعلام نصبر ولم لانشتغل وكيف لانشتعل . وحتام القعود . ومم الركود . ولماذا الرقود . وقد نظرت السعود . ونضر العود . وصدقت من

أصحابنا الوعود . فرحل السلطان وتقدم . وعزم علي طلب العدو وصمم . ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول . في الفصل الاعدل والفضل الاكمل . وتدانى العسكران . وتعالى العثيران . وتقارب القرنان . وتحارب الحزبان . وترتب العسكر الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا . وفي ركوبه على تريب منازلهم طلبا طلبا . فكان الملك المظفر تقي الدين في آخر الميمنة الميمونة . والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصونة ، والملك الافضل في اول ميمنة القلب وأخوه الملك الظافر في اول ميسرته على الجنب ، والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء بالنقع الثائر منقبة ، والارض بوقع الحافر مثقبة ، والعساكر مترادفة مترافدة . متتابعة متواردة ، متسابقة متلاحقة ، متناسبة متناسقة . متوالية متوافية ، متجارية متبارية ، منقضة كالبزاه ، منفضة الى العداة ، داعية الى الانتصار ، عادية على الكفار .

ذكر وصول رسول دار الخلافة
مع ضياء الدين الشهر زوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرأفة ، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام . فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام ، واحتفل لوصوله . واستقبله لقبوله ، وتلقاه الامراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من وقف له بالقريب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد . وماجدا بعد ماجد . وبادئا بعد عائد . ثم ركب السلطان اليه عند القرب من سرادقه . وأدناه اليه بتعانقه ، ثم سار معه قليلا (٤٢') وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا . حتى نزلوا به في بار كاه له مضروب ، وخصه بصنوف من الالطاف وضروب ، ووصل معه حملان من النفط الطيار . وحملان من القنا الخطي الخطار ،

وتــوقيع بعشرين الف دينار . تقتــرض على الديوان العــزيز مــن التجار ، وخمسة من الزراقين الذفاطين المتقنين صــناعة الاحــراق بالنار . فاعتد السلطان بــكل مــا أحضره . وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره . غير انه ابدى رد التوقيع مع الصنيع ، وقال كل مــا معي من نعمة امير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شــملني مــن عاطفته ، ولعل الله يوفقني للقيام بــالفرض ، ويغنيني عن الالتــزام بالقرض ، وأركب الرسول مرارا معه واراه مبارك النزال . ومعارك القتال . ومصارع الرجال . ومجامع الابــطال . ومــطالع اللقــاء . ومواضع الهيجاء . ومصالت الاقدام . ومنابت الاقــدام . ومــواقف الصفوف . ومصاف الوقوف . وأماكن البعوث . ومكامن اللبــوث . وتل الفضول . وبقية التلول . حتى يشــهد بمــا يشــاهد . ويبين له المجتهد والمجاهد . وأراه ما لم يره لياثــر أثــره . ويخبــر بجملتــه ويجمل خبره . وأقام الرسول طويلا . وأقام له السلطان من طــوله دليلا . ووفر له عطاء جزيلا . وعرفا جميلا . حتى استأذن في العود فعاد . واستصحب الشكر والاحماد .

ذكر مقاتلة الفــرنج عكا بــالابراج والاعجــاز بهــــا والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار . شرعوا في عمل الابــراج الكبــار ، وركبوها من الاخشاب الطوال . والعمد الثقال . وبنوها وقدموها ، ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طبــاقا . وســمروها بــالحديد . وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثــاقا . ولبســوها بالسلوخ ، وملأوها بالجروخ . وزحفوا بهــا الى الســور وكشــفوا بــــالرمي منهــــا بعض ســــــقوف الدور . وتســـــاعدوا على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق ، ووصل من المدينة عوام ، يخبر بان التلف بها حوام . وان البلد قد أشرف . والخــطر قــد أسرف . والابراج علت . والاسوار خلت والبلاء قد عم . والخندق قــد طــم .

وأنتــم إن تــم هــذا عراكم العــار . واظلم على الدنيا والدين بليله النهار فاحتمي السلطان واحتد وشد واشــتد وكرب وركب وكان يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحــف الى الفــرنج ليشــغلهم عن الزحف ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين مــن ربيع الاول يوم الجمعة . بــالجحافل المجتمعــة . والغمــاغم المرتفعــة . والصوارم الملتمعة . والصلادم الممتنعة . والأسنة المشرعة والاعنة المسرعة . والحوائم المنتجعة من النجيع . والبيارق المختفقة كأزهار الربيع ، واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين . صاحب دار محمود ابن بهرام الارتقي . بالجمع الوافر الوفي والعسكر النخي الذقــي ، وسار الى القتال على حاله . بخيله ورجاله . وضــايقهم الســلطان مضايقة عظيمة . ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمة . حتــى دخل الليل . ولغبــت الخيل . فقــوى تلك الليلة اليزك . والزمهــم في الحفظ الدرك . ورجع الى مخيمه مساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور نحوهم مجاهرا . فلما اصــبح يوم الســبت صــبحهم بــالحرب . وسبحهم على بحــر الكر والكرب . ورجــل الرجــال اليهــم .وانزل النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد النقع . واتسع خــرق الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم . وقد انقرض القــوم . وتفــرق الجمعان وقت العشاء . عن قتيل غريق في الدمــاء . أو جــريح على بقية الذمــاء . وبــات الناس في الســلاح شــاكين . وبنار المذاكي ذاكين . ولما تم منهم وعليهم حاكين . ورجــع الســلطان الى خيمــة ضربت له على تل العياضيه . وقد الزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع في رياض الاخلاق الرياضية . وأصبح يوم الاحد راجعــا الى قتــال أهل الاحد . واستن من الجد على انهج الجدد . وامر بانتقال السوق الى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الاظهر . والظهــور الانضر . واقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل . ويعد ويقاتل . ثم نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الاثقــال الى المخيم لئلا يغيب حاضر . ولايصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين . ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهــم معــاشرين . فانتدب منهم الى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح . وكل محتــرق

على نار الهيجاء للهياج مقترح . وكل وقاح بـالحراب وقـاع . وكل صرار بارداء الكفرة دفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لغـام .
وكل أسـ ــد غدا الى

الشـد له في حـومة المأزق زئير وبغـام . وكل متـلاف الغيرة غير متلاف . وكل جاف عن سوى السوء متجـاف . واخـذوا مـن بيت السلاح السيوف والتـراس . وطلبـوا بقصـد العـدو الاقتناص والافتراس . وابلوا بلاء حسنا . واوضحوا بالنكاية في العدو سننا . ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين . عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحـاصرين . وان البلد ضـويق . وان العـدو المخذول يحيق به كيده وان حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتـاله . ويكفـه بنزاله عن نزاله . وجـدد الكتـب الى الامصار . بالاستنفار والاستنصار . فـاول مـن وصـل ولده الملك الظاهر صاحب حلب . وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وتفرد بوصوله . وحظي من نظر والده بسـوله . وذلك يوم الجمعـة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره . وجاء يوم السبت في حسن منظره واحسان اثره . في منظـر ناضر . ورونق حـاضر . وجمـع كثيف . وحشد لفيف . وبهجة رائعة وروعة مبهجة . وهيأة معجـزة وهيبة للعدو مزعجة . وصولة دائلة . ودولة صائلة . ورقاق وذوابل . وعتاق وصواهل . وعوابس وعواسل . وشعوب وقبـائل . وقـدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك وهو صاحب حـران جـريدة . وقد استأنف الجهاد عزيمة جديدة . ثم عاد الى عسكره ليقـدم بـه . ويحضر بجنده وتركمانه وعر به

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ما كان و من كان في طباقه .

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثـامن والعشرون تتابعت بـظهور دلائل النصر وتناصر اسـباب الظهـور المبشرون .

فنظرنا والنار من احد الابراج في السماء بشعلها متسامية . وفي الجو بشرارها مترامية . ومايدرى ماسبب هذا الحريق . وكيف تيسر هذا التوفيق واحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار . وقلوب المشركين لاستعارها في استعار . ووجوه المؤمنين لاذوارها في استبشار . ثم راينا البرج الثاني وهو يحترق . والنار في اثنائه تحترق . ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل . وبألسنة النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها ، وبلغت الينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها . وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشائر النار . ونسير بطاقاتها على أجنحة الاطيار والعجب ان الأبراج كانت متباعدة غير متدانية . وقد أبعدها الفرنج لمسافات متنائية ، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف اسواره وكسفه ، فاحترقت على تباينها في وقت واحد . وقدر من الله وارد ، فلم يكن ذلك الاسرا الهيا . ولطفا ربانيا . وفرجا بعد الشدة . وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقده ، وكان سبب حريقها ان رجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان قد استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد ، واقام فيها باذلا للاجتهاد ، وغري بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره ؛ وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره ، وتقدير معاييره ، والناس يضحكون منه . ويغضون عنه . ويقولون هذا يضيع ماله فيما لايعنيه . وماهذا الهوس الذي وقع فيه . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويجد في تلك الادوات ، ويكثر القدور . ويرتب الامور . فلما قدمت الى البلد تلك الابراج ، وحصل من الامتزاج الامتزاج . قوتلت بكل فن ، وادنى اليها من النفط كل قدر ودن . ورميت بكل قارورة محرقة . وكل نفاطة مرهقة . وبالغ في صنعته الزراق فلم يتم في شيء منها احتراق . ووقع الياس . واستسلم الناس . فمضي ابن العريف . بل ابن العريف . الى بهاء الدين قراقوش الامير وقال قد رأينا مااعترض من التدبير . وماعرض من التقدير . فافسح لي في رمي هذه القدور . فلعل الله يأتي منها بشفاء الصدور . فاذن له على كره . وقال مااري لاحراق هذه البروج على يده من وجه . فان الصناع قد ابلسوا والزراقين العارفين بالصناعة يئسواه فلما وجد الاذن وزن القدور وعيرها

ورمى بواحدة منها الى احد الابراج في المنجنيق وعبرها واعتبـرها ثم لما استوت رمايته وصحت في الاصابة درايته . رمى بقدور نفـط لانار فيها . وهو يصـبها على اعالي البـرج ويسـقيها ، والفـرنج يعجبون من البلل ولايدرون بما وراءه من الشعل ، ثـم قـذف بقـدر ناريه ، متشبعة بكل بلية فوقعت في الطاقة الوسطى ورمـى اخـرى فوقعت في السفلى . فاشتعل البـرج مـن طـرفيه الادنى والاعلى ، وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سـبعين . فـاحترقوا اجمعين . ودخل اليه ايضا جمـاعة لاسـتنقاذ مـافيه فـاحترقوا بدروعهم وسيوفهم . وتقلبت الجحيم عليهم غيظا لاستبطاء حتوفهم . وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني . ولم يلحقه في احـراقه التواني ، وانتقل الى الثالث فأحرقه . وماكان ذلك بصنعته منه بـل لان الله وفقه . ومازالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها رمادا ، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الارض سـوادا . واحترقت المجانيق والستائر التي كانت بقربها . (وبهت الذي كفر) (البقرة ٢٥٨) واسف على نصبه في نصبها . وخمد الكفـار بـذلك الضرام ،وسلوا عما كانوا فيه من غرام . وحبطت اعمالهم . وخابت امالهم . وركدوا بعـد حـربهم ، وركنوا الى خـزيهم ، وضـلوا في سعيهم . وتورطوا في بغيهم . وسقط في ايديهـم بسـقوط ايديهـم وحيق مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم ، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدوا الثغر ، واظهروا بظهور القدر القـدر ، وجـاؤوا الى مواضع الابراج واماكنها واسـتخرجوا الحـديد مـن مـكامنها . ونبشوا الرماد عن الزربيات التي انسكبت ، وكشفوا عن السـتائر التي تهتكت . فاخذوا ماوجدوا وحصلوا على ماذشدوا وأتـرب مـن ترب من تراث ذلك التراب . وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخـراب . وبردت من حر تلك النار . وشفي أوامها بـذلك الاوار . والحمـد لله الذي جعل تلك النار لاوليائه بـالبرد والسـلام ابـراهيمية . وعلى اعدائه بالحر والضرام جحيمية .

ذكر فصول أنشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما اجده الله من الجد . وانجزه من الوعد . واجزله من الرفد . واعذ به حال الظما البرج مـن الورد . وذلك مـاظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الاول من الاتفـاق الحسـن . والنصر الذي يقصر عن وصفة ذوو اللسن وهو ان اصـحابنا بعـكا رمـوا بقدور النفط عند العدو المدحـور . واحـرقوا جميع مـالهم مـن المنخور . واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها . ودبابات قـربوها . ومنجنيقيات نصبوها . ولهم منذ تسـعة اشـهر يجمعـون هـذه الالات . ويستسهلون عليها الغرامات . حتى اقدموا ابراجا اعلى من ابراج السور بضعف سـمكها وقـربوها ناكية في الثغـر المحـروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها . واطلوا على مناكب البلد اعناقها . فاشفق الاسلام مـن نكاياتهـا . واظلت الافـاق مـن غياياتها . وكشفت من البلد جانبا وجبت من سوره غاربـا . فـاقدر الله على احراق ماعمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وامسى العـدو بقلوب وافئدة مرتابة مرتاعة . ومافصح ألسـن النيران . على تلك الاعواد خاطبه . ومابسط ايديها على من كان فيهـا مـن الرجـال للارواح ناهبة سالبة

فصل

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذي ورت زناده . والنصر الذي قـرب ميعاده . وذلك ان اصحابنا بثغر عكا استظهروا وظهروا . وصـبروا فانتصروا . ورموا من البلد ابـراج الفـرنج المنصـوبة عليه بقـدور النفط . وانزلوها من سماء الرفعة الى ارض الحط . واطالوا بهـا ألسن النار المنصرمة . ودبت مـن الابـراج المقـربة الى الدبـابات المقـدمه . وعلم العـدو ان كرتـه خـاسرة وان يده عن نيل المنى قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني . والنجع السني والذور اللامع من النار . والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور اصحابنا بعكا يوم السبت ثامن عشري ربيع الاول . وقد خصهم الله بالنجح الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم ابراجه وسلك في المضايقة منهاجه . ولزم في الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر . ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر . فطالت السنة النيران تدعو على اهلها بالبوار . وتبدي في تضرمها تضرعها الينا للاعتذار . وشاهد اهل النار ما اعد لهم في سقر . وتلونا قول الله سبحانه فيهم:كذلك نجزي من كفر (٤٣)

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر اهل الجمعة على اهل الاحد ورمى اصحاب المحصورون المنصورون عدد العدو وابراجه بقدور النفط من البلد فخطبت السنة النيران على تلك الاعواد . بل على تلك الاطواد . والحقها رداء الردى والحقتها بالوهاد . وفرشت رمادها لما تم اولئك المراد . فكانت تلك النار على الكفر ضراما . وعلى الاسلام بردا وسلاما . واحترقت الابراج الثلاثة على معتقدي التثليث . ودبت النار الى الدبابات والمنجنيقات بصدمه المنجنيقات .ودبت النار الى الدبابات . بصدمة التأثير وحدمة التاريث،وماطول ألسن النار . وافصحها بالدعاء على اهلها بالتبار . وقد ابدت الى الاسلام بتضرمها وتضرعها وجه الاستبشار . وما احسنها وهي ترمي بشرر كالقصر . ويكسو سني لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر وما اقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الالات عن البلد اجنحة الحصر . وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر .وقد بغتت هذه الفجيعة فجأة من

حوته تلك البروج . ودخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج . وهلك فيها اكثر من ثلاثمائة دارع . وخرج من اهل البلد لما حق الفرج كل مسابق . الى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف . كل ما وجدوه خلل رماد تلك الحتوف . وكان القوم قد اعتصموا بالابراج وثوقا بوثاقها . واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقها . ووصلوا بها اجنحتهم . ونخروا فيها اسلحتهم فاخفقت ظنونهم . وسخنت عيونهم . وخسر هنالك المبطلون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

فصل من كتاب الى اليمن في وصف الابراج واحراقها

استنفد الفرنج اموالهم في عدد اعدوها . وآلات اجدوها . واحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شامخات . وزاد غرامهم بالغرامات . واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم . يطرقون بين يدي ابراجهم . ويمهدون الارض لتسوية مهاجهم . فلما قدموها بعد لأي . واحكموا باحكامها كل تدبير ورأي . واشرفوا منها على سور البلد بأمور ذات أسواء . وجاؤوا بآلات وأدوات أدواء . واشفى البلد من بلائها واشفق . ووجل كل قلب وفرق . واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل . ومداواة الامر العليل الى ان نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر . وتضرعنا الى الله في انزال ملائكة النصر . فكان من لطف الله مالم يكن في الحساب . واتى الله المجرمين بالعذاب . والهم اصحابنا ماداووا به المرض . وادركوا به الغرض . واظهرهم ظهر يوم السبت الذي خصهم فيه بالظهور . وأقدرهم على رمي تلك الابراج بالنفط في القدور . وظهر من سر منع الله ما كان في المقدور . فتسلطت النار على عمل اهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (الرحمن ٣٥) وعادت تلك الاكم وهادا . وذلك الجمر رمادا .

وتحلحلت تلك الجبال وتحلل تركيبها . ولصق بالتراب ترتيبها . وتنكس منها صليبها .وكانت ثلاثة ابراج شاهقة فلعبت في ملاعبها النيران فاذا هي زاهقة .وتنقلت نجوم الشعل في تلك البروج . وعجز شياطينها برجمات شهبها عن الخروج .وتسلط الحضيض على يفاعها .وباد الدارعون فيها بادراعها .واضحك الله ثغر الثغر بما اطابه من ارج الفرج . واخمد باشتعال ذلك الوهج ما اكرب قلوب المؤمنين من الوهج . وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل التثليث من المهج .

(فصل)

تقدم المشركون بالابراج الى البلد فقربوا من اسواره . والصقوا منها جدرانا بجداره . واشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره . فاظهر الله ما كان خفيا من سر أقداره . واحرق عمل اهل النار بناره . وكان اصحابنا عايذوا مادهمهم وهمهم . وخصهم من الخطب وعمهم .نصبوا مجانيق بازاء الابراج . وصدعوها بها صدع الزجاج.ورموها منها بقدور النفط فاشتعلت رؤوسها وشابت وشبت . ومشت النار في اطرافها واعطافها ودبت . وارسل الله في تلك الساعة بعذابها ريحا بها هبت . فامست اجنحتها قد حصت واسنمتها قد جبت .وسقط في ايديها ووجبت جذوبها وكبت على وجوهها في النار وكبت • فما افصح السنة النيران وقد نادت بنصرنا والفت منها قلوبنا بما الفت من ذقع غليلها واحبت • والحمد لله على الطافه التي ماغابت ولاغبت •

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحوال التي جرت بحقها وحقيقتها . وحليتها وجليتها . فانه يشتمل كل فصل على تمام ما اغفل في غيره . ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة

وفي الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاخر . قدم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بمن استنهضه من العساكر . وكان اول من استقبله حين ظهرت راياته . من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه الملك المظفر تقي الدين بتل كيسان . ولقيه بعده الملك الظافر خضر والمعز اسحق ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له . وتعمدا اعظامه واجلالة . ثم تلقاه الملك الافضل ادنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول . وتلاقيا بالاقبال والقبول . ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك والطف المتدارك . واعتنقا على ظهر . واتفقا على بشر ونشر . وكان الملك العادل تأخر فلحق . واظهر من ارج سجاياه ما بذشره عبق وبحبه علق . وسار مع السلطان باطلابه وابطاله . وحماته ورجاله . حتى وقف قباله العدو بصفوفه . ووقف عليهم طول الرعب وبطول وقوفه ثم رده السلطان الى خيمته على رسم الضيافة . وترفرفت الطافه عليه بالاطافه . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس . وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا اطلس . واكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحة . وآنسه ببشر السماحة والسجاحة . ووقف الامراء والخواص والاولياء صفين . وانشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين . ثم احضرت المائدة فماد نحوها الحضور . وعقد الحبا لهم الحبور . ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان . وحسن الخبر والعيان . وخلا المكان وحلا الامكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب . وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض . واوجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية . وملأ تلك المروج بعساكره الملية . ثم وصل من بعده ابن اخيه معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود صاحب الجزيرة . بعساكره الكثيفة الكثيرة . وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الأولى . بالأيد الأطول واليد الطولي . فالتقاه السلطان واخوه واولاده على قاعدة عمه . وأجراه

في الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حـكمه . لكنه لم يقصر في القـاعدة عن رسـمه . ونزل بخيمتــه في فناء السرادق العمادي . وقد استكثر من العسكر الجهادي.فكان ذلك المرج بحـر امواجه الخيم والمضارب . أو سماء كواكبها ما اشرعته من صعادها الكتائب . أوغيل أسـاده في آجـام القنا الفـوارس . او غدير مـن السوابغ حبابه الترائك والقـوانس. او سـحاب بـروقه الصـوارم الرقاق . او وهاد اكامها الصواهل العتاق . ثم وصل الملك السـعيد علاء الدين خرم شاه ابن صـاحب الموصـل عز الدين مسـعود بـن مودود . وهو كوالده مسعود مودود. وفي شهامته وصرامته مشـكور محمود . وذلك تاسع جمادى الاول يوم الجمعة بالمحاسن المتنوعة . والمفاخر الاصيلة المتفرعة . والصنائع المبدعة والبدائع المصـنعة . وجيشه للقوة ضـابط . وجـاشه على الحمية رابـط . وبـأسه ليد الايدباسط وجنانه على الكفر ساخط . وهـو شـاب اول مـا بقـل خطه . وابتهج بكماله رهـطه ، وكان ابـوه قـد عزم على الوصـول بنفسه . وانهاب وحشة الخطب الملم بانسه. ثـم رأى المصـلحة في الاقامة وتقديم ولد المشكور المشهور الشهامة.فانهض العسكر المجر معه ثم اتبعه بمن حشده وجمعه. فـورد ورود السـحاب الكنهـور (٤٤) . وندور المطالع بسنى السـنور (٤٥) واطلع بـطلوعه على معنى البأس المصور . واحتفل السلطان بقـدومه احتفـاله بقـدوم عمه . وحافظ من الكرامة على تـوفير سـهمه . وانزله في سرادقـه واضافه . وأهدى خيله والطافه . وامر بـانزاله في الميمنة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر . وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر. ولم يبق في اهل السلطان الامن اقتـدى بـه في الاحتفـــال بقـــدوم هؤلاء .واعتماد ما قــام بــه البـــرهان على المخـــالصة في الولاء .والمسارعة الي الضيافة والاهداء .والاعادة الى المكارمة بعد الابداء .

- ٦٠٤٠ -

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله . ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجلس في طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حث همته العليا . وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه . وأوفى جنه . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطل بدرا . واصفر لمرتقبي صباح النصر فجرا . وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشرا . وملأ صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و المجد المؤثل . بجيش كالسحاب المسيل . فدوت اخلاف النصر بحقول ذلك الجحفل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل مقدام.وزأر خيس الجيش بكل ضرغام . وزار بكل اهتمام بالمذون همام . ووصل بكل واصل لسبب النصر .قاطع دابر الكفر . ووفد بكل وافد باليمن الوافي . والنجح الكافي . والعز الصافي . والعزم الشافي . وطلع بكل طالع بالسنى . جامع المنى . فارع بالغنى . فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا.وكان هذا اول يوم لقائه للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة . والتودد الى الناس. والتشدد بالباس. والتواضع مع الكرم . وبذو الود مع علو الهمم .ماله مبذول .ونواله مأمول .وسيفه على الكفر مسلول .وامره بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول .وهو مرجو مخشي .وكريم ه شي.ومهيب مرجو. ومحسن بسنى الحمد مجلو.وكان معه خلق كثير .في سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير .وانزل بقرب اخيه مظفر الدين في الميسرة .وتمكن الرعب بما تم من الجمع في قلوب الكفرة .

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميره. والعدد الكثيرة. فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول. وتم بظهوره النصر المأمول. فركب السلطان في جحافله. وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله. واحدق به حول خنادقه. ليوسع عليه الهلاك في مضايقه. وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول. ويسهل عليه بتشاغلهم طريق الصول. فعمر الفرنج اسطولا. وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا. وقدر أنه يلاقي الاسطول المنصور. ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور. فجاءت مراكبنا. ونطحت مراكبهم وطحنتها. واوهت متنها واوهنتها. واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا. وكان تقصير الرؤساء في حفظه لأخذه سببا واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس. وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية. وكلاءة الله لنا ولأصحابنا وافية.

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها وتكشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني. وهناه من النجح السني. واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني. وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور. ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور. متوافرا بوفود الوفور. ودخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور. فاثر البلد بعد انفاضه. واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه. واستجد جدة وافيه. وعصمة واقيه. وذخيرة كافية. وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها. وابرزت مناكبها. وحمت بالرجال

والعدد جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها . وسحبت على ثبج البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا الحلقة بعقابها وثعابينها وعقاربها . وظنت انها تستطيل على رواسي اساطيلنا بسواريها وانها تواجه عرائسها الحلوة بحور جواريها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب بما احاط بها من الذواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر حين ذعر فحذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها. ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهم، وكانت الفرنج حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخسرتها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالأسد عريسه . في شوان العدو شوائن . وشلنديات لشله وفله ضوامن . وحراريق لأهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسواري هواضب كرواسي هضاب . وسحاب بوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو قاطعة.وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر أمواجا في الأمواج . ودخلت الى الثغر افواجا بعد الأفواج . وكان العدو قد أبرز أباطيله . وجهز أساطيله . وشب عواديه ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمى مناكب مراكبه . وجد في امهاء غروبه وتسنيم غواربه . ولما وصل الاسطول طال وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت اسبابها . وقصمت من عبدة الصليب اصلابها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثري به الثغر بعد الانفاض.واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . ودخل اليه ماخرج عن حد الحصر . من نخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق رياضا . والمراكب الاسلامية اذقضت فقضت للمسلمين أغراضا . ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو أعراضا . وجاءت سواريها كالرواسي . وجواريها محكمة المراسي . ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل النار في الماء . ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء الارداء . من كل جبل يمر مر السحاب . وضامر يشد شد العراب . وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب . وغراب ناعب في اعداء الله بين الأحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب . ومااحسنها وقد زفت عرائس . وجليت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهل الكفر عوابس . وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس . وخلا وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الظلال . ولما شوهد الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخذ البحر من الاعداء بحقه . وأشرق سنا النحج في أفقه . ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجال . والتقى الأبطال بالأبطال . وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال . واحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق . وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح . وفكهم القتل والجراح . واقوى الاقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات . وأدرك المشركين مافاتهم من الآفات .

-٦٠٤٤-

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخـطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثـور . فقيل انهـم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بهـا إلاضرا . وكان التركمان الأوجيه (٤٦) على طريقهم . يمتعـون بغربهم (٤٧) مـن تشريقهـم . فاضطروا الى المقـام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهـاد . فصـاروا يذبحـون خيلهـم ويأكلونهـا . ويكسرون قنطـاريا تهم لفقـدان الحـطب ويشعلونها . فترجلت منهـم الوف . ورغمـت أنوف ، وكان ذلك في البردالشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمـدوا . وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواب لحمل الأثقال . ونقل عدد الرجال . فـدفنوا وأحرقوا منها . وتـركوها وسـلوا عنهـا . وكان ذلك مـن الله لطفا . وأمست قـوتهم ضـعفا . وكانوا في خلق لايعـد . وجمـع لايحد ، فما أثر فيهم ذلك النصـب . ولاصـدهم عن مقصـدهم ذلك التعب . ومازالوا يسيرون والأوجية تبدي لهـم للوبـال في أوجهـا أوجها . والافرنجية لاتنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتى بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسـعود . ومسـالكها دونهـم غير مصدود ولامسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثـم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعديهم . ودخلوا قونية دار ملك المسعودية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتـراسل وهو ملك الألمان واتفقا في الباطن على مـاكان بينهمـا مـن المواثيق والايمان . وحمل ملك الالمان له وفرا وافرا . واشبه المسلم بـالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسـير في بلده الى بلد ابـن لاون . واعطـاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتى يصـل الى المأمـن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم من الخيل والعدة بمايرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكث جميع مواثيقه ، ووصل ليفون بن اصطفانه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته . ودخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده . وذلك في طرسوس . فتمكثوا بها ليريحوا بها النفوس ، وقيل عن اكلب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شنا . وحسب انه اذا سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهلكه في تلك السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد . وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية . وحملوه الى نار الله الحامية . وسمعت نصرانيا يقول في معناه :كنت معه لما سلك فهلك واعجله مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة .ودخل الماء فطغى على ذلك الناري الطاغي . واعجل ذلك الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا في اخراجه . وايسوا من علاجة . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلف من اصحابه واجناده . لمكان الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . وراموا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة . ويدفنوه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته . وانه لاتلافي لما

فرط من تلفه وفوته-فارقهم الى بعض قــلاعه . واتصــل الضربهــم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقــول ويعــدد ويبدهده ويهدد . ويري انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضــح . وان الخــطب فــظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهذكر فدخله غصبا واوسعه نهبــا . حتــى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراده وانه اخذ من ماله ورجــاله مــا اختــار ، وتزود من عنده وامتــار ، ثــم وطــىء ارض ملك الروم وداســها . وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادهــا . واحــوج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

واخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومــن الثياب الطلس المعدنية مابلغ الألوف وتجاوز عن المئين ، وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه . ومعروفي كبــرائه . وأخــذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعــدية . مــن مــراكبه سحبا . وأنه لما عبر وفرغ من الخــروج . تلقــاه بــالخيل والدواب والأبقار والأغنام تــركمان الأوج . ثــم وقــع بين التــركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قــطب الدين ولد قليج ارســلان . والتقــى الأقــران بالأقران . وهزمه ملك الألمان . ولما أشرف على قــونية خــرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب يوعها . ثم اندفعــت حيث ضــم على الروع روعهــا . وأنه هجــم على قــونية عنوة . ونال منهــا حظوة . وأقام خمسة أيام حتى اســتقرت بينه وبين قليج ارســلان قاعدة اكيدة . وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة ، وأخذ منه رهــائن عشرين . ومن أكابر دولته المتميزين . وقدم كتــابه الى ابــن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقاه بما أعده لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الأنهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشــكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربــه وانقضى . وخلفــه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا للقاء ابيه . فلما عرف موته وجلوس ولده اضرب عن تلقيه . وعرض عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفجف . من كل سرحان أهرت وذئب اغضف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد الحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب . ولزموا المصاب. وداوموا الاكتئاب ، وهم صابرون على الشقاء والتعب . لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار . اضطربت الديار . وارتاعت الانجاد والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويثلم ثغور الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على رأي الثبات . وتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى مكانه أخذا بحكم الحازم . فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج . ثم عز الدين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد الدين بهرا مشاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدر المسالك . ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القسور . ثم اليار وقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الأفضل وقد عرض له ألم . ثم بدر الدين والي دمشق وقد الم به سقم . ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر . ولخوف الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت الغله . وخلت الاماكن وتمكنت الخله . ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة . ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفله . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخره . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ النوب في اليزك مستديما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون وصدق الاعتزام . ثم مرض اكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافيه . مستعقبا لألطاف الله الواقية الوافية ، ووقع المرض في الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم فيهم الموت والوبا . وكثر عن نبواتهم النبا . وتقدم السلطان بهدم سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلهما الى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

واما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض اياما في بلد الأرمن واحتبس . وهلك اصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت في خيلهم ، فاذن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والتياث جوهره بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم في ثلاث ذوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير . غير عارفين بطريق ولا متحفظين في مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم ويتلفونهم . ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك . بعد ان ضاق به وبجمعه اليها المسلك . وضاق به الابرنس صاحب انطاكية ذرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة فاخلاها له . ونقل اليها ماله واثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على حلب فخاف . وابدى له الخلاف . وقبل وصوله الى انطاكية قلت جموعه وجنوده . وبليت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج رجالها عليهم على قلتها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين ، وقيل انهم حسبوا ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاؤوا اليها سحرا بأحمالهم واموالهم السنية . فلم يشعر واليها الا بالبغال على الباب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قاطفه . فخرج اليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلى عنها اصحابها لما عرفوا الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من مال القوم . ثم انكر حتى لا يطالب بشيء منه . وغفلت الايام عنه . وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر في كتابه . انه انهض جماعة من اصحاب أمراء حلب واصحابه . ليقتفوا آثارهم . ويكشفوا اخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاض البزاة على الحجل . وزأروا فيهم زئير الأسد في النقاد . وزاروهم بالاجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثلاثة واربعه . وتركوهم متمزقة متمزعه . وعادوا بالأسارى الى حلب وباعوهم في الأسواق . وامتلأت بالاسلاب منهم والاعلاق . فطابت قلوب الرعايا . وانست من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم اهل القرى . والتقطوهم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم الابرنس الى انطاكية . واراح من الامها الالمانية . وذابوا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صبا اذا اخذوا صوبا . وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرنس بتلك الاموال المجتمعه . والذخائر المودعه . حتى قيل انه انما رغب في الوصول الى بلده . ليحصل على سبده ولبده . فأخلى له قلعته . ليذقل اليها خزانته . ففعل ومارجع اليها . واحتوت يد الابرنس عليها . ثم ساروا على طريق الساحل . بالفارس والراجل ، وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقية . وسقتهم كؤوس المنية ، والقتهم على البوس والبليه . فأغذوا في السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص نصفهم . وتم بعواصف البلاء نسفهم . وبلغ امدهم وانتهى مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق . لما اقيت جموعه في طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفرنج على عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعد قليل . ولم يحظ

بذقع غليل ، وسائلم بـذكر حـالاته في مـواضعها . وذكر مصـارف جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمـة الغمـاء . والنكبـة النكباء . والشدة الدهماء والليلة الليلاء . وهي ان ملك الالمان ومعه ملوك الافرنجية وحشـودها . وقـوامصها وكنودهـا . واحـزاب الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبنودها . وصـل جـارا على السماء نيول قتامه . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه لطلاب ثاره . سـائرا بخيله ورجله كالسـيل الى قـراره . وانه في عصائب صلبان في عصيبتها متصلبه . واتباع شـياطين لارضـائها متغضبة . واسراب سراحين على سرح الاسـلام متـوثبة . وانه في مئين من الآلاف الآلاف للمذون . واقطاب الاعطـاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون . وقدا وقدوا للشر شرارا . وأضرمـوا للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهـــم على قمــــامتهم دائمة . وقيامتهم قـائمة . والموت يدعوهــم الى المقبــرة التـــي يدعونها ، والآجال تلبيهم لمناياهــم التــي يدعونهـا . وكان خبـر وصوله متداولا على السنة الاراجيف . وتشيعه اعداء الله من قبـل للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجمـوع باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبـر صـحيح . ويقين نبـأ بـامر صريح . حتى اذا صح الخبر . سـار العسـكر ، ثـم انقـطعت الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان وايار . وكانت كتب سـلطان الروم قليج ارسـلان واولاده ورسـلهم متواصلة بما ينبيء عن التعاضد . ويبني امر الوفـاء والوفـاق منه على التعاون والتعاقد ، وهم بـانهاء مـا يصـح عندهـم واعدون . ويزعمــون انهــم في رد الواردين واردائهــم

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا: انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخلوا لهم الطريق وادعوهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في آمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاظم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هديه اهداها الله الينا ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه، واقدرنا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولايدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من اسلابهم واشلائهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالماني المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصرة الاسلام من ثمرة السعادة

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده وان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفي بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوفدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلا وجه النعمة فيها ، بل قضية وفى الله في النجح بموعود توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اولياءه لقمعها . وثائرة كلفنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام . وليثب وثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتخاء ذوي الانفس الابية والهمم العلية النفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرقة الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من الملم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام النوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد آن للاسلام ان يسلم . وللايمان ان يعدم . وللتثليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللكفر ان يقدم . وللهدى ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبده . والبر أتي آتيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده . ووصل الالماني المخذول بعدده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشر قد نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وفد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محشوره . وبنود منشورة . وخيول مجفجفه . وسيول مجحفه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الابية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مغترون بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستنون في طريق العثرة والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تولى تفريج هذه الغمة . وكشف هذه الملمة حتى تخلف اماني الالماني . وتبطش ايمان الايماني .وتخذل انصار النصراني . وتجني وتبر رؤوس الجذوي والبيزاني . فاين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين المهتدون في نهج الرشادالمتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض . لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين ، واراءة الملاعين وجو ه حتوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثأر الصليب السليب . وقد وقد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع نقعه . ومافض الفضاء ختام قتامه . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالماني مخفف بالمامه . والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه . واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلية

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملأ احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشام . فنحن ننتهز الفرصة . ونحرز الحصة . ونهتبل الغره . ونهجم عليهم هذه الكره . ونذيقهم المرة المرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم . ونمت بعز العزائم ونفل حدودهم بحدود الصوارم . فخرجوا ظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الاخرة . في حشر يذكر بحشر الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجام لنا متوافية باسادهم . وامتدوا الى الخيم العادلية ، واشتدوا بما استصحبوه من البلية . في كل ذئب امعط . وسيد قد تورط . وسرحان سرح . وافعوان كلح ، وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي أقدم وما احجم ، وسعيري ناري استعار خدمة النار . وسقري قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبوار . واسبتاري راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء . وسرجندي كرار . وفريري غير فرار . وفارس يفرس الرجال . وراجز يرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمش يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقع اذا غوى في الوغى ماترك ولاابقى . ودخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها . وقد كانت اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه . وعن يمينه ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري . وجماعة من المعروفين بالشهامة . والموصوفين بالصرامة . ولبث الملك العادل لبث المخادع المخاتل . حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشار . وافضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر شمس الدين مودود . وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجدود . فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر قبل ان تتصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشهم على الارض وذكرت الواقعة العارضة بوقوعهم في النار يوم العرض . وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفت اخ الى اخ . وركبت العادلية اكتافهم . وفلوا فيهم اسيافهم . وعقروهم وعرقوهم وبجوهم وبعجوهم . وحكموا في الرقاب الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعنقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

التوت من لحوم اليوث . وبثوا بعوث المنية في تلك البعـوث . حتـى رتعت في كلا الكلى صوار الصوارم . وارعد وابرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم . وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل . ووصلت بهم الى النجاح منى المناصل . فلم تترك اللهاذم لها ذماء . وغادرها شـلها بالعراء اشلاء . ورأيناها كانها اعجاز نخـل خـاوية . ومـا احسن اجسام اهل الهاوية وهي هـاوية . فكم جثـة بـلا رأس . وبنية بـلا اساس . ونحر قد نحر . ودم قد انهر . ويد قد بتت . وكبد قد فتت . وعنق قد قطع . وانف قد جدع وودج وجد مفريا . وظهـر قـد ظهـر مبريا وحلقوم قد حلق . وغلصوم قد فرق . وداوي قد دوي . وبالدم روي . وصليبي كسر صلبه . وقلب على صدره قلبه . وحربي أتـاه الحرب . وغرب في نبع عينه النبع والغرب . وكان السلطان قـد ركب وخشي أن جانب الميمنة نكب . وسير جمـاعة مـن كمـاة المـاليك والامراء على مقدمته . وانتظر الميسرة لتنهض في خـدمته . فـوصل الى الوقعة سنقر الحلبي في العصبة العزيزية . وفـاز مـن الغـزوة بالحظوة السنية . وجاء علاء الدين ابـن صـاحب الموصـل في اثناء المعركة . فعرف بركة سرعة تلك الحركة . لأنه اخذ حظا وافرا ولقي من النصرة وجها سافرا . وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجـال الميسرة احد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد . ووصـل السـلطان وشاهد من مساءه الفرنج ماسره. وعرف لطف الله وبـره ونصره . وعاين هنالك مصارع الاعدا٠ . ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين في مـــــــــــــدى فـــــــــــــــرسخ

على الارض . وهم في تسعة صفوف مـن تـلال الرمـل الى البحـر بالعرض . وكل صف يزيد على ألف قتيل . وشاع القتل من الافرنج في كل قبيل . ولما وصل السلطان رأى عمـاد الدين وابـن زين الدين وامراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهـم . والهجـوم عليهـم . فانهم ندموا على ترك الاسراع . فراموا اتباعهم ليأخـذوا بنصـيب الفتك بهم والايقاع . فصدهم السلطان وردهـم . وشـكر عزمهـم وقصدهـم . وأشفق من مضرة تشوب . ومعرة تنوب . فـان الدائرة كانت على العدو . وقد فاز بالنصر الحلو . والصفو المرجـو .وكانت

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبه . وقتل منهم زهاء عشرة الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني وابرع العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره . ولأرى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد . لمشاهدة ماهناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ماسلبوا وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقئت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونذكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها . بالبشائر التي حققتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم اجابتي لما دعاني . فما صبر ولاانتظر . ولاترقبني ان احضر . ولاامهل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا باذوار المعاني افقها . وابلغ بالبلاغة مداها . واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ماصنعته حدود السيوف . واروج نقودي عند السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها . واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع . ولاتم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها . ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد . وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ماتريدون مااكتبه . ولاترغبون فيما ارتبه واهذبه . فقال كانك كتبت البشائر فهاتها . حتى تهدى الى طرقاتها . فقلت مافات فات . وهيهات هيهات . واخرجت له مابقي من بشارات البلاد التي أنشأتها . بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جداها بالخصب الجديب . وصدحت باسجاعها المنابر . وصحت بسماعها المفاخر . وظهـرت بعبـاراتها العبـر . وبهـرت بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مبـاهجها مناهـج الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . ومااسحها نصره . ومابينها محجه . ومااثبتها حجه . ماافرجها مسرة . ومااسرها فـرجه . وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفـارقة عدة كثيرة من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقـاطرين . وانتشروا متغاورين . واغاروا للواء اللاواء ناشرين . ووصـلوا في الميمنة الى الخيم العادلية فاخليت حتى دخلوهـا . وتفـرقوا فيهـا بجمـوعهم وتخللوها فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعى بالعراء . فوضى بالفضاء . فمـا بـكت عليهـم الارض ولا السـماء . ورويت السيوف من دمائهم . قبل ان تشبع الوحوش من اشلائهم . وظهرت لنا نعمة الله في بلائهم وحبي الاسلام بهلاكهم . وضـمتهم اشراك الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثـر مـن عشرة الاف قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظـاهر . ولو اتفق خروجهم من مراكزهم باسرهم . لكنا فرغنا مـن شـغلهم واخلينا بالنا بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفـاء جمـرتهم . وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كثرتهم . نرجـو من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خـطبهم الخـطير . وان ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعثور هـذه الوقعـة بهـم حقـق عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم ودورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة . وا شتغلوا باستباحة احوالها المصونة . فـاطلقنا عليهـم الاعنة . وشرعنا الى نحـورهـم الاسنة . وبعنا النفـوس لنتسـلم ثمنهـا الجنة . وفـرشناهم على الارض . وابدينا باردائهم بعض الفرض . وانجلت المعركة عن عشرة الاف قتيل مشرك . وشملتهم المذون فكأنهم جـاؤوا على مـوعد مهلك . وا روينا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا ا شـلاءهم قـرى الوحوش لاالضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من المخوف . وادرك الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم . وخمود مصابيحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم مـن حـواليهم . ورضـتهم بالدبابيس واللتوت . وتركتهم صرعي بتلك المروت . وسـاحت بتلك الساحة دأماء الدماء . واكتسى عري العراء بتلك الاشـلاء . وا فضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعـت ثعالب الرماح من كلاء كلاهـم في المرعى . وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتـن جيوفهـم ريح النصر . وحنت من سماجة مرآهم وجـوه الدهـر . والآن الان الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبـت نكبـاء نكبتهـم . ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسـلام ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها • وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها • وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر • وتموج بحارها الزواخر • فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمي وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفه صدتهم عن الانعطاف • وصرفتهم عن الانصراف • وثارت اثارهم بواتر البواتر • واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار بالحوافر الحوافر • وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء • ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم • واتى القتل على اولهم وآخرهم • وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل • ملأت كل واد وسدت كل سبيل • وقد ذلت عزتهم وضعفت قوتهم • وعجزت قدرتهم • ولما انقضت هذه الوقعة • وثم الناهضين الينا الرجعه • رأيت احد مماليكي ونصله قد خضب • وعزمه قد رضي بعد ما غضب • فسألته كم قتل • والى اين وصل فقال:اما انا فما أبقيت . وخضت البحر وما توقيت . وهذا غلامي قتل تسعة • وشام من عارض نجيعهم نجعة . وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا اضعافا مضاعفة • وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة • وحكي من نوادر هذه الوقعه ان فرنجيا عقر فجثا الصرعه • فعثر به راكب برذون • بغير رفيق ولاعون • فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده . فنزل بجده مستنا في جدده . وقتل ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي . وحل من وسطه ثمانين دينارا • فانقلب ربحا ماعده خسارا.وامتلأت الأيدي بالأسلاب والاكساب . وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب . وبيعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك النقص

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمـادى الآخـرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بـكتاب يتضـمن نجـح كل مرام . وبخبر بان عسكرا مجرا مـن الكفـار خـرج للغـارة على الاطراف والاقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهـاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخـواص والعـوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع النور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسـلة في امـر الجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخـروج . للنظـر الى اولئك الصرعى بتلك المروج . وهـي قـد تـورمت وأنتنـت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت ، فساءهم ما سرنا ، وذفرهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهـم وخلف ، حتـى وصل في البحر .كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصـهم . واحيا بعـد مـوت نفـوسهم حرصهم . وافاض عليهم بـالأموال . وحلى منهـم بعـد عطلهـا الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العـزم بل الحزم ان نبادرهم على ضـعفهم . قبـل ان يمـدهم البحـر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تتميمه . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكرنا ليلا على غره . وبدت منه امـارات

كل شره وشرة . وشاع هـذا الخبـر على الســنة الجــوا سيس والمستأمنين . فـاحضر الســلطان امراءه وخــواصه المؤمنين الميامين . وا ستشارهم فيما يقـدمة مـن الصـواب . ويفتحــه في المصالح الراجحة من الابواب . فاشاروا بايساع الحلقة . وادارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه . حتـى يؤنس الى الخروج لحربه . فـوافقهم السـلطان على هـذا الرأي وحسـن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . وا شتغل بالتدبير في الفوز بـالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحـوالي سـفوحها . واحتـوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتـب اليزك في المنزلة الاولى كل الف فارس بالنوبة في يومين . وضويق باهل الصـدق منهـم اهــل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليزك اوقات نوبته واوبته الصغير والكبير . واما عكا فـالكتب متـرددة اليهـا ومنهـا السباح . والحمام اليهــا ومنهــا تحمـــل البـــطاقات على الجناح ، والمراكب تدخل اليها وتخـرج ، واليهـا وعنهـا تعــوج وتعرج . واخبـــار ملك الالمان متـــواصله . بـــأن انصـــاره له خاذلة . وانه ضعف ووهى . وانه الى انطاكية انتهى . وانه تعـوق هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المســير . واعتــاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبـل ان يصل الى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالانفاق في رجال الاستجناد والاستنجاد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصـحابنا يأسرونهـم ويتلفونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمـع قـطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسـلمين بقسطنطينية والخطبة . وانه مسـتمر على المودة راغب في المحبـة . ويعتذر عن عبور الالماني . وانه قد فجع في طـريقه بـالاماني . وانه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقه . مـا اضعفه وأوهاه . وألهبه وألهاء . وأنه لايصـل الى بـلادكم فينتفـع بنفسه أو ينفـع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجـع . ويمـت بمـابه كاده . وأنه بلغ في اذاه اجتهـاده . ويطلب رسـولا . يدرك بـه مـن

السلطان سولا، فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بمـا ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنيقات

وفي رجب من السنة انفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة آلاف راجل في يوم واحد ليجدوا معـه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكندود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجيق . مـن الرمـي غير مفيق . رجومه للشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهـي مجـانيق مجـانين . وميادين ثعـابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صقعهم صقعها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقـدام وأقـدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياع . وخرجوا بـالفارس والراجل . وأموا بالحق أمـة البـاطل . وجـاوزوا تلك المجـانيق المنصوبة والستائر المضروبة الى خيامهم . وخلفوها مـن ورائهـم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقـات ممـن يحميهـا . خـرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فـاحترق جميعهـا . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعـروفين فيهـم فـارس كبير . فمـا أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبـذوه فـطلبه منهـم الفـرنج بالأموال . ولم يعرفوا بالحال . فـأخرجوه اليهـم قتيلا . فـأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه نوحا ، وينيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فخمدوا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريح المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقـودهم المنحلة وعقـولهم المعتلة . وطمـع فيهـم النـاس . وعرا طمعهـم اليـاس . وصـارت الخنادق تهجم . والستائر تهتـك وتضرم والحـدود بـالمصال تثلم .

والخدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنة . فأبـت بـالحالة الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم بانكاء مضرة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعـد كل اســتظهار . وانفق على أحدهما كند هري ألفا وخمســمائة دينار . وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيهــا متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت . وأن الافـكار باستدعائها عنيت . وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالغلات . فـرأى ان ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا . ويجعـل له اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . ان يهجر في كل مابه عز الدين السآمة . ويعطي ويتزكى ويحتـال في انفـاذ ميرة الى عكا . فعمر بطسة كبيرة وأعدها . وأجد من عزيمتـه الماضـية فيها جدها . وتولاها بخلق سمح . وملأها بأربعمائة غرارة قمـح . ونقل اليها انواع الطعام . واصناف الادام . وقطيعا مـن الاغنام . وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة . وهي بساحل بيروت منبوذة فـأمر السلطان بترميمها وتتميمهـا . واخفـاء البغية منهـا وتـكتيمها . وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . ومائت بالشحوم واللحوم . وبكل ماتدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها مـن أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقـوت . ورتـب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وارادوا ان تشـتبه ببطس العدو في البحر . وأن لاينكشف للفـرنج مـالها مـن الســتر فتصوروا رهبانا . وصوروا صلبانا . ومسحوا لحـاهم ومسـخوا حلاهم . وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بـزة لئلا يتخـوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحـر بمـراكب الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسـطين . والقـوم

لجهلهم لايشكون انهم من أهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث . وتصور الطيب بصـورة الخبيث . ولما حـاذوا بهـا عكا صـوبوها نحوها والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها . وقد عقـت رفقتهـا . وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجـب الناس منها ومما تم لها مـن حيلة في سرهـا . واجتـزأ البلد بهـا شهرا . ووجد منها لكل كسر جبرا . يالها من لطيفة قضـينا منهـا الأرب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قـد كتـب الى النواب بـالاسكندرية على وجـه الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملأوها بالغلات واصناف الأقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسـلوها عند موافقة الريح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنتة بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر . واستبعد وصـولها مـع امتلاء البحـر بمـراكب الكفـر . وكاد اليأس يغلب . والرجـاء يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعـكا انه لايبقـى لنا ليلة نصـف شعبان قوت . ولاشـك ان كتـاب اجلنا الى هـذا الأمـد موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . والمت القلوب والمت الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضـطر اذا دعاه . ولايخيب من رجاه . ولايضيع من استرعاه،فلما كان ظهـر يوم الاثنين رابـع عشر شعبان ظهرت مـن أقصى اللجـة تلك بـطس كأنهـن الاعلام واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواريها الحسـان وخفت رواسي سواريها الثقال . وذكرت بقوله تعالى:(وهي تجـري بهم في موج كالجبال) (هود ٤٢) والريح تطردها طرد النعـام . والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم اضل من الانعام . فمـا

تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشـوانيها . واحـاطت بهـا تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهـي تشـق عليهـا وتشـقها . وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منهـا البـر الإيمـان الأيمـان . وهزأت بتلك الأكمات المطيفة بها جبـالها الرعان.وعبـرت والكفـر خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثـر . ووصـلت الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها غمة الثغر . ودفع ماألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التى ادركت الأرمـاق . وأدرت الأرزاق . وتـلافت الأرواح مـن التلف . وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان لايبقى لنا شيء نقتاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فـواته . فبينا نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هـذا الهـم متنكرون . اذ ظهـرت العيون بالقرة . والقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنهـا جبال باقبالها تروع ونسور اجنحتها القلوع . وشـعر الفـرنج بهـا فضاقت مذاهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقـاربها وقـربت مـن البطس شوانيها . وقويت في البطش آمانيها.وحمى مافيها من فيهـا من الرجال . وهي تجري بهم في مـوج كالجبـال . وكأن جـواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثـوب بتلك الاعلام المنشئات معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصـدقات الى ذوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شـانيء . وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كاليء . وجازت والكفر خزيان ينظر . وفازت بالعز والعدو بنيل الذل يعثر . وكان وصـولها أوان انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغـلاتها . وأزوادهـا . وعصمت أرماقها . ودسمت امراقها . وقسمت ارزاقها . واشـبعت

جوعها . وشـبعت صـدوعها،وأنالت آرابهـا . وأزالت اجـدابها . وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق . وسكنت بعد القلق .
وعاد اليها بعد الغسـق اسـفار الفلق . والحمـد لله المغني بعـد الاعدام . المدني السني بعد الاظلام . المذفى باوليائه اعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والذفقات الى عكا ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . بحفظ الاسرار ضـمينا . يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معـه الى الثغر . ولكم خاطر بذفسه فسلم . واعتـورته اسـباب المتـالف والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بمـا في طـريقه من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الفـا دينار ومعـه مـن نفقات الاجناد ودائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمح له خبر . ولم يظهر له اثر . فظنت بـه الظنون . ومـاتيقنت المذون . وكانت له لا شك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهـي مجملة محتمله . فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . وانهـب حـق اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب مـن حـاله الناس . فلم يذهب بنهابه الذهب الذي صـحبه . وطهـره الله مـن الرجس وعنه انهب .

ذكر وصـول ولد ملك الالمان الذي قـام مقـام ابيه الى الفرنج بعكا

ذكرنا حديث الالماني وملم حادثه ، ومـااداه اليه مـن دواعي كفـره وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خـامس عشـري

رجب . ولقـــي في طـــريقه على اللاذقية الشـــجى والشـــجن والشجب . وانن ضعف خيلهم . بضعف ويلهم . ووجدت لهـم مـا بين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرسا قد عطبت . وعلى اعواد عظـامها سواد الغرابيب خـــطبت . وقـــد اســـتقبله المركيس . وقصـــده التأنيس . وان يهديه بضـــلاله الى الطـــريق التـــي تـــؤمن طوارقها . ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقها . فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان . ووصل خبـر وصـولهم في سادسه الى السلطان . وحزرهم من شـاهدهم في الطـريق بخمسـة عشر الفا . وسمعنا في حزرهم بالقليل والكثير خلفـا . ثـم انتقـل في البحر . الى عكا في موضع الحصر . ووصل اخر النهار سادس شـهر رمضان . بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان . فلم يبق له وقع . ولم يحصل لخرق القوم به رقع . واقام بين جنودهم . كأحـد كنودهم . وقال الفرنج: ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا . فانه لو اقام في موضعه . وامدنا بفيضه من منبعه . لهيبـت عظمتـه . وعظمـت هيبته . وارعب روعه وراع رعبه ورجـي منا وخشي مـن المسـلمين قربه . وقد قطع بنا منذ وصل . وحص لنا جناح نجاح حصل . ووصل في البحر وحـــده . ولم يســـتصحب جنده . ثـــم وصـــل اليه الاصحاب . وتقطعت بهـم الاســباب . ثـــم رام ان يظهـــر لمجيئه وقعا . ويبدي له نفعا . ويثير لنفع غلة ثاره نقعا . فقـال: الام القعـود عن القوم . ومابقي الا النهوض اليهم مـن اليوم . ولابـد مـن ضرب المصاف معهم . واني على الخروج اليهـم لادفعهـم . فقـالوا له انت ماارثت وهج قتالهم . ولاا ثـــرت نهـــج نصـــالهم . ولاحـــربت بحربهم . ولاكربت بكربهم . ولو حزبت بحزبهم . لاصـحب جمـاحك لجماح صحبهم . فأبى ونبا . وشب الشبا . فلما عرفـوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى ســهله . قـالوا له: نبتـدىء بـالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجـل كرجل الدبى . وخيل اغصت الوهـاد والربـا . ومـرجوا في المرج . وطووا تلك المدارج طي الدرج . واشـعلوا الخـرصان في ليل النقـع عوض السر . وقربوا مـن تـل العياضـية . وعليه خيم اليزكيه . والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه . والعصبة الموصلية . فلمـا

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من خدودهم الى الجدور . واوردت ظماء الظبي منهم مـاء التـامور . وانبعت بالنبع من عيونهـم العيون . واسـتخرجت بـالضرب مـن اعناقهم الديون . وطيرت بإطـارة السـهام الى الاحـداق بهـم الاحداق . وخاطت الاماق ومااخطأت الارماق . وصـار كل سـهم شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السـلطان مـن خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان . فلم تزل وجوه البيض تحمر . وثنايا السمر تفتر . ونيول النقع تنجر وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجـاء النصر تخضر . الى ان جـن الظلام . وكـف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفـره . فاعرضت بالوجوه المتنكرة . وابنا بالانوار المسفره . ومـر الالماني متألما . ومن ظلمة حاله متظلما . وبكلوم قلبـه متـكلما . وقـد عاين ماعاناه من العناء . وشق عليه ماشق مرائره من الشقاء . وبلي مما بلي به من البلاء . وعلم مـاجهله . واسـتصعب مـاا ستهله . وذاق ماضاق به ذرعه . وكاد يتـم في القتلى رصـعه لو تـم صرعه . لكنه تجرع من الغصص ماسهل عليه الموت جرعه .وتاب وماثاب .وابـى الرجوع الى الاقاء لما آب . وحينئذ جـدوا في قتال البلد وحصـاره . واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهـو في حـراسة المينا عظيم الشان . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعدد . وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثـاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام والات ابـرزوها . ومكر مكروه ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته وريب رأي رفعوا راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ارهفوا غراره . وعنان عناد اطلقوه ولسان ضرام اذلقـوه . ويد بـطش بسـطوها وعقله معالقة انشطوها . واحـد تلك المراكب قـد ركب بـرج على .رأس

صاريه . لايطاوله طود ولايباريه . وقد حشي حشاه بالنفط والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته .أعدى اليه بآفاته . ورميت فيه النار فاحترق . واحترق من الستائر والاخشاب مابه التصق وتستولي النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب يسري فيها النفط ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن التي لنا بالمينا و ردوها . فتعدي عدوانها . وتنير وتسدي فيها نيرانها وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . وللشر مستمدون .حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس ماقدروه واخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا . فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج الصاري وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت بطسة الحطب من ورائها وتطايرت اليها شعل اذكائها . وعادت على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا . فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشبع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قداح الرأي في مكر مكرهم . وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . منفرد عن البلد في وسط البحر منقطع المكان . فاذا اخذناه تسلطنا على مراكبهم التي في المينا . واذا لم نؤثر بمجيئنا تأثيرا فلأي سبب جينا . ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقد رفعناه واعليناه . وبالعدد والرجال قويناه . وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته اياه عصمناه وكلأناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولاحولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم شراريفه . وصعد الرجال اليه في تجاويفه . وتعبوا في ذلك أياما وشبعوا تتوثيقا واحكاما . وهو بمرأى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه . ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبحوا بتلك البطسة زاحفين . وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط . وتوالت امطار البلايا من الجروخ والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول النزال . والحمد لله الذي ايات ظهور دينه متناصرة . ودلائل نصر اوليائه متظاهره . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه بالحطب . وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور . ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحذار الفرار وكانت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل . والحال تضطرب والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فأهب من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس . واكبت الفرنج على الوجوه الرؤوس . وتعس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم.

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطـاقة لنا اليوم وعادوا وقـد غرمـوا ورغموا . واخلف ماعزموا وزعموا واشـتغلوا بمـلء بـطس لهـم شحوما واحطابا وادهانا واخشابا واشعلوا فيها النار والهبوها . وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها .وادنوها منها وقربوها وكادت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق. فانزل الله الفـرج وقت الشدة وامن من المخافة المحتدمة المحتده . وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة العـائدة خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بـطس اولئك الكلاب بالكلاليب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطردة الانابيب مستهلة الشآبيب

ذكر الكبش وحريقه
بعد تعب العدو في احكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للغوائل غائلة . في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طـول رمحين كالعمـودين الغليظين اقفال الاسوار المغلقة بها تفش . فـكم سـور اذا نطحتـه طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهـذه الدبـابة في هياة الخريشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها بـاعمدة الحـديد . وكملوا لها اسباب الاحكام الشـديد . ولبسـوا رأسي الكبش بعـد الحـديد بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس البـاس . فلم يبق للنار اليها سبيل . ولاللعطب عليهـا دليل . وشـحنوها بـكماة المصاع . وحماة القراع . ورماة الحـدق وكسـاة الحلق . وعفـاة الحتف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من كل سرحان لاينظر الا من جلد أرقـم . وكل شـيطان لايقتحـم مـن الحرب الا جهنم . وكل شجاع لايعتقـل الا شـجاعا . ولايرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولانتجاعا . فلما استدفت لهم هـذه الدبـابه وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطـافت بـذلك الكبش تلك التيوس النبابه . وامذوا عليها الحريق واموا بها الطريق . سووا بين يديها الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها وقروا بها اعينا بل اذفسا وقربوها . فجاءت صورة يزعج مـرآها . وروضة يعجز مرعاها . والة تروق هيأتها . وعدة تـروع هيبتهـا . وبلي البلد من دنوها بالبلاء الداني .وتغاشت وتعاشت دونهـا نفس الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هـذه مـافي دفـع خـطرها حيلة .ولالبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيم الامل . ومن للكبش العظيم وقطع رأسه.ومن لبناء الحديد ونقض أسـاسه . فإن كانت هذه الدبابة دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمـانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام بـرهانها ونصـبوا على صـوبها مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فابعدت رجالها من حواليها . وطردت المطرفين بين يديها .ثـم رمـوها للحـزم بحـزم الحطب حتى طموا مابين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فتـرنم في أثنائها عجاج اللهب برجزه . ودخلت من باب الدبابة فـاشتعلت نار ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجـاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبينات . يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات . فاطفأوا نار الظـاهر ولم يعلمـوا بنار البـاطن . ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمـدوا الجمر . احمدوا الامر . ورجعـوا ولم يزل اللهـب يأكل سـقوفها . حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها المنجنيق .فانهد ذلك النيق . وصوح ذلك الروض الانيق . ووهن ذلك التركيب الوثيق . وذفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبـابة . وخـرج من بالثغر المحروس. باشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش . وحمل كل من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب لثلج صدره وبـرد يقينه حـره واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقـل في الة لبست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد أصـحابنا على عدوهـم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم يذشد وهو يذشىء ويذشد جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط . وسخط الشيطان واستشاط الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن الشقاء ادركهم.والشقاق أهلكهم . وأن مدبرهم مدبر . وان ترتيبهم مدمر . وأن آلاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير ناقعة . والحمد لله ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد ان تل للجبين فتلينا قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) (الصافات : ١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحترقت البطسة يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه الاجناد وجلب . فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر . وقد استكثر معه واستظهر . وعز الدين بن المقدم . ذو القدر الافخم . والنجر الاكرم . وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الامراء . من ذوي المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك . وقد استصحب غلمانه الاكاديش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم رونق . وصفاء لم يشبه رنق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم . جحيمين يلتهبون بنار الجحيم . وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور . وأقدم العدى إقدام المتهور الجسور . فلما ازدحموا وكثروا . واضطرموا واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها السهام . ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام . وزارتهم من الزيارات الجروخ . وأخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم المجانيق بالاحجار . وأننت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلوهم بحد الاقدام . وافضى الخرق بالعدو إلى الخرق . وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب اصحابنا له كمينا . ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وأفلت وباله في وباله . وانهاض من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ القت الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب.وفيها امراة محتشمة . غنية محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت . وسرنا ما ساء العدو . وآتانا الله من احسانه المرجو .وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل النفع وعم .وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضح الحق وتحقق. فاحضر السلطان الامراء الاكارم. ورجال الحقائق الضراغم . الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه .وذخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستنبط دفائن ضمائرهم .واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم احداق العساكر وانما لايقدرون على القصد دفعة واحدة . الا اذا كانت أيديهم . متساعدة وآراؤهم متعاقدة فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم واسرناهم ، وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم .وأجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه . فخيمنا هناك على أحسن تعبيه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و حللنا التلاع والآكام . وركزنا بتلك الاعلام اعلام . ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين . ولأسباب التوقي من الامطار مستجدين.

وأضحينا على تلك الاطواد موطدين . وعند تلك الاوتاد موتدين . وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الاشعة . وتمكنت تلك البنى وبنيت تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . واحبت الرجال التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق . وانارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهاذم لمراعفها . وذوب اليزك بحالها تدور وتروده وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود والحرب تتناوب. والزحف يتعاقب، والاقران تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاضد والاعضاد تتعاون . والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمحم . والرقاق بصليلها اشوق الجماجم تجمجم . والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للشد ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل . ولاكارم الا للكلام . ولا سلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرح وألجم . وتقدم وأقدم . وأصم وصمم . واضر وأضرم . ولاتله حتى تلهب . ولاتعج حتى تعجب . وأقطع وصل . وأكتل بصاع المصاع وكل . ولاتقلق والق وقلقل . ولكل داع إجابة . ولكل ساع اصابة . ولكل سهم في المرمى فوق . ولكل شهم في المرام سوق . ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماء قدعه ، ولكل عقدة بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب فل ، ولكل عضب عض ، ولكل ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصب في التشجيع ، ومن له جراءة الهيجاء هاج الى الصريخ بالجد السريع ، والايام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير صباح الصفاح في دياجير القتام متبلجة ، ولله نعمة في كل بلية ، وسر في كل قضية .

-٦٠٧٦-

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وماجرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الأمير ، وماتجلى به من الكرم والخير ، وهو يوسف ينالتكين بن علي كوجك ، ومن سعادة جده ماطلب غاية في الكرم الا ادرك ، وماكان اسره يوم الحضور واحضره يوم وفاته للسرور ، فلقد كان جارا للكتائب ، بارا بالاباعد و الاقارب ، سارا باسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبل المناقب ، قارا على قلق الذوائب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طرير الشبا ، وحبه لعقد السودد معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياما ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد امست مراضا ضراما ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في موضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على مايحبه ، وهو جاهل بمزاجه.ذاهل عن علاجه .فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ماأزهى ازهاره ، وماانضر نضارة ، ونقله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الاتراب الى التراب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وآنن الزمان بعد الأجداء بالأجداب ، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وماظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه مغزين على ظن أنه جاس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع مايحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها و سميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الاسباب والأمور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الأحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه وذهب مغاضبا ، وكان السلطان له في الانفصال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له مااستحسنه في ترك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة للهناء ، فاستأننه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه اصحابه . ولج جماحه وتعذر اصحابه فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانه منزلته عند السلطان جهده ، وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه   فليت شعري ماا ستفادا .

فلما قرأ هذا البيت ماراوح في الخطاب ولاغادى ، وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغلل ، وأعلهم ماعراهم وعرتهم العلل ، وباؤوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم ، وامحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعثهم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستنامو الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، وأعداهم الضر العادي ، فمن سألناه عن مقتضى فراره ، ومقضى قراره ، يخبر انه طواه ، الطوى ، فنواه النوى حين التوى ، من حذر التوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبغض اليه حب السلامة الولد والأهل ، وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم في استعار ، فما جاء الا كل ضعيف لايقوى على النزاع والنزال ، ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال ، فقبلناهم واذقنا فيهم والفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم ، فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد ماا قووا ، فمنهم من أسلم

وخدم ، ومنهم من ند وتندم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستفاد .

ذكر ذوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، وا شرقهم جـرعهم ، وعرقهم قرعهم ، واخلفهم خاف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ، ونلي وندلق .وندل وندلق .ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزعج ونعجز.ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق.ونخرج ونحرج.ونلج ونلجج ونضري ونضرب.ونغلي ونغلب ، ونجن ونجني ، ونتيف وذفني ، ونرد ونرذي ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونتصدى ونصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر.فخرجوا في عدد خارج عن العد ، واستقاموا مع الاعوجاج على جدد الجد ، وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال ، وأخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها ، وكان اليزك في تل العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ماتركت الاتراك ، فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الامن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحره مائجا ، وسما جمره مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القراع في اوحى

تلبيه ، وقد امتـــزجت زجـــرات الجـــاووش ، بنعـــرات الجيوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهـر بقـرب البحر وصفوفها مشتدة مسـتدة ، والسـلطان في القلب كالقمـر في الهالة ، عليه اكليل من أنوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند الخروبة ، على المهاب الحـالية والحـالة المحبـوبة ، ومقـدموا ميمنته ، عظماء دولتـه ، صـاحب دمشـق ولده المبجـل ، الملك الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصـاحب بصرى ولده الملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي حسام الدين بن لاجين : قـايماز النجمـي صـارم الدين ، والأمير بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لايرجو منازلته الا من فيه بـان الباس ، ثم بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طـالما بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على أنه يطيب نشرهـا ، وعظمـاء الميسرة ومقـدموها ، وأمـــراؤها ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معـز الدين سـنجر شـاه صــاحب الجـــزيرة ، والملك المظفـــر تقـــي الدين ذو الســطوة المبيدة المبيرة ، وســيف الدين علي المشـــطوب ، الذي نشـــب بناره الحـــروب ، ونصـــب على العدا منه الكروب ، والهـــكارية والمهـــرانية ، والحميدية والزرزارية ، وأمـــراء القبـــائل مـــن الاكراد ، أقتال القتال وأجادل الجلاد ، ورجال الحلقـة المنصـورة واقفون في القلب ، لابسي الحلق السرد خائضي بحر الحرب ، من كل فارس فراس ، وهـــرماس رمـــاس ، وضـــيغم ضـــاغم ، وضرغام غارم ، وليث فضفاض ، ملوث بفضفاض ، وقسور قاسر ، وهزبر زابر زائر ، واسد في غاب الاسـل ، وقـــارع في القـــراع بـــاب الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الاقران ، وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقارىء (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأمـوالهم) (التـــوبة ١١١) ثقـــة بـــوعد القرآن ، وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر الجنان ، وســابق الى حلبـــة الشـــهادة ، وســـامق على ذروة السعادة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العـدا

عن الهدى بعاسل ، وسـار الفـرنج شرقـي النهـر لنا مـواجهين ، والكريهـة غير كارهين ، حتـى وصـلوا الى رأس النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فـانقلبوا الى غربية ونزلوا على التل بينه وبين البحـر ، والجـاليشية الرمـاة منا حـولهم جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا سـائلة ، وجـرح في ذلك اليوم وهو الثلاثاء خلق من أهل التثليث.ومانبا عن كثير منهـم ناب النائب الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الأربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقـاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجـل مطيف محدق بهم كالأسوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتـى كادوا أن يخالطونهم ، وأرادوا يبـاسطونهم ، والسـلطان يمـد الرمـاة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهـم ثـابتون نابتـون ، سـاكنون ساكتون ، ونحـن نقـول لعلهـم يحملون ، ويغضـبون فيجهلون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم . وتفريج الغمة بنزع جمتهم . واحس العدو بالضعف . وانه متـورط في الحتف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض . ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقـن ان صح منه الثبات بانكساره . وعسـكرنا يصـافحهم بـالصفاح . ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السـهام . ويلهبهـم بحـدمات الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصميهم ويشـويهم . ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب . ويخيض في دأمـاه الدمـاء منهم سوابح السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم مـاء الفـرند . ويغيظ بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند . وادبروا مولين . وارخصـوا مـن مهجهـم مـا كانوا له مغلين . وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهـم ويقلعهـم . وهـم مجتمعـون في مسيرهـم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهـم . يتحـركون في سـكون . ويتظاهـرون في كمـون . ويتـطلعون في غروب . ويتفالون بغـروب . ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمـود . وكلمـا صرع منهـم قتيل حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهـم . ولا

يصح لدينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وابلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا . وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم . وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداما هماما . واسدا ضرغاما . يطير وحده الى الروع اذا ابدى له ناجذيه . ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه . وهو في كل يوم يصبح في سلاحه شاكيا . وبنار عزمه ذاكيا . ويقف بين الصفين . ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرخ ولا يصل اليه الا من يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما راموه.بعد ذلك ولا راموه . وبذل هذا اليوم جهده وفل حدهم حده . واصابته جراحات . واصابتهم اجتراحات . وكذلك سيف الدين يازكوج أبلى في الجهاد ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم.فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا في ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الاثقال . الى معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرد بمفخره .وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكند هرى ، وأقام ملك الالمان على عكا يبرى ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر . واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد .وقد تخلف لحفظ حصره الوف من

اهل الجلد . ثم تصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهـم . والأسـد سائرة بـالأسل في عرينهـم . والحمية مشـتعلة في عيونهـم وعرانينهم .ونزلوا راس العين . وتطرق بها اليهم مـن عسـاكرنا المنصورة طارق الحين .ولما اصبحوا وجدوها بهم محدقة . وبنيران النصال والمناصل لهم محرقه . وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف . والأمر بالخلاف . وانهم لسهام المنون من الأهداف . وما دارت بهم الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصـوب وتـطيل وتـطول . وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما ابصر الفرنج ما حل بهـم مـن العـذاب . عدوا الغنيمـة في الاياب. وشرعوا في طريق الذهاب . فعـادوا مـن غربـي النهـر راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم . وقتل منهـم خلق،وسرى في حجـب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين . ورحلوا سـحرا خـاسئين خـائبين . وخيولهـم الناجية مجرحه . وقلوبهم الراجفة مقرحه . واشلاؤهم مـن كسـوة الحياة عارية وبالعراء مطرحه . وعرفوا ان حركتهم للهلكه .وان هلكتهم في الحركة . واقاموا على الضر والزاد معدوم . والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا مـن لحـوم الخيل . وهـم يدعون بالثبور والويل . ومـع كثـرتهم قلوا عناءا . وضـلوا رجـاءا وذلوا بلاءا . واعتلوا جدبا وغلاءا . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خافقين من مراميهم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصـحابنا وراءهم يطلبون اردانهـم . متعـطشين الى دمـائهم . يرمـون ارواءهم ، وثبوا على جيادهم ، وثـاروا لمراد مـرادهم ، ولاقـوا اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من منبعهم ، فـاندفع الاصـحاب حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحذوا واجهزوا . وقتل في تلك المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيره متسعير . وطلبـوا بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها . وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال.ولولا ما ذفق مـن التياث مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حـزب الشـيطان! ولله في كل قضية سر . وفي كل ليلة بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بـلألاء الائه . ومـن آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة . ومتاجره الرابحة . انه رأى ان يرتب على العدو كمينا . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمـع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شـوال منتخبـي رجـاله . ومنتجبـي ابطاله وخواص أتراكه . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلاد جلادته . وفي اقاء العدا عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهـم بـأن يكمنوا على سـاحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة . فمضـوا وكمنوا ليلة السـبت متنبهي الهمة . متيقظى العزيمة . وخرجت منهـم عدة يسـيرة بعـد الصباح . منادية بحي على الفلاح . ودنوا من خندق القوم . ونادوا لا قعود بعد اليوم . ومطروهم سهاما . واسرعوهم ضراما . فـطمع الفرنج فيهم . وظنت انها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا قد سرح . فقطعت خنادقها . وبتت علائقهـا . وحثـت سـوابقها . واخاضت بحر الحرب سوابحها . وقد افاضت سـوابغها وشـامت صفائحها . وتجردت عن رجـالتها . وتفـردت بضـلالتها . وحملت بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطارد اصحابنا امـامها . وانهزموا قدامها . حتى وقفـوها على الكمين . واوقعـوها في الهلك المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها فرار . ولم يطـق مـن غرتـه ان يمضي غرارا . وكانت في مـــائتي قنطاري ، من كل مقدم بـاروني وبـطل داوى واسـبتاري . فقتـل معظمهم . ووقـع في الاسر خـازن الملك وعدة مـن الافـــرنسيسية ومقدمهم ، وملكوا وسلبوا وملك سلبهم ، وتقـطع بهـم سـببهم . وما وصلهم اربهم . وجاء الخبر الينا . فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هنالك الاحسـان . وجـاءه مماليكه يقـودون اولئك الاعزة بخـزائم الذل . ويجـودون بمـا استخلصوه من ذلك القل ، ويقدمون المقدمين من سراة الاسـاري . وتلونا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى ومـا هـم بسـكارى)

(الحج ٢) فقد رضتهم التوت وقضقضتهم الليوث . وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخذيها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضون . وخوذ منها مذهب ومدهون . وسيوف ذكور تتولد منها المذون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفدينا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده أسيرا أحضره . فأنعم عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحبير الحبور لابسا . وقد جمع اولئك الأسراء . وما اسعد الله إلا في تلك الساعة اولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما آنسوا فاكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأذن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره . ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت نوبة اليزك لاخينا الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الأسود في العرين . فانفذنا اليه من مماليكنا سرية سرية سرت سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الأنفس بصنعها وقرت . ولما اصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين والمنايا الى ناديهم منادين.فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . واظهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم. وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقومون فيهم رجاءهم . حتى ابعدوهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد . وفلقوا البيض بالبيض . وفلحوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء . وعروهم بالعراء ولتوهم بالتوت . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة من مقدميهم . ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه . وكرة بغير كبوة . وغزوة اننت بأوفر حظوه . ووقعة انت بل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمد لله الذي تزكو انعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في النوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بحشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم . لكنا ماقدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر مايكون من العسكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصة الصحة . ولزمت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمد لله على المهلة في السنتين . فأقمنا مع السقام ، وسقمنا في المقام ، وصبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقامنا في هذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومامنا الا من التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديمة ديمته الالثاث . والحمد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق . بشمول الشتاء العنيف . وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المصيف . واشتعلت

رؤوس الجبال شيبا الثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج .
والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد
السرد . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل الذيل وجرى .
وطمر المطر هوادي الوهاد . وقبض انامل الانام عن البسط
الجهاد . وجمد الخمر . وخمد الجمر . وارتعدت الفرائص .
وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامسى الجو بالجوى المسيء
يعدو ويعدي . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على
حب الاصطلاء الحبا . وا شتغل الملوك بملازمة المشاتي . ومنادمة
المواتى . ومناقلة المناقل . ومعالقة العقائل . ومعاقرة العقار .
ومسامرة السمار ، ومداناة الدنان . واجتناء الجنان . ومناغاة
الغواني . ومناجاة المثالث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف .
وملامسة اللطائف واللطاف . فلت نار عزم السلطان حد الشتاء
العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى الى المشاتي .
وما صده البرد عن مقصده . ولا رده عن مورده ولم يحتفل
باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكترث بكارثه . ولم يحدث امرا
لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره .
وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما
لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سماء الآلاء وارضاه لما
طهر بدم انجاس اعدائه ارضه . وا ستمر على بذل جهده في الجهاد .
ووف بعهده ولم يثنه جفاء العهاد . وقال انما أربأ بهذا الأرب .
وأري راحتي في هذا التعب . ويقيني يقيني في ثلج صدري بلطف الله
عنف الثلج . وما يبرد قلبي مع تقلب الحر والبرد الا برد النصر
والفلح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفها عن العود
الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امورها وانحلالها .
والفرنج قد امنت غائلتها . وتكفى في مداومة قتالها في نوبها
مقاتلتها . فاذن للجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في
الربيع . والرجوع الى مراد الروع المريع . وليأخذوا اسباب
الاستعداد لأوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجال الحدقين في
نصرة الحق للرجاء من اهل الغني والغناء والمضارب
والمضاء . فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكي خامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه . وخلعه رائقه رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان اسعدنا بقرب الملك السعيد.وما أجد جدنا بانارة نوره . واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه ووروده . ولقد تمت بأيامن ايامه وبركات مقامه في العدو نكايات . وظهرت لأولياء الله من الطاف كفاياته آيات . ووقعت بالمشركين روعات . وراعت وقعات . وقد أردنا ان نستظهر بمرافقته . ونبني الامور على موافقته . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه واغزر مزنه ، لكنا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى آدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الأصول . وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاءه . وسر بفضائله اولياءه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والنفوس لغيبته متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والأيام لظلمة الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الانس بعودته متسهنة . والألسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في محاسنه االزاهرة متفوهه . والخواطر فيما تمثلته ايام الاستسعاد به من مبهجات آلائه متنزهة ولاشك ان يصف بلهجته الفصيحة . ما اقتناه من المتاجر الربيحه . وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجحه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوفى نصيب . فقد أمسى مقتل الكفـر بـكل سهم مصيب . وهو لستصرخ الهـدى اسـبق ملب واسرع مجيب . وان الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . واظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفـرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخلوا ساحل عكا من ارعابها وارهابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب الكفر . فاشتغل السلطان بانفاذ البدل الى البلد . مـن الثـابتين في الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جـانب الرمـل ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسـيره الى البلد من البـــدل . فـــان المقيمين في عكا شـــكوا امـــراضا معترضه . واعراضا ممرضه ،وكثرة السواد مع قلة النفقة والزاد . وكان في البلد زهاء عشرين الف رجـل مـن امير ومقـدم وجندي . واسطولى وبحـري ومتعيش وتـاجر وبـــطال . وغلمـــان ونواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خـوفا على الموضع .موهنا عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في الخروج رفقا بهم ورأفة.وما افكر أن في ذلك مخافة وآفة.فقد كان فيه امراء امروا الأمر والفـوا الصـبر ومـانعوا الحصر . واجتـرأوا وتجاسروا . وصبروا وصـابروا . وحـاربوا وخـرجوا . وجـاروا وجربوا . وزالوا وازالوا . وحـاوروا واحـالوا وعرفـوا مـــكامن المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهـم مـن يطعـم وينفق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين ابي الهيجاء السمين . فانه انفـــق مـــا ادخـــره مـــن الالوف والمئين ، مستمرا على انفاق لا تعتـريه فيه خشـية امـلاق وهناك ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على مـا

يذفق في الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام . وتبدد بتبدد نظمهم النظام . والزم السلطان جماعة من الأمراء بالدخول . فخدموا على ان يعفيهم بالبذول . فلم يقبل منهم بذلا . والزم بذقل الأزواد لبعض سنتهم كلا . فلم يدخلوا الا بعدلاي . وقد بلغوا في غي الرأى الى اقصى غاي . واكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين . واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين . واذهبوا الأيام بالمدافعه . وابطأوا عن فرض المسارعه . والملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضهم . ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من دخل عشرين اميرا مقدمهم الأحمد . سيف الدين المشطوب علي بن احمد . وامر السلطان بالمناداة في الابطال البطالين . ليحضروا لقبض الذفقات وكان يحضر الجاووش في كل يوم مئين . ويصبح ذواب الديوان في امرهم مرتبين . لحرصهم على توفير الدرهم . وبخلهم بالذفقة ويعدونها من المغرم . ومعظمهم من نصارى مصر ومن هو في نصرة النصارى . وفي تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما يجب تحليله لايجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم للقبط قطب . وفي الخبط خطب . وللشر شرك . وفي الحسن حسك . وللمشرك مشارك . وللدين تارك فارك . ولهم اخلاق اخلاق . وطباع بالطبع اغلاق . تأوي للبخل والتبجيل الى التأويل . وتقلي لتكثير السوء في الخير سوى التقليل . وهم جالبون للغي . طالبون للبغي . كاسبون للذم . مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولي الخزانة . يرى الشح بما يجود به السلطان من الامانة . واصنعهم في الكفاية عندهم امنعهم للاطلاق واعذقهم بالحذق أقذعهم ، وأعقدهم للحق أقدعهم . واجودهم أرداهم ، وأضلهم أهداهم . وهم متفقون فيما بينهم على الخيانة . مختلفون في الظاهر لابداء الصيانة . وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم . ويوحشونهم بخطابهم ويذفرون بكلامهم . ويقابلونهم بالجبه،ويعاملونهم بالنجه ، ويواجهونهم بالسوء ويسؤونهم في الوجه . ويشتطون في طلب الضمان . ويشترطون مالیس في

الامكان . ويطــردونهم بقبيح الزجــرة . ويكسرونهــم في صــحيح الأجرة . والسلطان يجود جــود الســحاب . ويأمــــر بـــالعطاء الحساب . وبجد حث الذواب . ويجد في بعث الأصــحاب . ويقــول انفقوا ولا تخشوا اقـــلالا . وانهضـــــوا الرجـــــال خفـــافا وثقـــالا . ولاتــــؤخروا شـــــغل اليوم الى غد. امهـــــالا او اهمالا . ولاتقدموا على هذا الفرض فرضا ولانفلا . ولاتعتقدوا ان لنا أهم من هذا الشغل شغلا . وذواب الديوان على عادة جهالتهم . وعادية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . ومادخل الثغر الا قليل من كثير . وماصح من البــدل الا بعضــه . ومــا قضى حــق الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقــوى اســباب الضــعف . وأوفق دلائل الخلف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في ســنة ســبع . فانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لابنفع . وأقام الملك العــادل على البحر لازاحة عال الداخلين .واراحة قلوب الواصــلين . حتــى عاد الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جــانبهم . واقتنع البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصــلت مــن مصر بــالغلة بطس سبع . وكان لها الحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين شبع . وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جمــاعتها ومساعدتها . ونقل مافيها من بضائع وحــوائج . وســلع وروائج . ومأكول ومطعوم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهــدهـم . وانتهى الى الغاية جهدهـم . فلما تسامعوا بــالبطس تشــارعوا الى الملتمس فعلم الفرنج بانقلاب اهـــل الثغــر . الى جــانب البحــر . فزحفوا زحفا شــديدا وحملوا جندلا وحــديدا . وأتـــوا بســــلالم لينصبوها على الأسوار . وصارت عكا وهــم حــولها كالمعصــم في السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . والضــيق متصــادمين . فاندق بهم السلم المنصوب . وسطا بعصابهم المعصوب بها لنصــب سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا كؤوس المنايا وتســاقوا . ورأوا غمــرات الموت فــزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه . وألفوا الأجل كامنا فأثاروه . وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياع نار القراع . واطالوا بشبا العوالي للعوافي باع الأشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على اعقابهم ناكصين . ومن حسابهم ناقصين . ولا شتغال الناس بكشف ماعرا من الغمة . وأظل من الظلمة . والتهائهم بثقل الغلة . عن نقل الغلة . وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر فضرب بها الحشف . وأذهب بكسرها كل مافيها وأتلف . وغرق من كان فيها . وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . وناموا والقدر منتبه . وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على فصيلها فهدمته . وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا اليها طمعا في هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدروهم وصدوا عنها بنحورهم . وبذوها بأبدانهم الى أن بذوا ذلك البدن . وعمروا ماخرب وقووا ماوهن . وقتلوا وجرحوا من العدو خلقا . واوسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فانجلت الحرب عن طريح صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطليح للعقير قريع . وعاد الثغر اقوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر الأمراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك الاسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد بهلاكه ألم الالمانية . وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر الى سقر . كند كبير يقال له كندتيباط دافع القدر فما قدر . وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشري ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس . ليغزوا في البحر ويكونوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا . وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فاذا هي مشحونة بالكرائم الجلائل . من كل آنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصوغة نضارية . وآلة فضية وأباريق وأكواب وأقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصفاح . وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب .ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب . واظهروا بهذه النهضة انهم مناصحون . وليمين الايمان مصافحون . فلما اكرموا بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المنعمة ، وأسلم منهم شطرهم . وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا وأسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهدية مائدة فضية عظيمة وعليها مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا . فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتهم بها اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ماأظن في الوجود ملكا يسمح بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسم لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه . وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا . فجلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي الخامس والعشرين منه أخذ ايضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الأسر حباله ومعهم ملوطة . مكللة باللؤلؤ منوطة . وبأزرار الجوهر مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الألمان . واسر فيه رجل كبير قيل انه ابن اخته وهو كبير الشان . وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرقت المطالع . واشرفت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مــكارمه المكاره . ونزع بلبسة إفضاله لباس الخمول ذوو الفضــل النابــه . واعاد روح الســلطان باعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه . وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العــلاقة . وروى رأيه بــري رأيه . وتلقن آيات النصر من نص آيه . وانتعش عثــاري بمقــدمه . وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيا أملي . وقوي عملي ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غناي ونبــه قــدري وذوه بــذكري وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي .وسن غربي واســنى غاربــي . واقرني وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان إســتكتبني فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت . ولولا انني قويت بــه لاقويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولاتوليت . فــانا شــاكر نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الامراء كل منهم ســبع . ومــافي لقــائه للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص . ومــن ذوي الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مســاورا . ولكل هــول مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فــاذا هــو الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الاكراد . كانوا من الآســاد . ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية المعجبة المحسنة . ليكبس شــواني الفــرنج في مــواضع الربـــط . واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم . ولقوا عوانيها بعوانيهم . وظفرت اســاطيلنا وطــالت . ووصــلت اليهــا وصالت . ونالت من الظفر مــانالت . وأحــرقت للكفــر شـــواني برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العــود تــأخر لنا شــيني مقدمه أمير مبارز كالاسد الخادر لايصحر الا للفــريسة ولايبــرز . وهو يعرف بجمال الدين محمد بن اركز ، فشين الشيني وشــأنه . وما أعانته أعوانه . وامتلات بالاعطاب أعطابه . واضطربت للاذكار

آركانه . واضطرمت باهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقف الأمير على قدم جلده يجالد . ويجد ويجاهد . وقد اثقله بلبس البسالة الحديد . وخف به العزم الشديد السديد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد . والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولاا ستطاع الانقياد بالطوع . ولامكن العدو من مكانه . وأخذ مع الشانيء بشنآنه . ولولا ان ملاحيه جبنوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر النجاة . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خذ منا الأمان واستأسر . وهون الأمر عليك ولاتعسر ويسر . فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهلاك أن لم تعطنااليد وثبت على هذه القدم . فقال ماأضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير . ولايخاطر الخطير الا مع الخطير . فسموا له كندا أرضاه . وأراد ان يشركه فيما الله قضاه . فلما دنا ليأخذ يده لزمه وعانقه . وقوي عليه ومافارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر . وسعداء المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضي بن قريش الكاتب . وكان صدرا تجمل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بالغ الحكم . مهيبا يخشى مرهوبا لايغشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة من الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع . ولرأيه ري وريا . وتدبيره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية دينا ودنيا . ولم يكن له في الكفاية كفء . ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رفء . وكان رجل دمشقي بنابلس له ملك بدمشق قد تركه . ورغب في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه . فتقاضى ديناره فانفصلا على التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبكر البائع الى سلام

المشتري ووثب وثوب المجتري وطعنه بمديته . وهو آمن من في خيمته . وفتك به فتك اللعين ابي لؤلؤة بالفاروق . وخرج من الخيمة كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله . ومضى بسلك سبله . فادركه الناس وقتلوه . وكاد يفلت لولم يعاجلوه . ففجع المنصب بمصابه وناب عنه اخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد البرد لم يقرب محل حله . وللغيث عيث ولزور الربيع ريث . وللسحب سح . وللضح شح . ولعين الشمس غض . ولوجه الغيم ومض ولأيدي العارض بسط وقبض . ولنواظر البرق تنبه وغمض . ولنواجذ البرد كشر وعض . ولفص الفصل ختم وفض . وكل صاد في بحر كانون كنون . وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأوحال أحوال . وللأهواء أهوال .وللشمال شمول . وما للقبول قبول . وللجنوب نذوب . وللدبور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا صبابات وصبابات . وللندى الندي جنايات وسرايات . وللجو الجوي آيات ونكايات . وللغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي الرباب عمائم . وللنكباء نكبات . ولشبا شباط شبات . وللرواعد رواعف . وللهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهدو ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفة وعتو . وللرعايا العرايا من الرياح الحيارى رذايا أذايا . وخبايا المروج الثابته في زوايا الثلوج النازلة خفايا . وللعواصف القواصف عواص غير قواص . والعارض عارض للحب في العراص عراص . والقوارس قوارص . والخوالس خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه . والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم . والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا . ولتجهيز البدل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالأزواد . وتعود وترجع اليها بالأجناد . ويحرص ويحرض ويرسل الى السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض الذواب في ذلك وإليهم يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . ويدفق فيهم الاموال . والأمر مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

سنية . ولوافح عزماتهم ذاكية وذوافح مكرماتهم ذكية . والمماليك الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص . يغادرون به ولايبارحونه . والعدو على عكا حاشد . ولضالة ضلاله ناشد . ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الأسوار على الأجناد والأبراج على الأمراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة في المشقة التي تعدها الاشقياء من الشقاء . ان وجدوا غرة اهتبلوها . او استوعروا كرة استسهلوها . او صادفوا ملمة صدقوها . أولقوا غمه كشفوها ، او صرفوا أوجههم الى نائبة صرفوها .

ذكر ماتجدد من الحوادث وتكرر العزائم من البواعث

في يوم الاربعاء تاسع المحرم ، سار الملك الظاهر لقصد بلد صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي من اصحاب الأطراف السفر . فان السلطان رخص لهم في ذلك . فانتهجوا في عودتهم الى بلادهم المسالك . وأقام السلطان في اصحابه . وخواصه وملازمي بابه . وملابسي جنابه . ورجال رجائه . وخلص أوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك المظفر تقي الدين ليتسلم مافي شرقي الفرات . من البلاد التي كانت مع مظفر الدين . مضافة الى ميافارقين . فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر وميافارقين . وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد وماردين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء منها للطلاب . فانه مارامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من يشترط الفسحة له في استضافة ديار بكر الى بلاده . ويقال له لا سبيل الى قصد أحد ولاانتزاع بلد ولاازالة يد . فان أرباب البلاد اكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاقد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متباعد . فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف آفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا في قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد . فقال تقي الدين انا لي في ذلك الجانب ميافارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها . أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهي . وبلغت المنتهى . وأنا ادخل على الشرط وعنه لاأخرج وأجمع العساكر والى نصركم مورد في الروع ومصدر ، ومازال يستسعف السلطان عمه . ويسترهف في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل . حتى اخذ دستوره . واستكتب منشوره . وسار على أنه يسرع ايابه ،ويحكم في العود اسبابه . واذما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب . ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لاتدخل في الحساب . وسارع الى الرحيل وسار بعد ما استشار ولله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجواد الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المحرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة منه اربعمائة رأس تلف منها في الطريق أربعون . غير ماكان اصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم ايضا ابقارا وآب قارا . وسار بالغنيمة سارا . واهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح العماد فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من الفرنج خلق . فغرق في بحر الأسر من لم يسر اليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا . وماهديتا بل اهديتا . وشاهدت الأسارى . قدام السلطان وقد احضروا فردهم على الذين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الأول . خرج اصحابنا مــن البلد على العدو بالنائب الاعضــل والناب الاعصــل . وكبســوه في مخيمــه . وخيموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتــى اسروا مــن الفــرنج وقتلوا جمعا . وأوسعوهم الى ان ضويقوا قمعا . وعادوا ســالمين غانمين . كاسرين كاسبين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في الســبي . وعرف الله لهم حق ذلك السعي.وفي الأحد ثالث هذا الشــهر . شــهر سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليزك وكانت النوبة للحلقــة المنصورة خواص السلطان مساعير المعتــرك . وعظمــت الوقعــه . وفخمت الروعه . وصدمت الصدعه . واحتدمت على الفرنج بنارهــا الصرعه . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معــروف كبير . ولم يفقد منا الا خادم رومي صــغير عشــر بــه في الحملة فــرسه فلم ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعش . وهذا الخصي كان فحلا من الفحول . ناهضا على الكفــر للاسلام بحمل النحول . وانتهى الينا ان الفرنج على عزم الخروج . ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهــم ولا علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشــوا عليهــا التلف . فــأمر السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد الســاحل . ويكمــن بعسكره وراء التــل الذي كانت فيه قــديما منزلتــه . وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده . وأقاربه وأولاده . فكمن وراء تل العياضية . في العصــبة المنصــورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شــهر ربيع الاول . مســتظهرا بصحبة ولده الملك الأفضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليســتأنسوا بالحرب ويدمنوا على مبــاشرة الطعــن والضرب . فعــرف العــــدو الخبر . فما اقدم على الخروج ولاجسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوك والامراء . ووصــل اليه مــن بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمراكب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحنية . ومــا أمــن مــن المنية . وتحاماه الحمام . وعامــت في بحــر لياليه وايامــه الأعوام . وهــو ممسوخ الحليه . ممسوح اللحية . قد بلى مما بلي . وقلي من طــول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لداتــه ولذاتــه ومــا عدم . وكم جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتــى لم يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا ذهابه . فتعجب السلطان مــن مجيئه من البــلاد الشــاسعه . واختياره الضــيق على الارجــاء الواسعة . فسـأله كم بينه وبين وطنه . ولأي ســبب حــركته مــن سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانمــا خــرجت بقصــد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بــالاطلاق . واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفــرنج راكبــا على فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس . وسأله خدام اولاده الصغار . ان يأذن لهــم في تجــريب ســيوفهم بجــرح الاسارى الكفار . فلم يأذن لهم في ذلك وابــاه . فــأرضى كل منهــم بامتثال الأمر الذي أباه . فقيل له:لأي سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم . فقال:لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فــانظر مــا تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر . وكان بحلب المقدم المؤمر . وهو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . وللسلطان بقربه ومجــاورته الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضه واسمره وبيضه ومغفره . وجني جنده وسني سنوره . وجلبه ولجبه . وزمره وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقــدم في ذلك التــاريخ بقدومه الملك الامجد مجد الدين بهــرام شــاه صــاحب بعلبك وقــد استصحب معه مماليكه التــرك . وقــد نوى بــالمشركين الفتــك . ولسترهـم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقــواطعه وقــواضبه . وصوافنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل بكواكبه واظمأ جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فعــن

ذلك اليوم من القادمين والمتستقبلين بذلك الفضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء . وجرى ذلك الوادي مع الأجناد والأمراء بسيل خيلترددأماء (٤٩) الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حافاته الخرق . ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع . ومن ديمته وبل الذبل من الاحداق والنواظر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه . واسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فوارس لاعرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الاول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قوله . وانه اذا جاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم رب صلف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف منكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تتلهب . ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . وافلت من يده وطار . وحشا حشاه الباز الذي نار النار . ووقع على سور عكا . وحزن الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى وما آب . وثبت وما ثاب . فبصر به اصحابنا فأخذوه . والى السلطان انفذوه . فأبدى السرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده الظفر والمنحة فألا . وبذل فيه الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها . ويجرون بجواريها . وينهضون بسواريها ورواسيها . وينهشون بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم . فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم . واسروهم باسرهم وسبوهم . وبغتوهم من البلاء بما اتوهم به وبلوهم . وكنسوا كل ما كان في الكنيسة . من الاعلاق النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم . ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة عشرون نسوة سبايا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا . واقتسموها خرصا . وزادوا بمانالوه حرصا . واستغذوا مما استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل النبل ديمه ، وركبوا باسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدم رجالها فلما وصل أرهف حد عزمه . وأفضى فيض غيظه الى غيض حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من الم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . فلبث مفكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جدد . وناشب القتال . وواظب النزال وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالأعناق . واعتناق الغلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شده . فنفذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرج . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقرير . وحمل له هدايا . وتحفا سنايا . ووسع له الأزواد . وبذل له الامداد . فأخذه في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . ومابطشت يد عادمـة الا يد كيد الكيد . وا ســتولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امـواله الغزيرة . وسيأتي ذكر وروده ، وماتم به لاحزاب الشيطان وجنوده

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصـلت مـن ثغـر بيروت كتب مبشرة . وبالنجح متجددة . وهـو ان اصـحابنا اخـذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مـراكب الانكتير خمسـة وطرادة . ولم تكن لولا اباء رجالها للضيم معتاده . وبحـزام القهـر مقتادة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخاير مـن عدة ومال ، واثقال وانفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطرادة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البـلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فـــاما السبايا فقد اخرجن على البيع بالذقود والنسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بـالجد والجلد . والعدد والعـدد والمدى والمدد والجمـع المحتشـد والجمـر المتقد . والبيض واليلب . والبيض والقضـب . والسـمر السـلب . واللجب والجلب والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بـالوشيج والامـر المريج . والقصـد بـالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعبيد . والاوبـاش والاوشاب . والكلاب والذئاب . والسباع والضـباع . والضـواري الجياع . والاساود والاسود . والزرق والحمـر والسـود . ودبـوا وذبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبـوا . وغبـوا وعبوا وجابوا وجبوا . وزحموا ورجمـوا . واقـدموا وتقـدموا . وقدموا سبعة مجانيق وقربوها . ونصبوا فيهـا ونصـبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كانهـا تـلاع . وهـي في الجـو متراميه . وبالجو رامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلعة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاض الجدار . منفضة اسوارها لانفضاض الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قـائمة قـاعدة . بـارقة راعدة . صـادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال اجنتها . وحنايا الحنين على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجـار . ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطاق . صوائل بالفلق على الخلق . مـطايا للمنايا . روايا لخبـاياها البـلايا . في كفاتها افاتها . وفي حـركاتها ادراكاتهـا . وللتعـذيب عذبـاتها . وللترهيب جـذباتها . ومـا اعظم جنايات جنادلهـا . واظلم غوايات غوائلها . وهي الروائم الروامي . والحوائم الحـوامي . والهـوادم بالهوادي . والصـوادم الصـوادي . ودواعي العـوادي . وذواعي الذوادي . والذواعب بالذوى . والجـوائب بـالجوى . والصـوائب بالمصائب . والذوائب بالشوائب . اذا جـذبت جـذت . واذا قـذفت اقذت . واذا طوحت طـرحت . واذا حلقـت حلقـت . واذا اطـارت ابارت . واذا القت القمت . فشق على اصحابنا بـالبلد شـقاقها . وكادت تفتح اليه الطـريق طـوارقها وطـراقها . فـاستصرخوا بنا وانهضوا . وحضوا على حظنا وحظهم وحـرضوا . واسـتذفروا . واستنصروا . واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبـا في العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وسـير مـن كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العسـاكر عنه ومـر الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب . ونكايتهـا في الضر والضرب . وعرف امـاكن القتـال . ومـكامن الرجال . وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظـل . ذل جمعهـم وكل . وترك الزحف واذفل . واذا عادوا وعدوا . واناروا في الحـرب واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه . وفطموه رضيعا له ثلاثة اشهر في غير أوان فطمه . واسـتحلوا بحـكم الجهـاد في جنح الظلام ظلمه . وفجعـوها بـواحدها وسـاعدها . وكدروا صـفو

مواردها . وقطعوا عنها فلذة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدها . وحرموه در لبنها فدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهة . والخد خادشه . والوجه خامشه . معولة مولوله . مذهلة مشتعلة . وقد شدهت ودهشت . وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها . مذ سلب طفلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والانين ترجيعها . وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها . وهي نائحة في كل ناحية نادبة في كل ناد . نادية لكل فؤاد . عادية في كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفه . وبالنحيب هاتفه . والدموع حادرة بتصاعد انفاسها . ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها . قارضة صدرها بتقطيعها . ضارعة لفقد رضيعها . معولة على الطفل معولة على الطف . متذكرة من الذكر متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . ونار اكتئابها ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفراتها . وتتلهب حسراتها . تبكي ببكائها . وتشكي من دائها . وتنشد ضالتها . وتطلب مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشتعل نار قلبها على فراشتها . فلما شاهد السلطان حريبة حزينة . مسكينة مستكينه . متجننة متحننة . مولعة مولهة . موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها . ورثى لبلواها ورحمها . ورق بلطفه للطفل الرقيق . وسلك بفضله طريق التوفيق . وطلب الرضيع . فقيل له انه بيع واضيع . فان آخذيه باعوه بثمن بخس . ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق نخس . فما زال يبعث ويبحث عنه . ويلوم باذله كيف لم يصنه . حتى جيء به في قماطه . وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه . فلما بصرت واحدها . ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت . وشدت يدها به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها برد روحها . وأسا ماأساء الاسى من جروحها وقروحها . وروحها بروحها . وفرع دوحها . واغناها بغنائها الشكر عن نوحها . وظهر سر سرورها عليها ببوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد مااشتراه من مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياديه .

-٦١٠٦-
ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متاعبهم في ابتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم . وداروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب الذوم بكل حد مرهوب وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دانية . انتقل السلطان الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بالكلية . بالعزائم والصرائم الماضية المضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحدة . بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه ان القوم قد عادوا العوادي . ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا البلد اشد مضايقة . وعالقوه أجد معالقه . فامر الجاووش حتى نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل الى الخروبة وقوى اليزك . والزم المقدمين والامراء بحفظ ذوبهم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قلتها خرج بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بها بالا ولم يلفت اليها جنانا . بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو الى مجثمه . والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة . ونزل في خيمة لطيفة لاجله مضروبة . وصل من اليزك من اخبره ان العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ماكان فيه وزحف . وانه قد ارعب وارعف . وأرهق وأرهف . والهى والهف . وأرهب وأرهج . وأعجز وأزعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وأنار . فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم فأعادها . واستنهض الى الفريسة آسادها . واجرى في حلبة الحمية جيادها . ودعاها الى طعن يبرح بالذوابل . وضرب يرنح اعطاف المناصل . وامرها من الحرب بأمرها . وأدارها من مري اخلاف الدم بأدرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظـاهـر العلو . والعدو بالحصر والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعناده مستمر . والسلطان في كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهـم ويغاديهم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا . وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وفتك كما تمنته المنية . ورمي كمـا حنت اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الغي مقيمـه . وللرمـي مديمه . وبالاحجار متقاطره . وعلى الاقطار حـاجزة . وللجـلاميد قارعه . وللصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق . فـدنوا منه دنو المحذق . وشرعوا في هجمـه . واسرعوا الى طمـه . ودامـوا يرمـون فيه جثـث الامـوات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم . واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلهم قد اقتسـموا فـريقين . وافتـرقوا قسمين ففريق يلقي من الخندق ماالقي فيه . وفريق يقـارع العـدو ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكتير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر السرور وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكتير . واظهروا انه في الجمع الكثير والجـم الغفير . وكانت معـه مـن الشـواني خمس وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضـاهي تلعـة وتـوازي قلعـه . وأحدث في القلوب روعة . وأرث في النفـوس لوعة . ولمعـت لنا مـن خيامهـم تلك الليلة نيران زائدة . وأنفـاس للشرارة متصـاعدة . وألسنة للشعل نضناضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصـول اولئك الشرار شرارها . وأورت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قـد بسـطت على أهل الدياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضـلالهم الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كانوا مـن أهـل النار

ببرهانهم . وأتتهم بـاتيانهم . وأضـافتهم في مـكانهم . وملك الملك بامره أمرهم . وأراهم أن بيده نفعهم وضرهم . وملأ عين الملاعين . وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد آبارا . وأثـر في المكر آثـارا . وأرث للشر نارا . وأثار لنصرة النصرانية ثـارا . وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به مـن تـأثيره وتاريثه(٥١) . وارتابوا وارتاعوا . والتـاحوا والتـاعوا . وغدت الألسنة ترجف والقلوب تجـف . وكاد البـاسل يجبـن . والبـاطل يخشن . والحق يلين . والدين يدين والسلطان قـوي الجنان . روي الايمان . صاف يقينه . واف دينه . شاف نصـحه . كاف نجحـه . مثبت جيشه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معـاشه . متأن في تفكره ، متأت في تدبره . متـوكل على ربـه في نصرة دينه . متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتـروعه المخـافات ولاتخيفـه الرائعات . ولاتزعزع الخطوب طود وقـاره . ولاتفض النوائب خيم زماره . ولايلين للشدائد . ولايستكين للروائع الرواعد . وكم سـكن الاسلام بحركاته . واخصبت الأيام ببـركاته ونام الأنام ليقـظانه ، وآمنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ماعرا . وما درأ عزمـه لما درى . ولارد وجهه عما قصد . ولاصدف رأيه عما عليه اعتمد . بـل ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستنيرة . وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل . ودلف في الارض فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الانكتير ان جمع كفـره للتبتير . وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهل التوحيد مولعة مـن نحـور أهل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبـا في كتائبها . لتحتبي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها . بخيل تأبى الضيم مثل إبائه . وفخر مثـار النقـع يذوب عن لوائه . ووجه كلامع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام السلطان على هذه الحـالة . سـاميا في مـطالع الجـلالة . لم ينض سلاحه . ولم يخفض جناحـه . ولم يركز رمـاحه . ولم يردع للروع مراحه .

-٦١٠٩-

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسه . وزادها من العدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلأها غلة ونخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا . من كل من طهر وتزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكي . فلما توسطت ثبج اللجة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكتير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه . وعدتها عوانية . وقاتلتها نصف نهار . وهي لاتذعن لاقتسار . فاكبت من العدو مراكب . وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت ، وقتل من الفرنج خلق عليها . وما امتدت يد عدوانهم اليها . فلما يئست من سلامتها . وزلت عن استقامتها . وجالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل . والشح بالدين أحب الينا من البذل . فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها . وأفترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الأولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . وما يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الوقعة أول حادثة للوهن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الأسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد أظهرت لها في الشر غائله . ولها أربع طباق . شدها على الارتباط باق . ولها من الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها الى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس . وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلس . وبلي البلد منها بكل بلية . ورزي بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقربوا بتقريبها أسباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصـحابنا يطلبـون الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشـد قـراع . وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قـوارير النفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد . وتنبو عن الاحراق وتنبي عن الاخفاق .حتى بدرت قارورة انقضـت على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسـومهم في الالتهاب . فعوذناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صـاحبكم وما غوى) فجاء من انقلاب القـارورة قـرار القلوب . ومـن حـر انفاسها بـرد النفـوس . وكشـف شـعاعها ظلم الكروب . ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بـكل نور . ولهم ببوار قوم بور . ودبت شعلها في أضـلاع الدبـابة وجنوبهـا . فاحرقها الله احراق اهلها بذنوبها . وكما أضاءت الافاق بنيرانها . اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سـواد الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد . فجلا حريق هذه الدبابة صـدأ قلوبنا المغتمـة بـالبطسة الغـريقة . وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فانما احتـرقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتا لتلك العطسة .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصـحابنا في عكا عند زحـف العـدو دق الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدنا في الزحف الى العـدو بـالنفائس والنفوس . ولما اصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جـانب العـدو مثـار غبـراته . فعلمنا بزحفه . وعملنا في حتفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم لامن حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبـرد . مضـمر للجرد . فضفاض السرد . قضقاض كالاسـد الورد . مشـتاق الى الطرد . ملتاح من مـاء الوريد الى الورد . مـن التـرك والأكاديش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلتات الى الرقاب . ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب . وكل ثمل كأنه نزيف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره . وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم السوابح السوابق في بحور الأعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق الشاكي . وكل مصمم مصمم درعه غير محقبه . وسهامه غير مجعبه . وسيوفه غير مقروبه . وقبابه لمداومة اجراء فيه غير مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله . وأبيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله . واشتبهت في الذقع الوان خيله . وامتدت الى قرار اللقاء أعناق سيله . فكانما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب . وعد الذقع في وبل الذبل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم . وحملت ليالي القتام إلى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى وصلوا الى القدور على اثافيها . وهتكوا وفتكوا . وادركوا وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم . ووقفوا بقنطارياتهم وطوأرقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحملون . ويعلون من دمائهم وينهلون . ودخل الظهر وحمي الحر . فافترق الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت من أشدها واجدها كريهة . غير انه في هذه الذوبة عرضت نبوة . وكادت تتم كبوة . فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليهـا بسـباق رجلهـم وراكبـي سوابقهم . فانتشب الحرب .واستجر الطعـن والضرب . وكثـرت الجراحات . وكرثت الاجتـراحات . واستشهد ممـن عرف مـن المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل مـن المشركين جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الوقعة . أن رجلا مـن مـازندران مـن اهـل الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأذن وقـت السـلام على السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الوقعة استشهد . فلقي الله بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العـدو فـارسا وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا مـن جـانب البحـر أطـلابا . وتحزبوا في ذلك الفضاء احـزابا . وركب السـلطان مـن مجـالس عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبارة العـدو وإبادته . وتقدمت المقدمة واقـدمت . وجحمـت نار اقـدامها ومـا احجمت . ومازالت نجوم النصول تنقض . وختوم النحـور تنفض . وعيون العيون ترفض . وديون النحول وحقوق الحقود تقتضي وابكار الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغـائب ، وذكباء لها من الذوابل ذوائب . وبحر تسبح فيه السـوابح . وشرب بكاس المنية منها المهج غوابق صوابح . وغبراء اساود نبالها تتواثب عن عقارب القسي . وثعالب لهـاذم صـعادها تتـلاعب في أراقـم السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبـان راياتهـا تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابغها تفيض عليها جـداول القواضب . وغران سوابقها تغيض في غطامط الغياهـب . وارواح اغمادها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضـارية على

الردى جريه . حتى دخل على ليل الذقع الليل . وجرى من ديمة الدم السيل . والتفت لما التفت بالخيل الخيل . وافرج المازق عن قتلى جرى عليها من السوافي النيل . واستشهد من المسلمين بدوي وكردي . ولكم وقع من المشركين رد رديء . له في الهاوية هوي . وعليها من زفير جهنم دوي . وأسر من العدو فارس بفرسه . ولامته وقونسه(٥٢) . وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى . وقد عم من الشجب ماشجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد اخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواضب يفرين . وطوالع غروب في الطلى يغربن وبالردى يغرين . وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين . فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء . ويوا فقه القضاء في المضاء.وكل معتقل الرديني اخف الى الوغى من سنانه . وكل مشتمل المشرفي خضيب الغرار ريانه . وكل ملتم بعثير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونة . وامتد راجلنا امامهم . واثبتوا اقدامهم . وطال القتال وطارت النبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣) واعمى العثيرة وعم العثور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب نوره بين يديه الى دار القرار . وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان . والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا انهما لاخت ملك الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . وأخبرا انها زوجة صاحب صقلية فلما هلك . صادفت في الاجتياز بها اخاها هذا الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقدراما النجاة من تلك

الفاجرة نجاة الآخرة ، فاكرم السلطان وفادتهما . وأجزل بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المرقيس أنه هرب الى صور . وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبا قبوله . وانقطع وصوله . وكان سبب نفاره . وموجب استشعاره . ان هنفري كانت زوجته ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده . وسواء في هذا الميراث . بين الذكور والاناث . فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا الكبرى . فاذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجته الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة. وبقيت هذه زوجة هنفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهل الملك لتكون الملكة لك زوجة . ولابد لي من تقويم هذا الامر حتى لاأبقي فيه عوجه . وغصبها منه وصرفها عنه واتخذها له عروسا . وأحضر لنكاحها قسوسا . وقيل انها كانت حبلى ولم تخرج من حبالة الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل . وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلما جاء ملك الانكتير تظلم اليه هنفري والملك العتيق فانفتح بذلك له إلى مؤاخذة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قر. وأخذ معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار . وقد سد بسواد عديده النهار . وأفاض ببياض حديده الانوار . ومقدمه

مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد . والسهم السديد . والالمعي اللوذعي . والكميش الكمي . والنقاب النقي . والعف التقي . وهو ذو همة في الغزو عالية . وعزمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية . وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه واقباله عليه بأنسه . وسار بعسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحر ممايلي النيب . وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان مكرما الى جنبه . مقدما على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعاء ثاني جمادى الاخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة . بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجي . الذي يسرع الى لقاء اقرانه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري دي الزند الوري والسيف الروي وأمثالهما من المماليك الناصرية . والمساعير الاسدية . أسد العرين . الشم العرانين . الغر الميامين . وفي عصر هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبها . فركب السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد . وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بآساده في عريسه . مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب كانهم اجادل والجياد مراقبها . وخيل كانها الظلماء والترائك كواكبها . ونقع كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبه . وتملا الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه . عاليات غواربه . ثقال مذاكيه باعباء عواليه . كانما نهضت لاذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه . وتلقاه من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهو من جملتهم البحر بل الغيداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهو كاسمه مسعود مجدود ، وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء . وساق على تعبيته . واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه نهض واستنهض ، ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته

واحضر له اسباب تكرمته . وآنسة بانبساطه . ونظمه مع اصحابه في سمط سماطه . واجلسه الى جنبه . وعقد له حباحبه . وخصه بخلع وثياب . وحصن عراب . ومايليق به من كل باب . وانصرف عنه ونزل علي ميمنته . نزوله عام اول في منزلته . وفي يوم الجمعة رابع جمادى الاخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة اعنة خيلها الى الجهاد ثانية . ساطية على الكفر بباسها جانية . وقد علمت الوقائع انها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانية ، فما نزلت حتى عرضت على العدو مقانبها . وابرزت لعينه قناها وقواضبها . وارنت برسل المنية اليه قسيها . ثم جاءت والقيت بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد . والجموع تتوافد

ذكر ضعف البلد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه . واسلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافته . وسمت اليها بآفاته . واعادت جوانبه مهدومة .
وذواجزه مهتومة . وانحطت بمقدار قامه ، فلم يتمكن احد من عليه من اقامه . وضعف البلد والجلد . وخلا بالهم عليه الخلد ، وقد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم . ووكلوا بها فيالقهم . ونحن لا نألوا في الجهاد جهدا ولانترك جدا . ولا نجد من مضايقهم بكل نوع بدا . وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد اشفى من المرض . واشرف من المضض ، حتى حلق راسه وحلق لحيته . واستلقى لانتظار منيته ، فتثبط الفرنج وتثبتوا . وسكنوا وسكتوا ، الى ان يركب فيركبوا ويثب فيثبوا ، وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة وانجبار كسره ، وانطفاء جمره ، وانسداد ثغره .

-٦١١٧-

فصل من كتاب الى صاحب الموصل

في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائما في المقام الكريم . وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح . وانشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح . وجاء والكريهة ذاهبة بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح . وشارك في الجهاد وشد الأزر . وسدد الأمر وآزر وعضد . وظاهر واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم . واستضرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمرهم . واخذوا فيه نقوبا . وحكموا في الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد اشرف . والعدو بخندقه محتجز . ولفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن جثوم الموت عليه في مجثمه محترز . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر بلطفه . ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه . والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج . ووضح لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين الثلم . ويجلون عنهم بما يشبون من نيران الظبا الظلم . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمع من امر الاصحاب الى الأصحاب . ويكفي هذه النوبة الصعبة فهو كافي النوب الصعاب .

فصل في وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التي وفت بعدتها المناجده . ووافت بعدتها المنى جده . واقبلت اقبال الآساد في عرين الوشيج . وماجت موج البحار في غدير الزغف النسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق . والمت بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جاءت في وقتها منجدة من جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجده . واستظهر الاسلام بظهورها . وسفرت وجوه النصر بسفورها . فأحجم الكفر باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سهامها . وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفض بالفضاء ختام قتامها . وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغياثه . وابعث امداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشد بجميع ملوكه . وغصت مسالكه وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لج في حصر الثغر ونصب آلاته . وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب من الضرب . واخذ منه مواضع في النقب . وقد اشفى على خطر عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهذا اوان رفض التواني . ونهوض المسلمين من الاقاصي والاداني . والوصول بكل ما يقدر عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهوض بعسكره الى نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فللاعذار اوقات ، ولا يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سواه التفات . وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذ ايام رسول ، وسـأل ان يكون له الى السـلطان وصول . فاجتمع والملكان العادل والافضل . وقالا له لا يمكن لقـاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصـود عنه يعـرض . ليعلم في الاول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السـلطاني فمثـل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكتير اليه . وقال هـو يؤثـر بـك الاجتمـاع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا حرج اليك . وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرج ، خاليين مـن مقتضـيات المرج . وكلاكما عن عسكره منفـرد . ولحـديثه في الخلوة مـورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لايفهم بلساني وانا لا افهـم بلسـانه . ونحيل بـالبيان على تـرجماني وتـرجماته . فيكون ذلك الترجمان رسولا . فلعله يرد بسول ويصـدر رسـولا . فلمـا لح في الطلب . وألح في الارب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . ودخل وقد أخذ أمانا . وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا ان ملوكهم منعوه . ومن ركوب الخـطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكتير رسوله بعد ايام . يذكر ما شاع من تأمر الفرنج عليه واحكام . وقال الامـور مفـوضة الي . وانا أحـكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفاتني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه . وإن دامت بينهم الحـرب والمعاداه . وعند الملك ما يصـلح للسـلطان فهـل تـأذنون في حمله وقبوله . وأخذه من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهدية بشرط المجازاة . واستدامة المكافأة الموازاه . فقال عندنا بزاة وجـوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقـد ضـعفت فهـي طـلائح روازح ، ونريد طيرا وجاجا (٥٤)تصلحلطعمها. فـاذا اسـتوت حملناها الهدية على رسمها . فقال العادل لا شـك ان الملك مـريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ، ونحن نحمـل له منهـا كل مـااليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجـة . واسـلك غير

هذه المحجة محجة . وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هل لكم حديث . فقلنا انتم طلبتونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعه اسير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واوصل الى السلطان ماحمل من التحية . فشرفه بخلعته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وماكانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثه . وهؤلاء طلبوا للملك فاكهة وثلجا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسالات تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالاة الرمي بالمنجنيقات وتسوية المنصوبات وتعبية الالات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلحل السور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعضعت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولايقي ولايقوى . كي يثوى . واهل المدينة قد كثر تعبهم لكثرة الذوب ولقلة العدد والحجر هاتك . والسهر ناهك . والعمل دائم . والخلل لازم . والقلوب قلقه . والظنون مخفقه . والمتاعب شاقه . والمشاق متعبه . والاحوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنيقات تنصب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصب . فلما اشتد الزحف . وزاد الضعف . احتاجوا الى رجال المنجنيق المقاتلة . والتناوب على المنازله . وهناك ظهر ان العدد لايقي ولايفي . وان القليل لايكف ولايكفي . وان خروج من كان في البلد لاجل دخول البدل لم يكن صوابا . وان تقصير الذواب ابتداء في الاعطاء جلب في الانتهاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الاخرة يوم الثلاثاء . بمـا عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهـم . وطرق اليهم بوائقهم . ونهب مـن خيامهـم مـاتطرف . واشرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهـار ليلا وبـالبيض الليل نهـارا . وامسى السـلطان تلك الليلة سـاهدا لم يذق طعـاما . ولم يسـتطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل مـن يلقـي الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصـدور بصدور الرواعف . ويشير بالامن عن مواقف المخـاوف . وكل مـن الضرب في جبينه شامة . وللطعن في جبينه علامة . على خيل كامثال القنا تحمل القنا . وضمر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :

في غداة صباحها في حداد

نسجتها ايدي المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتـال أشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهـايته . ولم يبـق الا تسـليم البلد إن لم تعملوا شيئا.ولم تنجدوا في الذب عنه سعيا . فضقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولا قـوة الا بـالله لانملك لانفسـنا ضرا ولانفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهـو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغـرة من تلك الثغر افرنجي . كأنه جني مستشيط نجـي . وهـو يدافـع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقته لجسـمه صدفا . وصار لسهام المنية هدفا . وهو كانه مما نشب فيه النشاب

القذفذ . وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ فلم يزل واقفـا الى ان احرقه بقارورة النفط زراق . فأمسى وهو حـراق . ووقفـت ايضـا امرأة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصماءها وتدمي . فلم تـزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر انتقلت .

ذكر خـروج سـيف الدين علي المشـطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . ومل اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرج . وقلة البدل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعـت منهـا بـدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امنه . خرج المشـطوب الى ملك الافـرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم مـا عاملنا كم بـه عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى مأمنهم نمكنهم . ونحـن نسـلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسـلم . واذا فعلت هـذا فقـد حـزت المغنم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتـم اليوم ممـاليكي وعبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب مـن عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه ، واغلظ له في القول عمـلا بقـول الله تعالى (وليـجدوا فيكم غلظه)(التوبه ١٢٣). وقال نحـن لا نسـلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الأسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بـالغرض المطلوب .قـال جماعة من الامراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هـذا

الامير الكبير ، والمستشار والمشير ، قد اشتغل باله .فسواه
ماباله . وعمروا بركوسا . ورأوا في هربهم رأيا منكوسا وربحا في
دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربوا عليهم
الأمر الشاسع . وجاؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقائهم في
نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فنمى الى السلطان الخبر بهرب
الجماعة . وانهم خرجوا الله وله عن الطاعه . وانهم جبذوا عن بذل
الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وأبدلوا الاضاءة
بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الأمراء المعروفين .
وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل
بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرتاش بن جاولي . وهو شاب أول
ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقي من الأسدية الأكابر .
ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الوافره فقطع
السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة
بشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ أرسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل .
المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل
بفضل الأجل الفاضل فلم تعد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم .
وعاديا ممقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين . وبضعف القلب
وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي
نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على
نفسه العودة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته .
ووقع بعد ذلك في الأسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة
دينار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الاحوال ، وما نحن عليه من رجاء
النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد
وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هدته

بكثرة الضرب . وكثرت ثلم الســور في مــواضع النقــب . وعظـــم الخطب . وا شتدت الحرب وا شفى البلد وا شرف . وا شتفى العدو بما فيه وا سرف . ولما لج العدو في الزحف . وا ستسهل في التــطرف الى البلد طــريق الحتــف . ركبنا في عســكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتم . والى مطمحه البعيد مــن أمــره مــرتم . ولما عاين اصحابنا بالبلد ماعليه من الخــطر . وانهــم قــد ا شــفوا على الغرر . فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثــوقه . وأعمــى قلبــه فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثغــرهم . وبــاءوا بــوبال غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا هــربهم . ومــاأرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم . والمقيمون من أصحابنا الكرام . قــد استحلوا مر الحمام . وأجمعوا أنهم لايســلمون حتــى يقتلوا مــن الأعداء اضعاف أعدادهم . وأنهــم يبــذلون في صــون ثغــرهم غاية اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مــع الفــرنج في التســليم فــا شتطوا وا شترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومــدوا ايديهــم في القــوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من البا شورة وتارة من النقــوب ، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب . ونحــن وان كنا للقــوم مضايقين وبهم محــــدقين وعلى جمــــوعهم مــــن الجــــوانب متفرقين ، فانهم يقاتلوننا مــن وراء جــدار ، ويعلمــون انهــم ان خرجوا الينا في تبــــار ، والهجــــوم على جمعهــــم مســــتصعب ممتنع ، والعسكر على مــركزهم متــــألف مجتمــــع ، ولله قدر لايرد ، وقضاء لايصد ، وسر لايشارك في علمه ، وأمر لايغــالب في حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطــاقة في دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه تــوكلنا وهــو نعــم الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحــف الخميس . وحمــي الوطيس وتحرك بالضراغم الجيش واسود الجو . وانسد الضو ، وانقضــت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب ، واختضبت البيض وتألق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل ، فالدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نعيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الظبا معمعه ، ولرحى الحرب الزبون جعجعة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجيات راعدة وبارقة ، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . وذشاوى اللدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان . وصفاح يصافحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في آجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى احجامها . ونصب صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاده . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من الذورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن انفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفهم وعز انوفهم ، ولوصح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، واصبح يوم العسكر الجمعة العاشر، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهفة على عدوه اسنته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفة . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

أقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسـكر بـالعدو المحيط بـالبلد محيط . ولأذى مقامه بمقامه مميط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبـت الافرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واسـتدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يسـتدعي نجيب الدين ابـا محمـد العـدل لخطابه ، وهذا العدل من أمناء السلطان . وقـد انس الفـرنج بـه لتردده في الرسالات نحوهم في سالف الأزمان . فلمـا حضر أرسـله الى السلطان . ليتحدث في خروج مـن بعـكا بـأنفسهم بحـكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك مالايدخل تحت الامـكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط . فانفذ السـلطان الملكين العـادل والافضل . ليفصلا المجمل . ويجملا اذا حزا (٥٥)المفصل فتردد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قـرار . وعادوا والأمـر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صـاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بـدر الدين أيوب بـن كنان وقـد حشـد وحشر، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقـد ابهـج بقـدومه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضـعف البلد . وعجـز مـن فيه ضـعفا لايمكن تلافيه . ووقـف كرام اصـحابنا وسـدوا الثغـر بصدورهم . وباشروا الأسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا. حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

ذكر ماطلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشتطروا اعادة جميع البلد . واطلاق اساراهم من الأقياد . فبذل لهم تسليم عكا بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسير . فلم يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصلبوت اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخرة وسالت الى ثغر البلد سيل الآتي الى القرار . وطلعت في السور المهدوم . طلوع الأوعال في فرج الأوعار . وانحدر عليهم اصحابنا انحدار الصخور المدهدهة ، وفرسوهم فرس الأساد المحرجة المكرهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افظع صد ، ومازالت الكرات تتناوب والحملات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لايبقون ، ولايخلون فخرج سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي الف دينار وألف دينار للمركيس وأربعة الاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه ، وأعطاف أعلامهم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال ومأأحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللأواء ، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وماعن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار في ديار بكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصدونه ، وماكان يضبطه السلطان الى هـذه الغـاية او لم يكن الله في عونه ، ونقـل الثقـل تلك الليلة الى منزله الأول بشـفر عم ، وأقام بخيمة لطيفة متلهفا على ماتم ، ثم انتقـل سـحرة ليلة الاحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صـابرا على حـكم القضـاء المبرم ، وحضرنا عنده وهـو مغتـم ، وبـالتدبير للمسـتقبل مهتم ، فعزيناه وسليناه ، وقلنا هـذه بلدة ممـا فتحـه الله وقـد استعادها عداه ، وقلت له ان ذهبـت مـدينة فمـا ذهـب الدين ، ولاضعف في نصر الله اليقين ، وماوعكت بعكا القلوب ، الا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشتها بعد الحـادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعـة مـن بقـاعة بالعز ليفاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم أقوش ، رسـولا ندبـه بهاء الدين قراقوش يخبر ماقرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملمة الفظيعة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الأسـارى وصـليب الصلبوت قبل خروج الشهر ، وان تـأخر شيء مـن ذلك بقينا تحـت الأسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر ، فأحضر السلطان الاكابر وفاوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسـلمون ، فتقبـل السـلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفـرنج على عكا هـذه الرسـالة وسيرت بها كتبا

قد عرف أمر عكا وأن العـدو قصـدها ورصـدها ونزلهـا ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليهـا بـكلكلة . وحفـل عندهـا بجحفلة . وتواصلت اليها جموعه أفواجا . وجلب البحـر نحـوها على أثباجة أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهـت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمـدادها بحـارا . وبـرد الماء

بأهل النار مستصحبين من مـاء الحـديد الجـامد نارا . وتصـل مراكبهم كأنها الأعلام السـود . والامـواج ناشرة بيض اعلامهـا مالئة جبالها بأكامها . مازجة اصباحها باظلامها .
وتتنافس ملوكهـم البـاغية . وطـواغيتهم الطاغية . في الورود بنفوسها ونفائسها . والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها . مستخرجة ضمائر خـزائنها . مسـتفرغة نخـائر مكامنها . موضعة ظعائن ضغائنها . مسـتبضعة متـاع متـاعها . مسرعة الى معاطن معاطيها . وتـرد بقناطير أمـوالها، وجمـاهير رجالها . ومساعير مصالها . ومشاهير ابطالها . ويحدقون بها من برها وبحرها . ويجثمون بين سحرها ونحرها . ومازالوا يقـاتلون أبراجها بالابراج . ويسومون جـدتها بـالانهاج . ويرومـون علاج كرامها بمراماة الاعلاج . ويقارعونها ليلا ونهارا . ويقلمون افـواه خنادقها أحجارا . ويناجونها بألسنة المجانيق الطـوال . ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الاجال . ويكافحونها قراعا، ويدبـون اليها المضايقة خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش . ويعـاقرونها من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش . وحيات النهاش . ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق . كانه حـامل على الطلق . لاتلد إلا أمـات الدواهي . ولاتدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهـي . ويقتل الله منهم العدد الدهم . والجمع الجم . ويهلك ألوفـا . حتـى يعود نافرهم للمذون ألوفا . وقد تجاوزت عدة القتلى منهـم في هـذه المدة . سوى من هلك بالضائقة والشدة . خمسين ألفا قولا لايتسمح فيه المعبر بالبيان . بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هـذه السـنة . والحالة في تحقيق قمعهـم وتفـريق جمعهـم جـارية على الوتيرة الحسنة . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البـواعث . وتحـدثوا في الحادث . وثاروا للثأر . وزاروا بالزار . وانبـرى ملكا افـرنسيس وانكتير . وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاؤوا في مراكب بحرية حربية . وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحـر منها السيول . وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول . وحملوا فيها الخيالة والخيول . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . وكل بطسة كانها تلعة . وكل سفينة فيها مدينة . وكل مجرة على سماء البحر بنجـوم

الرجوم مزينة . فاحدقت بالثغر مـن البـر والبحـــر . واحـــاطت بمركز الاسلام دائرة الكفر . وأطافت منهـا الأسـوار بـالأسوار . والظلماء بالادوار . ومنعت الداخل والخـارج . وسـدت على ناقـل الميرة وحامل السلاح . الموالج والمناهـج . وزاحفـوه بـكل منجيق كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابـة الارض التـي تقـوم عندها القيامة . وكل سلم لاترجي معـه العـلامة . وكل آلة آلت إن الفتح منها بالحتف . واقسمت أنها تقسـم سـهام سـهامها لذوي الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جـانبنا وعمـق . وسـور وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقـه . وتسـتر عن طـوارق البـلاء بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولايدخل إليه لضيق مسالكه . وهـو متحـر متحـرس . متسـتر متتـرس . عاص على الهجم . عاس على العجم . لايقتحم سده . ولايندثلم حده . ولم تـزل الحالة تتمادى والواقعة وليدهـا لايناى . والمدى يتـطاول . والمدد يتواصل . والقضية تتـرامى . والرمية تتقـاضى . ومقـاتلة الثغـر صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون(٥٦) . فمـن مسـتشهد عدله الجرح . ومن مستنجد عطله القـرح . ومـن دام بـالجرح رام عنه . ومن نازع في القوس نازع منه ، ومن متعرض للمـوت خـوف عار عارض . ومن ناه عن السـلم آمر بالحرب ناهض . ومـن ندب فيه ندوب . ومن ضرب فيه مـن أثـر الضرب ضروب . حتـى ضـج الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هـذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظـل المصـابرة يقلص . والعـدم يتمكن من الوجود . والقيام للاثخـان في زي القعـود . وكاد البقـاء يودع البـاقين . والمذون تـلاقي الملاقين . فلم يشـعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تـاخر وتسـتر . واسـتشعر الذعر فتعـذر وتحذر . واستبدل الجبن من الشـجاعة . واسـتملى العجـز مـن الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظـن إنه لانجـاح له في العزيمة . ولا نجاة له إلا في الهزيمة . وجنب أمثـاله مـن الجبناء . وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فـأضعف قلوب البقية استشعارا . وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثـابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم . ومابرحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة وملافحة . ومواقعة ومواقحة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على الخنادق التي طمت . ورمي في خروقها التراب ورمت . وطرقها العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت مراميه . وكثرت ندوب نقوبة . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو بالسوء الى السور . وطرق الظلمةالى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . واشرفت مراميه . وكثرت ندوب نقوبه . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو في النقب فلم يجد لكونه مجدلا او مجرحا او مخرجا . وتوغل في الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولقي الوحشة بأنسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل النقابون يوسعون ويمشون . ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون ويفرقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا . وتعاذقت الاسياف فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الايمان وأصحابنا لايهولهم الهائل ولايميلهم الى الحذار الجدار المائل . ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردعهم الرعب الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو نثروه . واذا نهضوا له اقعدوه وعثروه . واذا صعد اليهم حدروه . واذا بادر اليهم بدروه وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثميها جثمانا . ومازالوا يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصلون ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع . ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بألسنة المناصل .

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفاح . ويتماشون بمراح الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن الستائر الى الستور . ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح . ومن المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . وبقايا طرائح . ورذايا طلائح . ومشوق (٥٧) جرائح . ومشوقو ضرائح . قد فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي القاسية . ورشفتهم الظبا الظامية . ولاينهض قويهم من الكلول ولايفرى فريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت من اسوارها . وأزدحم العدو في مشارعها وسبلها . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعادي الواغل . أن القوم مستقلون وللموت مستقبلون . وأنه لاطاقة له بمقاومتهم . ولا قوام له بطاقتهم . وأنهم لايسلمون وهم يسلمون ولايبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا . وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . ولامرد لما فيه الله من المراد . ولامدفع لحكمه في البلاد والعباد . وأن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما غاب المعين . وان ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم الديجور فلابد أن يسفر عن الصبح الدجى . ولايشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم السرى .

فصل من كتاب
الى قطب بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هـذه السـنة مـن مـدد ملوكه . وكثر على نهـار الاسـلام بـاظلام ليل الكفـر وحلوكه . فالاسلام ينشد ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمتـه مـن ابـن نوره نوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجـري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد للرد عنهـا مـكايد العداة في نحرها . قد تمكن منهـا الكفـر على كره مـن الاسـلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مغصوبة بعـد ان كانت عارية مـن الكفر مردودة . واذا أفكر من خذلها . وما اخذلها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهمـاله . وأخينة إغفـاله . وحـاشى ان يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقـق الحـاجة اليها متغاضيا . ومابقي للفرنج مع اسـتيلائها على الموضـع . الا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صـدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل دينه بالنصر . والمردي بمـكره أهل المكر وما هذا اوان الوني . بل هو زمان استنجاح المنى . فـان العدو الخادر قد آن أن يصحر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين مـن إربـل تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العـدو الكافـر . والطـاغية الحـاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من للكفـر في البـلاد والجـزائر . وماقصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذي تـكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضـايقة للفـرنج ممـن بعـكا ومنا بين الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمـرناه . وكلمـا حققـوا كيدا ابطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . اخـرناه وعطلناه . وكلمـا ركبـوا برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه .وكلمـا اوقـدوا نارا الحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولالكيدهـم مجـال ، ولم يتسق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين الف مقاتل ، من فـارس وراجـل . ولم نشـك في اسـتيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا انهـم بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون ، فاذا هم في نهـج القتال سالكون ، وهم حـطب نار الحـرب ، وطعـم الطعـن والضرب ، وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة ، وحصـلوا تحـت العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق المقدرة ، ولما دخلت هذه السـنة اشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد ، وقلنا هؤلاء قـد بذلوا في الجهاد ماكان في وسعهم من الاجتهـاد ، ورأينا أن نجـدد للبلد البدل ، وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه أكثر من عشرة الاف رجل ، ومن كل نمر مشيح وكمي بطل . فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن ايضا من دخل بـذلك الجد بتلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكبـه ، وحمـى جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمـن فيه ومـافيه كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقـاية . وجـاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع لهام ونار تعجلها العـدو مـن جهنمـه وضرام وغرام بـالواقعة وعرام . واحتداد الحـادثة واحتـدام . وبـاس واقـدام . وناس واقوام . وحشد ملأت به سفنها، وأخلت منه مدتها . ووصـل ملكا افرنسيس وانكتير . وقـد احـكما التـدبير . وأجلبا بخيلهمـا ورجلهما . واناخا بكلاكل كلهما . وبركا بثقلهما . وزحفا بجهدهما وجهلهما . ووافـوا بـكل بـرج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة هائلة . ودبابة للبلايا حاملة . ونصـبوا ثـلاثة عشر منجنيقـا على موضع واحد . واهبطوا حجـارات السـور بـكل حجـر صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والسور بالنقب

والثلم . وخرج من نقابي البلد من ارتــد عن الدين . وأعان نقــابي الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون . ناكبــون كابتــون ، قــد سدوا تلك الثغر بذفوسهم . وجعلوا حجارات الفــرنج وجــراحاتها مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبل السهام . وتلفعــوا مــن وقع بيضها بحمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشــكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمــع بــه فــرقوه بــطعنهم وضربهم ، وهم يواقعون ويواقحون . ويكافحون ويلافحون . وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصــله . وأثبــت في مســتنقع الموت رجله . وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله ، فخــانهم بعض الأمــراء الجبناء . وأخذ للحياة بتــرك الحياء . وفــر مــن البــلاء الى البلاء . وحسب النجاة في النجاء ، وهرب في بركوس قــد اعده لذلك اليوم . وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم ، واســتصحب أمثاله . واستتبع وابعد في فراره وأبدع ، وأضــعف بضــعف قلبــه قلوب الباقين ، وأمطى أفــاعي الكفــر في نهش الراقين . على أن الأصــحاب مــا آنذوا بــالأصحاب ، ولم يقــابلوا الضراب بالأضراب . ومــازالوا يواصــلون بــالقواطع ، ولايرتــاعون للروائع ، ولايريمون مقــام المقــامع . ويطــالبون مــن الأرواح بالودائع . حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شــبيهة . وأمــن أخوف وأخطر من كريهــة . وقــطيعة فــظيعة . كل منة لهــا غير مستطيعة . ولولا مااتفق بعد قضاء الله من الأســباب الموهنة . لم تكن عكا بالممكنة للعــدو ولاالمذعنة ، وأن ذهبــت المدينة فــالدين لم يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب ، وان ملكت واحتلت فما اختل الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى الســلك ، وانمــا نبــه الله بهــا العزائم الراقدة ، وأجــرى مياه الهمــم الراكدة ، وبعــث الحميات الناعسة . وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحــن الى الآن كمــا كنا محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم . وذوسعهم الردى في مضايقهم ونجذبهم في كل يوم الى مصــارعهم . ونكدر بعلق نجيعهــم صــفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من دخل . وما انقطع الا من وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما بـرز الا مـن واراه من بطون الخوامع رمسـه ، فهـم مقيمـون لايريمـون مخيمهم . ولايرومون ان يهجروا مجثمهم ، ومـاأنسوا بمـرابض المضارب . الا لنفرتهم من مضـارب القـواضب ، وهـم مـع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصـاف ، وآونة بـالنهوض الى بعض الأطراف . وفي كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم المؤمل . فانا نعتـرضهم اين واجهـوا ونواجهـم أين اعتـرضوا . ونعثرهم اين نهضوا . ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهـم عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعـوا على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا مصارع امثالهم والثرى لهم وثير الفراش . فان برز العدو فالمذون له بـارزة . والعـزائم له مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهـر الكفـر يرتمـي وينتمي . ويصل بجمعه اللهام الملتهم . وبجمـره المحتـد المحتدم . وبفيلقه الفالق ترائك العدا . السافك السـابك في نار الوغى سـبائك الظبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لا شـك ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبته الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعـود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخـرج حـكم عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ماصرف الله قلمـي عن عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وتـرحل عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلمي وكلمي . وعرف شـيم مخـايل الطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمـري .

وماا جراه الله الا باجري . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شأنه . وماضيع احسانه . وهو للفقه والفتيا . ومصالح الدين في الدنيا . وماعرف الا بعرف . فما صرف الا عن صرف . وما سفارته الا في نجح . وماا سفاره الا عن صبح وماتجارته الا لربح فهو يمين الدولة واامينها . ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد امدادها . وبسداده للثغور سدادها . ودواته دواء المعضلات . وبعقده حل المشكلات . وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطة قط هوادي القطوب . وببريه برء الامراض . وبجريه جري الجياد للجهاد . وبسعيه سعي الامجاد للانجاد ، وبحركته سكون الدهماء . وببركته ركون الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه . وعون من لايعينه . فخفت على عكا من وقوف قلمي عنها . وكان قد الهمني الله فانه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه اللطيفة . والعارفة الطريفه .

ذكر ماجرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الاخره . خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها العسكر . فضرب الكوس السلطاني . فثار المعشر وقام المحشر وانهض السلطان الى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طار غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضمار . وشبت الوغى بكل شبوب تمانع سوى فارسها ركابها . وتعير الشمس من نسج حافرها نقابها . في غلب كالقواضب .يروون القواضب . وطوالع من الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على ابطال الباطل حماة الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق وانهزم الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين اسوارهم واحالت عليهم مذونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المذون نهلا وعللا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم . ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة . كادت تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتوا ثم وثبوا . واسعروا نار الحديد والهبوا . ونظموهم بالقنا . ونثروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت سيوفهم بالاعناق والطلى . وحلت من حياة العدا الحبا . ودخل القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بإثارة عثيرهم وآثار عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصاف . واخذ يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة . لخلاص الجماعة المستأسرة . واخبروا أن ملك افرنسيس صار الى صوره ورتب الدوك نائبه وولاه الأمور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعد ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه ورضي بتدبيره وترتيبه . فانهض اليه السلطان وراءه رسولا بتحف تليق به . يستخرج ضمائره فيما هو من اربه . ونقل خيمته يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفر عم وراء التل الذي كان عليه نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلى الذي اخلاه عاطلا . ومازالت الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبدد . حتى احضر مائة الف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلبوت . ليوصل ذلك كله الى الافرنج في الاجل المضروب والوقت الموقوت . ووقع الخلف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان اسلمه اليكم على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سبيل الرهن قوما معينين . فابوا الا اخذ الجميع . في الزمان السريع . والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهم . فقلنا لهم تضمنكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهم ظن السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان فيه على الاسلام غبن عظيم . وعار الى الابد مقيم . فلو أيقنا خلاص أصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسبابنا . سمحنا لهم في الحال ، بصليب الصلبوت والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهي التـرم الاول . وجـاء الرسـل وابصروا الأسارى حضـورا . والمال مـوزونا مـوفورا . وظنوا ان صـليب الصلبوت قد ارسـل الى دار الخـلافة فليس له وجـود . فسـألوا احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقـروا بـه شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون . وان الاداء بخـلاص اسارانا مرهون . وظهرت علامـات مـكرهم . ولاحـت امـارات غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخـرج الفـرنج الى ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخـرج ملك الانكتير الى خيمته . ومعه خلق من خيالته ورجالته .

ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخونين بعكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجـب ركبـت الفـرنجية بـأسرها وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجحفلها وحفلها . وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية ودل كيسان . ونفـذ اليزك وأخبر السلطان . وركبت العسـاكر نحـوها متسـابقة متـلاحقة . وشامت صوارم صادقة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا اسارى المسلمين . وفي الحبـال واقفين . وحملوا عليهـم وقتلوهـم بأجمعهم . والقوهم على مصرعهـم . فحمـل عليهـم العسـكر وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسـع فيهم خرقا واستشهد منا كردي حميدي وبـدوي . وكلاهمـا مـن الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلمـا انصرف العدو الى خيامـه ، وركد الروع بخـار قتـامه . شـوهد المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسـوا مـن حلل الجنان التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم . ووصفوا في سبيل الله مواقفهم . وما اكرمهم رجالا . واحسـنهم في الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر الوفاء . تصرف السـلطان في ذلك المال . وبسـط فيه يد الفـوال . واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربـابها . وتـرجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد الحاجة اليهم . فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصلبوت الى الخزانة . لا للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا الصليب شديد . والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا . وانفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا ولاصادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقيل للسلطان . ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبابه . واجتمع بناديه لاجالة قداح الرأي أصحابه . وسح سحابه وصح حسابه . وحكم فأحكم . ويري فايرم . واستشار وأشار . واستثار وآثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كمونه. وغرته عكا فطمع في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته باديه . وثوراته عاديه . وذكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه . واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى مواجهته . واغرينا ألسنة الاسنة بمشافهته ومسافهته . والان الان الله لنا الشديد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى السعه . وابرزه من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصدعنا بها لايشعب . فقالوا هو يسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتئيا . ويقصد الساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق اما اجام وغياض غلقه متأشبه واما رمال وتلال ضيقه متكثبه . وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . ومواقعته

بالعوائق . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بـن جندر . وامير من اهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها مـن المخارج والموالج . وكشف المواضع التي يلقى فيها العدو . ويؤمـل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا ينقضـان تلك المسالك ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . ونتخذها لمبار المرام مبارك . ولمدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعينا على امـاكن ومكامن . ومواطىء ومواطن . ووقع الاجمـاع على الاجمـاع على اللقاء والقراع . في مـذاهب تعينت . ومسـارب تبينت . وسـهول عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفـرنج اذا سـاروا سرنا على عراضهم واسـتقمنا على جـدد الجـد في اعتـرائهم واعتراضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران . واصبحوا على الرحيل . والاصوات مختلطـة بـالصهيل . والارض مضطربه والسماء محتجبه . والقبـاب تقـوض . والعياب تدفض . والجعاب تنثـل . والهضـاب تنتقـل والذئاب تعسـل . والزغف دفاض ،(٥٨) والحتف يخاض . والخيل تسرح . والسيل يمرج . وذوائب الذوابـل تنتشر . وانبـات الذوائب تـكشر . ولواء اللاواء يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخفق . والبوارق تـأتلق . والدو دو . والجو جو . والحديد تبوج والعديد تمـوج . وقـد ثـارت الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجـت الضـوضاء . وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السـلطان تدبيرهم . وعرف مسيرهم . فـرعدت كوسـاته . وغردت بـوقاته . وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت ذيوله . واصـطحبت خيوله . وبرقت لوامعه . واشرفـت طـوالعه . ومضـت عزائمـه . ومضت صوارمه . وحلقت العقبان الى مـطار مـطارده . وتـألقت الخرصان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردالضوامر . وسماؤه

نسج الحوافر . في بحار سوابح يموج على شكائمها اللعاب .
وغدران سوابغ كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب .
مشتعل القواضب . وقب معقودة السبائب . مقودة الجنائب .
معصوبة الهوادي هابيه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب
ملوثة البرود بالقضب . وترك كالاقمار في هالات التروك . ومماليك
في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيهيات العتاق قد خلقوا
للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العراب . هضاب على
هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقباب اليلب
مستعصمين . في مسرودة الحلق . مسدودة الحدق . تقهقر عنها
الهاذم . وتقهقه اذا فلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو
ولايصاب . ويعيب الاقران ولايعاب . من كل ناصر للحق على ضامر
للسبق . خارق للنقع راقع للخرق . فاتق راتق للفتق . معنق الى
الضرب ضارب العنق . وفيلق همه فلق الهام . وجحفل ملتهم
للجحفل اللهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رحب الباع .
خواض الكتائب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض
السنان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل رائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواخر. فزرات القساور.
وأزهرت الزواهر. وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير .
وأشبه سهك الماذي بعبيق العبير وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك
الافضل وهو في نخبة الجحفل بدور ليل لقسطل . وشموس يوم
المحفل • فوقف لهم وقفا أثرهم وألهبهم بنيران النصال .
وأسعرهم . وقطع طريقهم • وقصد تفريقهم • وسطا على
أوساطهم ، ونادى بايراء زناد إيراطهم فانقطعت أواخرهم عن
أوائلهم وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الآجل •
وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وانهزم من تقدم
ولحق الأول . وتعكس من تأخر وانخذل وانخزل ، وأوقد نارا على
اهلها مشعلة . وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله .
ونفذ الى والده يستنجده . حتى يسرع اليه مدده . ويقول ان امددت
بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا. ومتى تتفق مثل هذه الفرصة لو ارى لي

مساعدا . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثم قيل السلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وأبطأوا عن الاصراخ . فآذن روح الفرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته فصرف عنانه وصرف عناده . وعاد عاديا بحماته . فحمى بمدده امداده .

والملك الأفضل قد بذل وسعه . واوضح في الجد بشرعه . وقتل من وصلت اليه يده
ولقد كان يضعف عدد الاعداء لو تضاعف عدده . وبقي يتلهف على ما فاته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصة . فقد انهاض بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتح لارتجائه رتاج النجاح في النصر . ومن جملة من كان مع الملك الافضل من خواص الامراء والمماك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جرديك . واتفق قولهم على ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتر . وانه لو اتصل بهم مدد . لم يبق من الأعداء أحد.ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخلف فيها من العدو الغاره . علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره . ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود . وامر السلطان المشورة بحضور أوليائه وأمرائه . الأماجد الأجاود . والفرنج لما وصلوا الى حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من نواجذ النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جريحهم . ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب السلطان الى الملاحة وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف ما حولها بالحوم . وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل ياباليلة

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بـارض الا احيا مـاحلا . ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قـد طبـق تلك البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحة . ومكث بها للاسـتراحة . وأقام السلطان بتلك الناحية يجول مـن رابية الى رابية . ويرهـف للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابية . وأتى مـرارا بـأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الانكدار الى ثواقب ثوابتهم . فامر باراقة دمهـم . واطـاحة رممهـم . واخبـره بعض الأسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفـا حيارى وطـرح منهـم وجرح كثير ، سوى من اخـذ فهـو الآن اسـير . وهلكت بين عكا وحيفا اربعمائة فرس . ونجوا منكم بانفسهم على اخـر نفس . ولو انكم كبستم كسبتم . واعريتموهـم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل مـن عكا الى هـنه الغـاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شـحمه . وان كل سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفـه . بـاحثا عن حتفه بظلفه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده وزعمه . وهـو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مسـتهل شعبان وملك انكتير قـائدهـم الى البـوار . ووافـد اهـل النار الى النار . ولقيناهـم من بواترنا بواتر التبار . وقـد رحلنا في عراضـهم لاعتراضهم . وتعثيرهـم في طريق انتهاضهم . ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فـانهم قطعوا ساقه العدو عن اللحاق بمقدمته • وفلوا عن الحدة في الحركة حد عزمته • وقتلوا خيلا وخيالة • وفـوارس ورجـاله • وقـدروا وتمكنوا • وجرحوا فأثخنوا . ونهبـوا وسـلبوا واخـذوا رؤوسـا قطعوها • ووقذوا نفوسا قلعـوها . وغنمـوا أقمشـة وأسـلحة •

وحصدوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهـر حيفـا وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في فلهم السيف . فـأقاموا إلى هـذه الغاية لمداواة جريحهم ومـواراة طـريحهم • وإراحـة طليحهـم • وإثارة ماركد من ريحهم • وقـد رحلنا وسـبقناهم الى طـريقهم • عازمين على تبديدهـم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم • فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهـم ، والله يجمـع شملنا لتفريق شملهم ، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة • ولأعدائنا مـن عبـطة • الا ونبـادر ببشراه الى المجلس لتقـوى في نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في مواقفنا شـيمته وتـروض مواحل الامال مع اوان الديمة الربيعية ديمته ، ويغلو في سوق رواجه من الدين ماظن أنه رخصت قيمتـه.وكيف لايأخـذ ذلك الكريم بثـار الاسلام وقد سبيت من عكا كريمته ، واذا تـأمل عرف أن الخـطب عظيم وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعـد المقيم وسيقتضي دين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء مـن اخبـر بـرحيل الفـرنج السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى اجنحـة الجـرد طـائرون وحول رجالهم بخيلهم دائرون . وهم في جمع لهام . وقـد انقسـموا ثلاثة أقسام كل قسـم راجله بخيله محفـوظ . وبـأعين القسـمين الاخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقـدم مـن الليل بركوب الخيل . فركب في كل خواض للغمرات . فياض بـالعزمات ، رواض للجامحات نهاض بالجانحات ملتئم مع اللئم بالذقع والدجى ، ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم بجمرة الظبـا ، على نزائع يذقلن الردى على صـهواتها وصـواهل يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظـلام بجهـاتها . وبـارين الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلائها ، وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المذون على سابق ، وكل تـائق

إلى المازق مازق • وكل طائر في الغبـار على سـابح • وكل غابـق بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقـاق متخـطيه إلى الرقاب ، وسار العـدو وسرنا نبـريه ونبـاريه ، ونجتـري عليه ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي • وتصـمم وتصـمي ، وطيور السهام تقصد من الاحداق اوكارهـا • والأوتـار تنشـد بـالارنان اوتارها • وهم في لباس حديد سد على السهام المنافـذ • واشـتك النشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياهـهـا غزيرة . وهم على عزم ورودها . والاحاطة بحـدودها . فحـلأناهـم عنها . وأبعدناهم منها . وكان الحزم تـركهم حتـى يخـرجوا الى الفضاء . فيدخلوا من تمكننا منهم تحت القضاء . لكنهـم ارتـابوا وارتاعوا . وطلبوا النزول بهـا فمـا اسـتطاعوا . فـانحرفوا الى الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجـل . واجتمعـوا سـارين . وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزهم ونهزمهم ونحفـزهم ونحـزهم . حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتثلمت الصـفاح . وتحـطمت الرماح . واجرت الأنهار الجـراح . وجـرى بـالأرواح السـماح . وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الارادة نافذ المشية ، ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا يرجون . وما كادوا ينجـون . ولما نزلت بهـم في مسـيرهم النوازل نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطـاعن الضارب . الباسل السـالب . الغضـنفر الهـرماس . الفـارس الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، واقدم اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اسـمع متنصـت . ولعطاس الذقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متلفـت . ولسيف الاقدام ارشق مصلت . لايروعة الروع اذا حفزته عزمتـه . ولا يهولة الهول اذ همت به همته . وهـو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابـدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصـفين على صافنه . ويرحـل على مـطايا الحنايا مـن بنات كنائنه الى مقـاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه . فما برز اليه الا مـن بـرزت اليه مذونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف الكفر كفها . وبكر المنصر زفها . واذف الشرك جدعه . وذي انف الفتك صرعه . ولبه الغضنفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلية المتقشمر طنت فيها انيه صـفاحه . واجفان للاقران نبتت فيهـا أهداب سـهامه ، ووجـوه الشـجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل مـا أجـل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصانه خانه.وما صانه.فعثـر بـه في حـالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لذقل الحـديد للقيام

وطعن وضرب وأتاه مـن الكوثـر سـلسبيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب ألفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الأحياء في سـبيل الله لا الأموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شـديدي الشوكة حديدي الشكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصـب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في اسفله ، وتقاربت مـابيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة ، ولما اصـبح السـلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتـظر مـايكون مـن خبـر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحاتهم ، وكذلك ماملكهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقـدم في سـاقة اليزك ، مسـتيقظا الحفـظ والدرك ، فبصر بجمـاعة مـن الفـرنج مقبلين ، كبـوا بغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرفين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقـائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شـدة ، واسر ثـلاثة ، قبـل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب ، ومضى السلطان جريدة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقائه ، والاحداق به من أمامه وورائه وأقام يوم الأربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الأول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير

كان في اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب العوائث ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتموهم واصطلحتم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : ما الذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسلوك مسالك الأسعاف والاسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخلط القتام وخرط القتاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته في الكلمات الكالمات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هنفري بن هنفري ، فلما سمع ملك الانكتير ماراعه ، ما استطاع سماعه ، وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ماجرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الاصباح الأصحاب ، واستحضر من أسد غابة من غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيل الرجال ، وركب في عجم انجاب وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى . ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه ، فلما اسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان . وحرب الايمان ، واصحاب الجحيم ، واقطاب الضلال النهيم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفاة الكفاح ، وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وانجاس الداوية وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غير وان ، وأفعوان معتقل افعوان ، وكل ارقم في جلد ارقم ، وكل ازرق اشقر على ادهم ، فأحدقت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، ونقلت بذسور ضوامرها الأرض الى السماء ، وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت المهجات ، وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألهت بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . الترك على الاكاديش ، وأحدقت سهامها كالأهداب بالاحداق ، وبرزت بيضها لمعانقة الاعناق ، ولمع شرار النصال في دخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وافضى ينابيع النبع الى اعجال الاعلاج ، فان الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعانقت

الرفاق والرقاب ، واحرج القوم وتقطعت بهم الأسباب ، وقربوا من ارسوف ، وقد لاقـوا منا الحتـوف والخسـوف ، وضـاق خناقهم ، وحاق بهم ارهـاقهم ، ونشـبت الجـاليشية فيهـم بالنشاب ، وشبت نيران المرهفة في أولئك الاوشاب ، فـاحتملوا في جلودهم الجرح ، ومن اجلادهم الطـرح ، ووجـدوا الموت الغـالي مسترخصا ، وايقنوا بـالدمار ولم يجـدوا مخلصـا ، وعرفـوا ان البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق ما لقوه مـن النكاية غير محتملة ، فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحـدة زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلئها شـوارع القنطـاريات عن مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت مـن وجـوه النصر بالصفور ، واسـتشهد في تلك الفـورة الثـائرة ، والثـورة الفائرة ، سعداء استقبلوا بالاسنة الاسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة ، فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما اشرعت اليهم الرمـاح اشرعوا ، ثم كرت عليهـم نخـب الرجـال كرة اردتهـم وردتهـم ، وصـدفتهم عن الاسـتنان في جـدد تلك الحملة وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معـاطس ، وفـرشت بالعراء لهم أشلاء ، واثخنوهم طعانا ورمـاءا . فنزلوا في ارسـوف وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبـت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في اصحابه اسـد العرين وسدد الى نحورهـم الشـوارع وقلع منهـم قـلائع . وثبـت عسكر الموصل . وكذلك قايماز النجمـي في مـوضعه الاول ، وكانت العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشـبة ، فلما رأى العـدو اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبـر ارسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السـلطان تلك الليلة على نهـر العوجاء ، واقام العدو يوم الأحـد في مـوضعه ، منكوبـا بتعـب تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بهـا ورطـه ويتلافى ، ونازلتهم العساكر بالنوازل الى ان نزلوا وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا.

-٦١٥١-

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل مــن عكا

وسلكوا في مواضع ماالليزك عليهم فيها سبيل. ولا لقداح القراع في مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق ، وهم على البحر لا يفارقونه ، ومــن المورد الى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فان المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة مابين المنهلين ، واذا لزوا لم يبعــدوا بين المنزلتين ، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعــه ، وفي كل مــرحلة مقتله ، وفي كل منزلة منازله ، وأوردناهــم الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسلبنا حماهم الحمــام في كل سبيل ، وسار صباحهم منا في كل مغــدي ومقيل ، وطــريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال ، وكلما وجدنا فسحة ضــايقناهم ، وأرهقنا حــدود العزائم والصوارم وارهقناهم ،وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفــر فيها يبور . ودائرة الســوء على اهله بنا تــدير ، ومــاء اهــل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا ان الله تعالى قد اخــر مــوعده في نصر اوليائه ، وقهر اعدائه ، لوقع الفراغ من شــغلهم ، وشــملت نعمته لنا بتبديد شــملهم ، فمنهــا يوم رحيلهــم عن عكا ارهقتهــم اليزكية الزكيه ، ونكأت فيهــا منهــم الرمية بــل المنيه ، وكان الولد الافضل يومئذ متولى اليزك.-فتولى اسعار لهب المعترك ،ووقف لهم في المضيق على الطريق . وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخــرهم عن اولهم. وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتــر وبتــك ، وفتــك وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك ، وعبر الفرنج نهــر حيفــا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر ، ووصل عســكرنا وقــد تمنعوا بالنزول . وتجمعوا في الوعور عن السهول . ولم يبق اليهــم

نهج للوصول ، وأقـام الفـرنج في تلك المنزلة اياما ، وقـد نالت معاطسهم ارغاما ، حتى استجدوا عددا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عددا ، وأحكموا التدبير ، واستأنفوا المسير ، ومنها يوم انفصالهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وأذفنت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولمن تـزل السهام الى مقاتلهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل راكبها الا وهو من ثوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طـريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فاذا لزوا بالمنازلة ، ارتـزوا الى المنزلة ، ولاذوا وهم اهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعاديهم شاكين في منهتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجـري بهم جـريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثـل سـواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مـائلة الى اعتـراضهم ، مـوفقة في مرامها ، مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم النشاب واعجزهم وازعجهم وأحـرجهم بـكثرة النكاية فيهـم وأرهجهم ، كابروا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجـاؤوا كالسحاب بـارقة وراعدة ، واندفعـت الأطـلاب الاسـلامية امامها ، ولم تثبت قـدامها ، حتـى ابعـدوا بحملتهـم في جملتهم ، وتفردوا بحـركتهم في معـركتهم ، وظنهـا السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموئلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الأخ العـادل ثـابتا قلبه ، ثـابتا طلبـه ، وكر عليهـم في حـزبه ذوي الحمية ، والأنف والأبية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت مـا فـرط في النوبـة مـن النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العـزمه مـن القـوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هـامهم بـالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وابليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكتير لمصرعه ، وفزع من ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلافه وتلافى ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا ، حتى بساسطهم في ميادينها ، وخالطهم في بساتينها ورابطهم باالأسود في عرينها ، وأسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرمله ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحله ، ورحل ليلا واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهر امر ان الخيام به تبنى ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس للتيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الامر .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الأمراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء . فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلدين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل ذخائره ، من كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالمة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وثقووا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنبا متجبنا. وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فندخلها اتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض اسوارها ، وغض انوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذ يوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خال ، ولا الى يدها شال ، ولا الى حدها فال ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفتها واستحسنها واستلطفها ، ورأيت سورها قبل فصم سواره . ونورها قبل نيول نواره ، فما رايت احسن منها ولااحصن . ولااحكم من مكانها ولاامكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاوطار والاوطان . وساءت اسوا ؤها .
ونأت اذوا ؤها . واناخت لاوا ؤها . وباخت اضوا ؤها . وسمع غناء
المعاول في مغانيها المعوله . ورئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة .
وناحت تلك النواحي . ومسحتها المساحي . وجرفتها المجارف .
واخافتها المخاوف . وذكرتها المعارف . وبهرجتها الصيارف .
ونعتها الذواعب . ونابتها النوائب . ونزلتها النوازال . وغالتها
الغوائل . وسفتها السوافي . وعفتها العوافي . وخلت مدارس اياتها
من التلاوة . وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوه . وصوحت
مجاني مبانيها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معاليها .
وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طلولها واستوقفت . وأسيت
عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقد حسرت وحفيت .
ومحي سنا محاسنها وخفيت . وبكيت تلك الربوع . وأهديت
لسقياها الدموع . فلقد اصيب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه
لعبوسها . حين ثار نقع بوسها . فلما خلت مساكنها من سكانها .
وتخلف بالبيوت رماد نيراتها . رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني
شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعذر
ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرمله . وتفضيل جميله
باد على التفصيل والجمله . وامر بتخريب حصنها وتخريب لد .
وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتاه يوم
الخميس . واعاد اليه رسم التأنيس . وخرج منه يوم الاثنين ثامن
شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت نوبة . وقد نال بما رتبه من
مصالح القدس المثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقد
اكمل من كل مارامه حظوه . وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان
وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئا
من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقاه الملك العادل . وجاءت منه
الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بها جدة .
وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضافرة . فانه
تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خيالته متنكرا . ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقذ . والطعن في لبته ينفذ . ففداه فارس من اصحابه بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به واسره . وافلت اللعين واخفى أثره . وقتل واسر من خيالته جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ، وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النطرون . وهي قلعة منيعة معجبة الظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وفل غربها وثلمها . واشاع بها الاقامة . وافاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الاثقال . وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولامربع . ولا شتا ولاصاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفللت منه السيوف . وتحلحلت به الصفوف . وتمخضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سئم ومل . وضجر وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . واما النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدها الجهاد . وانضاها الطراد . وفرى جلودها الجلاد . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروح للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تنفر من رنة الحنيه . وأنة المبرية . كأن عندها للاوتار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار . وتجاريها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ماحدث من النفار . وماعادت الان تدخل على راجل الكفار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت . واما النشاب فانه قد فني . بعد ان اتخذ من اخشابه جميع ماوجد واقتني . وقد عدمت اشجاره في منابتها . واعوزت اخشابه من مناحتها . ونفضت الكنائن . وانفضت منه ومن كل مايدخر الخزائن . وماتبرح الصناع في الممالك بمصر والشام . ومايجري معها من بلاد الاسلام . يبرون ويريشون . وينصلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال . الى احمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعها العمال . وحسبها ان نصولها اعدمت من حديدها المعادن . وخلت من نخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هذا الفرض وحده . مسترهف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . ومااستمر على مساعدته . وموازرته ومعاقدته . الا صاحب الموصل وسنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ماجار . فهو يحضر تاره بنفسه وآونة بولده . ويستمر من جد الموازرة على جدده . ويواظب بعدده وعدده . ومدده في مطاولة مدده .

ذكر ماتجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة في المواصله

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصافاه . والمواتاة في الموافاه . وموالاة الاستمرار على الموالاة . والاخذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظاهره . بالمصاهره . وترددت

الرسل اياما . وقصد التئاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل باخت ملك الانكتير . وان يعول عليها من الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري فيها الامر على السداد . وتكون الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولايمكنهم من الحصون التي في الذرا . ولايقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم منا امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد . وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا: تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها ما في وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب. وما اخر الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمل الغرض وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى ملك الانكتير لفصل امر الوصلة . واراحة الجملة.وازاحة العلة . واعتقدنا ان هذا امر قد تم . ونشر انضم . وصلاح عم وصلح أذم . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الانثى تميل الى الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل . النزول عن النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع يذقضي بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم العرس في العسر يسر وغنم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج ترويج . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع النشر . وذاع السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجبهوها بالعذل واللذع . ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئننا بافجع ملم مؤلم . وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما تعسر . وان ابى ابيناه . وان اتى اتيناه . وان خالف خالفناه . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحــن لاختــلاف الدين ندين بالخلاف . فرهبت بعد مارغبت . وبطلت بعد ماطلبت . وســلت بعد ماسألت . ونزت بعد مانزلت . وكرهت وكانت شرهــت . وكانت اكتحلت فودت انها مــرهت ، فــأرسلت الى الرســول وا قبلت عليه القبول . ثم تصلبت في القسم بالصليب . انها مجيبــة الى التقــرير والتقريب . وانها مســارعة الى التــكمين . لكن بشرط الموافقــة في الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتــظام العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير . وصغير بصغير . وبشر اولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير . وعطل التقــدير . وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان مــن الليل خلع الاكابــر حتــى سارت اليهم بكره . واحــدث بحســن احتبــائه لكل عين وقلب قــرة ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بســاط نشــاطه . وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه واعزه بتقريبه وتمكينه . ويليه حسام الدين خضر اخو صاحب الموصــل . ولسمو منزلتــه دنو المنزل . وعلاء الدين ابــن اتــابك الموصــل عن يساره . وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بــايثاره . ومجــاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلتــه منافس . ثم تفرق الناس بــانس جــامع . وعرف شــائع . وعرف ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرمله ليقــرب مــن العدو ومواقعته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقــد اركب العســكر

-٦١٦٠-
القتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرمله . جميل الحال حالي الجملة . خيم وبات . وذوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خرج العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهم . وتكاثروا عليهم . وقربوا من خيامهم . واخذوا عليهم من ورائهم وامامهم . وناشبوهم بالنشاب . وكاثروهم بالأوباش والأوشاب . فركب الفرنج اليهم ركبة . أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة واحدة . وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين ايديهم . فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة . وكانت مسعاتهم الى السعادة . وكذلك في كل يوم ركب السلطان مايخلو من وقعه . ولابد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امر السلطان رجال الحلقة المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمنوا وامذوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا عثار انحصارهم في الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم اعراب على عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحاب . فركبت اليها من الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت العرب امامها . وحققت انهزامها . وماقدرت على قصدموضع الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانين دون العرين . فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفاتهم الطلب . وحضروا باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخرجوا على ظن انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن وردهم . وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت .

فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار . وقتلوا جمـاعة مـن كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبـار . وهـم اياز المهراني.وجاولي الغيدي.وصارو . وسرو ا في جنات النعيم بما اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسبان معـروفان واحضروا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخيل تقـاد اليه . والأسـارى يحضرون بين يديه . واخـوه العـادل عنده جـالس . وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لاجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل مـا يراد مـن فـاكهة وحلاوة وطعـام . وحضر ملك الانكتير وطـالت بينهمـا المحـادثة . ودامت المثافنة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقه اظهراها ومصـادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتـب العـادلي المعـروف بالصنيعة ليتفقد الأساري الذين بيافا . ويتدارك امـرهم ويتـلافى . وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة المركيس . وانه يرغب في سلوك نهج التـأنيس . وان يكون للسـلطان مصـالحا . وله على الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتيـر . ويفـرد هـو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضـا بالاحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صـيدا . الى المركيس على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود . ولم تجر من تلونه الا على المعهود وكلما ابرم عهـدا نقضه ونكثه . وكلما قوم امرا عكسه وعاثه . وكلما قال قـولا رجـع عنه . وكلما استودع سرا لم يصنه . وكلما قلنا يفـي خـان ، واذا خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ابان ، وفي يوم الاحـد سـابع عشر عاد السـلطان الى المخيم بـالنطرون . وأقـام على الثبـات والسكون وفي يوم الخميس مسـتهل ذي القعـدة سـار ابـن قليج

ارسلان صـــاحب ملطيه مـــودعا وركب الســـلطان وســـارمعه مشيعا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصـداق مـائة الف دينار . ومضى وقد حصل على نخائر من استبشار وافتخـار . واســتبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثـالث ذي القعـدة وتقـدموا الى الرملة ونزلوا بها .وخيموا في اقطارها وسهوبها .ولم نشـك في انهـم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . وأقام السـلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منهـا زوايا ، ولنا في كل يوم وقعـة شـديدة وفتـكة بالكفر مبيده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالت الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحلت الأوعار . فعـزم على الرحيل ، وامر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القـدس يوم الجمعـة الثـــالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهـاد الى بـركة القدس صائرون . والقاضي بهـاء الدين بن شـداد يسـايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني حتى وصلنا الى القدس قبـل العصر . وقـد نشر السـلطان لواء النصر . ونزل بـدار الاقســاء المجاورة لكنيسة قمامه . وذوى بهـا الاقـامة . وشرع في تحصـين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجةفي قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابو الهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العسـاكر المصرية . ووصـل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون . وآذن ذلك بتزاحم الافكار وتـراجم

الظنون وتزايل السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة . تم على العدو بها صرعه . فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليزك قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصبحوا الا حصنهم المجذوبة . فوقعوا على سرية الفرنج فاستأصلوها . واسروها وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعمى كريمه . وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيرز . ومن معه من العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة واسر اربعة . وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسنة على الحسنة غير ان العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص . وصلى الناس في إلقبة العيد حواليها العراص ، ثم انصرف السلطان وقد بر عمله . ودر امله ، ووفر اجره . واسفر فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد في الجهاد ولا يقصر . واخذا غنائم واموالا . وساقا خيلا وبغالا . وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا بين يدي السلطان على ركب الذل جاثين . وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهم الحروب . وزادت الكروب وضاقت عليهم الارض . واستولى على

عقود عزائمهم النقض ، ورأوا انهم قهروا فقهقروا ، واحاط بهـم البلاء مـن الجـوانب فمـا صـبروا . ورحلوا الى الرملة عائدين . وبالسهول من الحزون عائدين ، فـان الثلوج دامـت على اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل في تلك المنازل ، فنفروا راحلين الى السـواحل . وذلك يوم الخميس الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضح في النصر من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمـارة القـدس وحفـر خندقه وتجديد سوره واعادة رونقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجـارين . وعدتهـم خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبـلا وقـد سـيرهـم صـاحب الموصل الى القدس للعمـل في الخندق وتعميق الحفـر . والقـطع في الصخر . وقد سفرهـم بنفقة . وجعلهم مـن الاحسـان على ثقـة . واصحبهم بعض حجابه . ونداهـم بندى سحابة . وسير مـع المندوب مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعـاهدهـم في كل يوم بتفقـد بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسـنة . وصـمم السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشـاء سـوروثيق وأحضر من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهـم في العمـارتين . وجـدد ابراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب . وأنفق عليهـا مـن المال ما خرج عن الحساب . بناها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاءت ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجـر الذي يقـطع مـن الخندق يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على مـا رتبـه القـدس المعمور . كان آمنا من قصد العدو المدحـور . وفي عصـمة الله مـن المخوف المحذور. وقسم بناء السـور في مـواضعة على اولاده واخيه الملك العـادل وامـرائه . وصـار يركب كل يوم ويحض على بنائه . ويخرج الناس على حمل الحجر الى مـواضع البناء . ويتـولى ذلك

بنفسه وبجماعة خواصه الأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت اركب في غلماني واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر واراعى . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة

وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة . لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاستنجاد بالاجناد . والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة . والجيوش المترادفة المترافدة . والجنود المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة . والهواضب الهاطلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح . والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الارواح . ومكث السلطان على انتظاره . متوجسا لأخباره . مستوحشا من ابطائه . متعطشا الى انبائه . منتظرا لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضي الى ميافارقين . واستصحب اليها عساكر ماردين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي اصحابها . واستحوذ على جميع مابها . وحاصر مدينة حاني فتملكها . وكانت له مقاصد في ديار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدأ به

وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر .
وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيبته ، وهبت روعته . ودبت
الى الخواطر مخافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره .
وارتجت تلك الآجام من زاره . وازورت من مزاره . وبليت تلك البلاد
ببلائه . وهابت الاعداء هيبة اعدائه . وزلت الاقدام
لاقدامه ، وانخفضت الاعلام لاعلاء اعلامه . ذفي عدله من جبل جور
جبلة الجور ، وأنهب بنهابه اليها فوران
الفتنة على الفور ، ودخل قلب قلب ، وحكم في عداتها الغلب
القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان
وأطلق من أسره ، فغار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق
باذن الشنف شنفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته
غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همته ، وحركته
عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمته أمته ، ومأأرجأ له نجح رجائه
رجاله ، ومأأبطأ له عن اعانته أبطاله ، وأجناه ثمر الطاعة
أجناده ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجاده ، وجر عسكرا
مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب
بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بترا ، وصواهل
ضمرا ، وانهض كمته وكماته ، وحشد رعيته وذوي حميته
وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، ونسوره وبغاثه ، وسمانه
وغثاثه ، ومتانه ورثاثه ، وشباعه وغراثة ، وجاء في سواد اسود
منه الجو ، وانسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل
العجاج ، وتجلى بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر
وتصعد ، وسار بين الآكام بالآكام ، وضاهى الاعلام
بالأعلام ، وأذكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهواديها قد
ملأت الوهاد ، وأدنى الى الآساد الآساد ، وأغرى بالجلاد
الأجلاد ، وجذب الجماح عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع
المراح رماحه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران
دروعه ، وهاجت غران جموعه ، ومالت المران ، وجالت
الأقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعور وتوعرت
السهول ، وانقض القضاء،وانفض الفضاء،واشتكت الأرض من

الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تـألمها على شرط تظلمهـا الى السماء نقعا ، وحثت في وجه الفلك ترابا ، وحثت الأتراب الاتـراب طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خـادره ، وانتشـار بوادره • وانتهاض قوادمه ، وارتـكاض صـلادمه ، وانقضـاض شهب قواضبه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطف بمن اصـطفاه من الأنجـاد الأنجـاب ، وفض على الفضـاء سـحاب الصحاب ، وبسـط على البسـيطة رداء الردى ، وأعدى بعلوه على العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل لحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سـالب مـن كبـاش الأقـران القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المنون ، وكل شجاع اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع، وكل طائر بأجنحه السوابق ، زائر بـأسلحه البـوائق ، محلق بخـوافي الخوانق ، مطرق لطوارىء الطوارق ، وكل ذمـر مشـيح بـالذمار شحيح ، وكل قاس قـوسه عاطـف ، وكل راع نصـله راعف، وكل صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامـق ، وأيد رجاء الرجـال بـأياديه ، وقـوى عزائم أوليائه لاضـعاف أعاديه ، ورغب بـالرغائب واملى ضـيوف الآمـال بفيوض أمـواه المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمر يرشف ظلم القلوب ، ومشتمل ابيض يكشف ظلم الحـروب ، وكل مـن يخـال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ،وكل مـن ينال اعتـزاز الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصـل بها اذا فـارقت اغمـادها المرافـق ، وكل مـن عنانه في يمين الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح ، وكل مـن ذبـال سـمهريه يلتهب ، وذباب مشرفيه يضـطرب ، ووجـوه صـوارمه تبـكي وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسـيه ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتـدمي ، وكل اشـعث الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهم شيظمي • أباء حمي • مجرب محـرب • مقـرب على مقـرب • مـظهر على

مطهم • جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حليم تحمد في الوغى جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صهلاته ، وكل بحر مستلئم بغدير ، وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لابس حرير ، فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط وتدلوا استدرك الغلط ، وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش ، وولى هزيما ، ولوى هشيما ، وأغنم العسكر التقوي سلاحه وخيله ، وجر على تراب الذلة نيله ، وظفر الملك المظفر بالملك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا، واصحاء كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانهض بتشريفاته جناحهم ثم رحل من صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح مقفلها. وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومن حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثم راح الى ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها الامداد ، واروى فيها من عزائمه الزناد ، وجاءته عساكر أرزن الروم منجدة من جده ، موجدة لما لها من موجدة ، تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق ، وكأنها في الأهبة والابهة من ملوك سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجذون، ووافقته السعود ، وخافته في غاباتها الأسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت ، واستدنته الممالك القاصية ، وأطاعته المقاصد العاصية ، وتشنفت له مسامع الأقطار بافراط السمع والطاعة ، وعم الأمحال تلك المحال ففض بما افاضه من فواضله مجاعة الجماعة ، ورجي وخشي واعتفي وغشي وامتلأت الطرق بالوفود والجذود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينا هو في غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة من الغير ، وقد الهاه حديث الدنيا عن الحادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجاني وزيادة الأمل ، عن زيارة الأجل ونزل المنى عن نوازل المذون ، وسكن الاتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى واذقرض

عهـده وانقضى ، وكتـم ولده الملك المنصـور ناصر الدين محمـد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت مـلاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقـي الدين بعسـكره وماله سالما ، وجد في مقام والده بإظهار شـعاره قـائما ، وجـاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقـاء بـلاد ابيه بيده ، حتـى يبقـى مستمرا على جدده ، وطلب من السلطان الميثاق له بـأغلظ الايمـان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقـام على التباعد ولم يتدارك بـالوصول مـا منه فـرط ، ونسـبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحـرمان ، حتـى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجـرى الامـر على أيثـاره. وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بـن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقـي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهمـا له اقوى ساعد ، وأوقى مساعد ، فيالله من حسـام أغمـد ، وهمـام ألحد ، وركن وهن.وكنز دفن ، وبحر غاض ورزء هاض ، وصـبح كسف.وبدر خسف.لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثـكل امـه فانه كان واحدها وعضـدها ومعـاضدها وهـو الذي فتـح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقـد سبق في الكرمـاء مـاذكره ، وذكر في المكارم سـيفه وقـرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمـت بصـفاته ، فـان له مـواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لجني النصر مشهورة ، فقـطع الأجـل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقـد شبابه الطري وحله ، وثلم حـد شـباه الطـرير وفله ، ومـازال في غزواته مثيرا للتراب الى أن سكن عليه التـراب وسـكنه ، وطـالبه

الثرى بحق خلقه معـه فـاسترهنه، وغارت عليه الأرض بـانطلاق سموه ، الى السماء فـاعتقلته ، ووجـدته في اوج الفلك في النيرات فنقلته ، ومـاكان ازكاه واذكاه ، واصـحه واصـحاه ،وابهجـه وأبهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شفيقا ، ورفيقا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصيب بعد ماأصاب.وجواد بلا حسـاب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب)(الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والسـلطان الى الأنس به مستنيما ، فعرض له مرض اسـتأذن لأجله في العـود الى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ماطلب ، وتـوجه مـن القدس سادس عشر ذي الحجة ، واسـتقام على المحجـة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قـرية غبـاغب ، وسـتر التـــراب منه المناقب ، ووصـل الخبـر بـوفاته الينا يوم الخميس ثـامن عشري الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابـن ايلد كز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعـروف ببهلوان في سـنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصـلحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغـرل بـن ارسـلان تحـت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنه ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأنف السلطان من كونه تحت حجـره ، وبحـكم نهيه وأمره ، فـانه لم يكن له صـاحب ولاغلام الا مـن عنده ، ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه مـن الخيل ، ودام غائبـا في نواحـي دامغـان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل بـه عدة مـن ممـاليك

بهلوان الخواص ، وسلكوا معه نهج الاخـلاص وأعادوه الى سرير ملكه ، وانتسق امره في سـلكه ، وقـويت يده . وتـأيدت قـوته • واجتمعت كلمته - وتكلمت في الأمر والنهي جماعته ، ورهبه قزل ارسلان ولازم ذعره • وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء وممـاليك بهلوان الذين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام مـن مـكرهم بنقض . وقـالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهـم قبـل أن يبـطشوا . وعثرهم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتبع محالهم . وقتلهـم بحضرته وهم غارون . وسـاءهـم بـاغتيالهم وهـم بـالمغالاة فيه سارون . فنفر منهم كل آنس . وحفظ نفسه مـن كل منافس . وزال بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم . ولقوه بتأبهم . وقصده قزل أرسلان فأزعجه . وأخرجه مـن دار ملكه وأحرجه • وأجلس سـلطانا آخـر مـوضعه . وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه • وخطب لمعز الدين سنجر بن سـليمان شاه وأطعمه طعمه . وأرضـاه بـالاسم . وأجـراه على الرسـم • وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد • وانتظمت بينهما أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همـذان مـن قـزل ارسلان يعود إليها • ويستولي عليها • ثم اذا عرف قـربه بعـد • واذا علم بعده قعد • وشرع يقتل أصحابه بالتهم • ويشتد في النهب اشدة النـهم • فقتل فخر الدين رئيس همذان • وبـث العـدوان • وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه • ولخاطر لم يكشف مهمه • فالجأ الزمان إلى الوصـول إلى الامير حسـن بـن قفجاق • وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق • فخرج معه وآزره وضافره • وظاهره بعد أن صـاهـره • وزوج أختـه منه • وحمـى جانبه وذب عنه • وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتـى يصـالحه • ويصافحه على الوفاء ويسامحه • وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح • فلما تقاربا للمصالحة تحاربا • واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا • وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان • وعادت الفتن ملتهبة النيران . وساق السلطان طغرل الى همـذان • فمضى وراءه قزل ارسلان • فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

عنانه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبسه في بعض القلاع •
وأبعد عينه وأثره عن الابصار والاســماع • فـاتسقت له المملكة •
واستقر منه السكون والحركة • وكانت أصفهان منذ تـوفي البهلوان
قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخـربت • وقتـل في
ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف
وزحوف . وكانت الشحن من جانب قزل على الشـافعية • وقـووا
أيدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى
أن اصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمـام قـوته
والامكان • فلما اعتقل طغـرل • واسـتمر أمـر قـزل • مضى إلى
أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في المحال • وأجرى عليهـم القتـل
والاغتيال • ثم عاد الى همذان وقد قوي وروي . ونال مـا هـوي .
ونشر من أمره ما كان طوي . وجلس على سرير الملك وضرب النوب
الخمس . ووجد بعدم من يوحشــه الانس . ولهـا ولعـب . وشرب
وطرب . وغفل عن القضاء المشتبه . ونام عن القدر المنتبه . واغتـر
بالعيش الرفه . وحلم عن الخطب السفه . وبات في قصره . وقد غاب
في سكره . وهو بين خدمه . وحشمه . وعسسه ، وحرسه . وعتقائه
وأرقائه ، ومستخصية ، ومستخلصية ، فـوجد على فـراشه وهـو
قتيل ، ولم يذكر كيف قتـل ولم يكن عليه سـبيل ، فنسـب قتله إلى
الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى ، والله أعلم بما به
حكمه أجرى ، ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب بـه دون
أربابه ، وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان مـوضعه ، وجمـع له ملكه
ومتعه ، ومضى أخوه نصرة الدين أبـو بـكر إلى اذربيجـان وأرانيه
سائقا إليها واستولى عليها . وأما السلطان فانه أيس منه . وسـلا
من كان يواليه عنه . فتعصبت له أمـراة متـولي القلعـة ودبـرت في
خلاصة . وهونت على زوجهـا أمـرا اسـتصعابه واعتياصــه .
واستعانت بمن أعانها . وأعلت بإعلاء شانه شانها . ولما برز نخـل
مدينة تبريز . وكانما الكير أخرج الابـريز • ثـم جمـع ومضى على
سمت همـذان • فلقـي قتلغ اينانج وعسـكره بين أوه وزنجـان •
فكسره وهزمه • وفل حده وثلمه • ومضى إلى همذان • وجلس على
سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المعروفين مـن أصـحاب السـلطان صفي الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا • وفي حلبة المكارم جريا • ومن الخيانة في ولايته بريا • ومن العار عريا • ولم يزل زند مضائه وريا • وكانت له سـياسة ورياسـه • ونفس ونفـاسه • ورأي وفراسه • وفطنة وكياسه . ومروة وفتـوة . وثبـات جنان وقـوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلمـا ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمـالها حتـى نال المنى . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الان مـا باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعـاش غنيا . ومات جشريا . وورث السـلطان بعض مـاله .وذلك مـا فضـل عن افضاله ، فانه فرق على مماليكه املاكه وماله ، واخفى بعد وفـاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفـا ، وفقـه الله في بـدايته لهـداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشان ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفا في طبه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صـحيح الحجـة بـوضوح المحجــة ، ولم يزل له عند الســلطان وذوي الجـاه جاه ، ولجده انتباه ، ولمداواته بـالشفاء شـفاه ، حتــى حـان اجله . وخان امله وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكرها واشكرها . وعارفة اعرفهـا ولا أنكرهـا . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صـحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهري العرض ، وانتهى اليه بـدمشق مـا الم بي من الألم ، فتقسم فكره من خبر السـقم ، وركب ووصـل في يومه حتى ادركني ، ومـرضني ومـا تـركني وداواني حتـى

ابلت ، وأزال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت ، وصحبني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه واحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا واعطاه في بنائها الوفاء.فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حموية وهو شيخ الشيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق دخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الأنواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء.وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من أحسن المدن واحصنها واحكمها واوجدنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب اودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح ، وهذا امر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية امته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الأجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين .

- ٦١٧٥ -

والمؤمنين المعدين للدين . فما اسعد من ساعد فيه . ووفى باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكلاكله . وحفل بجحفله وبرز الى الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لنار قمامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمه ، مقام الانبياء المرسلين ، ومقر الاولياء والصديقين . وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الاشراق الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الأوان رفض التواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والأداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاض الجحافل ، صعب الأمر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح ،فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده وألان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده ، وهذه لاشك مقدمه لما وراءها من نتائج النجدات ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العدات ، وللعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب . وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لاتفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشـور حسـام الدين سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية مذ يسر الله فتحه ، وحقق للامل فيه نجحه ، واطلع لليل النصر صـبحه ، الى الفقيه ضـياء الدين عيسى مفـوضه . وصـعاب اعمـاله وشـعاب احـواله بنصرة آرائه ونصرة آلائه مروضه ، وقد اسـتناب فيه اخـاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شـهيرا الى ان اسـتشهد في شـعبان سـنة خمس وثمانين ، وتـوفي الفقيه عيسى في ذي القعـدة منهـا وانتقـل الى عليين . فأبقى السلطان نوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان الامير سياروخ بـالقدس مقيمـا . والنظـر في مصـالحه مستديما . ويضم من امره مايراه منشورا ، وكتبت له في التـاريخ المذكور باستقلاله منشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الأقصى مـن داناه مـن الكفـر ودنسه ، ونزه البيت المقـدس مـن رجس اعدائه المشركين بـأيدي اوليائه الموحدين وطهره وقدسه ، وانطق محـرابه ومنبـره بتـلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصـمه مـن الحوزة وحرسه . وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله ان يصلي على نبيه محمـد المصـطفى الذي شرع الدين وشرحـه،ومهـد الشرع واسسه .وبطل الكفـر وعطله . وارغم الشرك واتعسـه ، وعلى آله واصحابه الذين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصـفى مورده ، وازكى مغرسه ، وبعد فانا مذ فتـح الله لنا بيتـه المقـدس وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيامن ايامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الاجزل الافضـل الأكرم الانفس ، مـانزال نطلب وليا لله يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايثـاره حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتدبيره الكافي مـا انخفض مـن منار الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحيي به من رسوم الايمـان

ونجدد من معالمه ماظل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد اختبرنا الامير حسام الدين فألفيناه لاهلية هذه الولاية جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه باعباء الامانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا ماحضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس واعمالها ، وعذقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام اشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها ، وسداد ثغرها ، وسداد امرها . ورعاية امورها وعمارة حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباع اماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من ادناس ادنى الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم . وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل ما يحله ويعقده . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس في دار الاقساء جوار قمامه ، واظهر بها لتقوية البلد الاقامة ، وقد قسم سور البلد على اولاده ، واخيه واجناده ، فشرعوا في انشاء سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كل يوم مصبح ، مشمس مضح ، فينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الاكابر والامراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيته وهو يحمل حجرا في حجره . لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور ممالكه به الصدور ، وما تغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارته ، ووقفت عمارته ، ركب وبكر اليه ، وجمع الحجر بنفسه واجناده عليه ، فإذا اكتفى انتقل الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجنات

الحجر . وأثر رواة سيرته الحسنة منها الأثر ، وما أعمر احسانة واحسن ماعمر . وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب ، ولان له الصخر لين الحديد لداود . وجد في فض جدته وأفاض الجود . وكان حجر الخندق صلداً لايتأتى قطعة . ولايتهيأ بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات . واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلد ووهن الجلد . وتيسر الصعب ولان الصلب . وصرخ الصخر لما حاف الحفر ، وضج الحديد لجلد الجلمود ، وصفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصماء صوت السطو ، وخرج جرج الاساءة اليها عن الاسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل وطال الأمل ، وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوي الركن ، فلا ترى الا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل ، وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف ، وحجارة تبني ، وعمارة تثنى ، وكلسا يحرق ، وأسا يوثق ، وطاقا يعقد ، ورواقا يمهد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخرق ، وستائر تحجر ، وحفائر تقعر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح . ومخارج تفسح . وموالج تسرب ومدارج ترقب . حتى احكم المكان بكل مافي الامكان . واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان . والسلطان يشرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه . ويعير جنان المتولي من قوة جنانه . ويدركه بما يستأذفه من عمله . ويحلي بالفضل مايبدو له من عطله ، وكان ذلك دأبه مدة اقامته ، وقد جد غرامه بغرامته بل يرى ان كل مال ينفقه نخر باق . وانه إن فاق كريم فبإنفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق ، وان وفق الله واستمر مادبره في حفر الخندق وبناء السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولايبقى عليه لمسلم فزع . ولافيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه . وسلب عز الاسلام عزه . ورأى من المعجزات

ماحيره . وقهقر عن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسبحان الذي اقدر السلطان على ماعجز عنه الملوك وهداه من الفضل الى نهج ضلوا فيه السلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان ونزلوا يوم الاربعاء بظاهرها . وتشاوروا في اعادة عمائرها ، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين في بعض اعمالها ، مجدين في نقل غلالها ، وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ، ومعه حزبه من جند ابليس ، فشاهد دخانا على البعد ، وماعرف ماعنده من العسكر المعد ، فساق متوجها الى تلك الجهة وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر اصحابنا الا بالكبسة وقد بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت ، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار . فارغة الافكار من شغل الكفار ، وكانوا نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو الا احد القسمين فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحزبه ، فعرف القسم الاخر هجوم العدو ، فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا الى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعدون ، وردوا العدو شوطا . وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ، ثم تكاثر الفرنج عليهم ، وتواصلوا وسبقوا اليهم ، فاندفعوا من بين ايديهم ، والفرنج تباريهم ، وساقوا اثقالهم قدامهم ، وقد ثبت حفظها على الاقدام اقدامهم . ومافقد من اصحابنا ممن عرف الا اربعة : ونجا الباقون وخواطرهم لاجل اولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها ، وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته في نقل الحجارة ، والجد في العمارة ، ومعه الملوك اولاده والامراء . والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والاولياء . وخرج كل من بالبلد . وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل على سرجه . واستوى في نهجه . والناس ينقلون معه على خيولهم .

في قفافهم ونبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربهـا ولده الملك الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعوه مـن الامـراء . فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسـطه على ذلك البساط . وكنت قد مضيت فردني . وبتقريبه امـدني . فلمـا فـرغ وفرغنا . وبلغ مراده وبلغنا . صـلى هناك الظهـر وركب عائدا الى داره . آيبا بـايثاره وحسـن آثـاره . فـائزا بسرور اسراره، وخير اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجـرد في سرية سرية . بـارية رقـاب ذوي الغلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من المحرم على يبنى .وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثنى عشر اسيرا . وخيلا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جرديك . وعسكر القدس وجماعة من الممـاليك . على ظـاهر عسـقلان . واوفـــدت بتناصرها على الكفر الخـذلان . وغنمـت ثـلاثين اسـيرا قيدت في الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت على يبنى وكمنت . وصبرت الى ان استرسلت الفرنج الى الطـريق وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبـرت . فـكبست وكسـبت . وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمـالها واثقالها . ثم اغارت على يافـا فقتلت وفتـكت . وسـفكت دمـــاء وهتكت ، وعادت بـالغنيمة والسـبايا ، واسـتغنت بذقـــودها عن

النسايا . وعجز جماعة من الاسارى عن المشي فضربت اعناقهم ، واوجب ذلك للباقين في المسير اعناقهم ، وعادت سالمة سالبه ، غانمة غالبه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين . واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر ، واقطعه نابلس واعمالها ، وحلى بايالته لها احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة الله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ثلث نابلس واعمالها لمصالح البيت المقدس . وتشييد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على ولده . وتركه في تصرفه ويده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي الُسرى قوي الازر . فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار والاكبار . وقال ماللاكراد في شعورهم هذا الشعار . فقطع ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ، وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك المركيس بصور

اضافه الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوفى رزقه لموافاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، ومالك على انتـظار مقـدمه ، والجحيم في تـرقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظـى في تلظيهـا لتنظره . وقد قرب ان تـكون الهـاوية له حـاويه ، والحـامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بـالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري أنه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فـوثب عليه رجـلان . بـل ذئبـان امعطان . وسكنا حـركته بـالسكاكين ، ودكاه عند تلك الدكاكين . وهرب احدهما ودخل الكنيسة ؛ وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهـو مجـروح وفيه بقية روح . احملوني الى الكنيسـة فحملوه ، وظنوا انهـم حـاطوه لما نقلوه . فلمـا ابصره احـد الجارحين . وثب اليه الحين . وزاده جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرفيقين ، فالفوهما من الفـدائية الاسـماعيلية مرتدين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ملك الانكتير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ سـتة اشـهر ، ودخـلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والتزما الورع . وخدم احـدهما ابـن بارزان والاخر صاحب صيدا لقربهما مـن المركيس . واسـتحكما بملازمتهما اسباب التأنيس ، ثم علقا بركابه ، وفتكا به . فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فيالله من كافرين سفكا دم كافـر . وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم منكبـا منكسا . تحكم ملك الانكيتر في صور . وولاها الكندهـري وعذق بـه الامور . ودخل بالملكة زوجـة المركيس في ليلتـه . وادعى أنه احـق بزوجته . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها. وذلك افـظع مـن سفاحها ، فقلت لبعض رسلهم : الى من ينسب الولد . فقـال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه.ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضـلالة . لانه كان عدو ملك الانكتير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه ، وننتزع ماخذه مـن يديه وكلما سمع ملك الانكتير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحـديث في قـرار الصـلح ،

وطمع في ليل ضلاله باسفار الصبح ، فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه ، وذهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب لبه ، واستوى امره ، واستشرى شره ، وكان قد تعصب لمضادة المركيس للملك العتيق . فاظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المركيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عاديته . ولايأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جنونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامه . فانهم يعتقدونها لمتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقي في ايديهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وابقيت . وبالميره والذخائر والرجال مليت . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسلمها علم الدين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا مرارا اليها . وداروا حولها واشرفوا عليها . وأنفق السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . دقضهم وقضيضهم . وسعرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم وذابلهم . ورابحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرقوه . وحشوه واحرقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعـرقبها . والى النخـائر فـاضرمها والهبهـا . وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، واسروا منهم عدة يسيرة . وكانت هذه النوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على مـاء يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغـي .وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر . وقد انسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر . ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحبـاب . فخرجت عليهم اسد اليزكية المكمنة مـن الغـاب . فقـاتلتهم قتـالا شديدا . وتركتهم بحد الحديد بديدا . وغادرت حبل قصدهم الجـديد جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهـم عن جهتهم ترديدا ، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير . واتاهم من مبـاريها لهـم مبير . وعادوا مفلولين مثلومين . مخذولين مهزومين . مثلولين مهضـومين . ثـم رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين، وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبـرين . فتقـدم السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهـم مبـارين . وفي يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصـافية ، بجمـوعهم الوافـرة الوافية . ونزلوا يوم الثـلاثاء السـادس والعشرين بـالنطرون . فأرجفت الالسنة بانهم على قصـد القـدس على حسـب تـراجم الظنون . وسرت اليهم السرايا . وتوالت عليهـم البـلايا . واظهـر السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس ، وفرق الابـراج والابـدان على الامـراء والاجناد . وذوي القـوة والاستعداد . وامرهـم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب . وخـرج الناس الى خيامهـم يتخـطفونهم . ويعسـفونهم ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعـة ، وكبسـناهم دفعـة بعـد دفعـة ، ومـن ذلك ان بـدر الدين دلدرم كان في اليزك ليلة الجمعـة التاسع والعشرين.فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفـرنج مسـتقيمون على النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم السبت نزل الناس اليهـم وقـاتلوهم في خيامهـم ، والهبـوهم بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيد الشأن بادي الشين ، وعساكرنا قد ركبت اكتافه ، وهي تقطع اطـرافه ، وتهـز اعطـاف البيض لتحـز اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخـرة ، خـرج كميننا في طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحـازوا وكسروا واسروا .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجـدة لأهل القدس على الكفر واهله ، فضرب العسكر خيامـه على بلبيس مدة حتى اجتمـع الرفـاق ، وتهيأ لمن تـأخر عن السـابق اللحاق ، وانضم اليهم التجـار ، وحصـل لهـم بـكثرتهم الاغترار ، وللعـدو لقـدومهم الانتـظار ، وعنده بجـوا سيسه الأخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكتير ركب في سـبعمائة فـارس وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع مخاتل ، ولايدري اي جـانب قصـد ، ولأي نائب رصـد ، وجـرد السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معـه الطنبة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخـذوا بـالناس في طـريق البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا بالقوم واخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه ، وكان مقـدم العسكر المصري فلك الدين أخـو العـادل ولم يسـأل عن المراحـل والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عمـا يعـرو مـن الفـرق والفرق ، وترك الأحمال على بـرك اخـرى سـائرة ، ورأى الأمنة ظاهرة واوجه السلامة سـافرة ، وجـاء ونزل على مـاء يعـرف بالخويلفة ، والاماني تغره بالمواعيد المخالفـة ، ونادى تلك الليلة انا جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة مـن الآفـة ، فـلا رحيل الى الصـباح ، فـاغتر الناس بـالنداء الصراح ، ونامـوا مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح

بالصدمة الشاقة والحدمة الحاقة ، وعاق ابن ذكاء باذكاء بنت الداهية العاقة ، فجاءهم فجاءة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بأمنه سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما يغتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على وجهه . وربما كر بكرهه ، وفيهم من ركب بغير عدة حصانه ، واسلم اخوانه وغلمانه ، وانهزموا نحو الأثقال ، فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والأحمال . فوقع العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية وعاد معظمها الى الديار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار جمالا لاتعد ، وأحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات روعة ، وعولة ذات لوعة ، فظنت الظنون وارجف المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر مايحملهم وينهضهم ، ومن المال مايبطرهم ويحرضهم ومن الآن يقابلهم ، وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ، ووصل الجند مسلوبين ، ومنكوبين منهوبين ، فسلاهم السلطان عن أموالهم ، بما قوى من آمالهم ، وحضهم على الحظ من الأخذ بثارهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاعين بما ملا العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والقتال ، وحلا لهم ماحاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الأفضل والملك العادل غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان .

- ٦١٨٧ -

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وماجرى لهما من الأول

كان الملك الافضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان ، ورحل من القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمه الماضي المضيء قد سفر ، وأقام في دمشق حتى استعد ، واستجدى من ابيه ماكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى ماأصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجر سيل خيله جار نيل نقعة على المجرة ، شاغل بالسير والسرى اسرار ذوي الأسرة ، بادية على صفحات صفاحه نضرة النصرة ، ووصل الى حلب ، وقد مرى افاويق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدومه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحب للترحيب به صدره وجنابه ، وسحب على روضه سحابه ، واصحب فيض فضله صحابه ، ووقف لخدمته مائلا ، وهز عطف الابتهاج اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل مافي يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولانوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العراب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضالة التي ينشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه ، ودفع منه الى ماأرهجه وأرهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لفضله ، ولائذا بجنابه ، عائذا ببابه ، مستجيرا بارعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أنوار آرائه ، مروضا ماحل بانواء آلائه ، فاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته امله ، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه ، وشفع في امره واستشفعه ، وقال أنا أمضي اليه

وأستحضره وأؤمنه مما يحذره ، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخرى حماة والمعرة ، وتكفى المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحويها ، ويملك حوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واستقر ان ينزل عن اقطاعاته بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد في استخلاصه ، فأبدى على الرضا بذلك وجه كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الأول من جمادى الأولى . وكتب السلطان بعود الملك الأفضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في أخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرنقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكا مظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به في النكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة ما منه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ، وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، من يجد في تملكه الامكان ، فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من

- ٦١٨٩ -
القصد ، ودبروه من الكيد ، امر الملك الافضل بمباراة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت ودخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلى وراءه الديار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهز السلطان فرصة الغيبة ، وأوفد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لا نتظار العساكر ، ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق احجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ مابها وكسح ، ووجدت الاحمال المأخونة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والاموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمتعة ، وانتفاعنا بكل منفعة ، وامتلأ البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حماتها الامان ليكونوا لها مسلمين.وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا، فظن ان الغنيمة تصدفوا، فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الاكابر ، على

أن يدخلوا تحت حكم الأسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

ويفدى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احادا وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ماعينوه من الاقتراح . ومازال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكتير في البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو القلعة من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكتفينا منهم بمن حصل في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولانفع بعد فوات الفرصة الندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على توهيمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، وذفضت رقعة تلك البقعة . ولقد كان ذلك فتحا عظيما ، وفضلا من الله عميما . فقد امتلأت الايدي بغنائم تلك المدينة . ووهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنيه . وقتل من اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من مقدمي القلعةنيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد بغير بذل المجهود . وجرى الامر على الوجه المحمود . وانما وقع التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت بعد الاكثاب . وافلتت وقد وقعت في الحبالة . واستقلت بعد العثرة والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرة . واذن نشاطهم بالفترة ومانتعشوا ولانجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالمسار الوجوه . وكان ولده الملك الظاهر ايضا قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح يئس ان يؤسى . وظن تلك النعمة بؤسى . ثم اندمل جرحه . وفـازت قداحه وحاز السني قدحه واقام السلطان حتى اجتمعـت العسـاكر ولحقت اوائلها الاواخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيه في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه . هذا والملك متأخر في المخيم . بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحـل السـلطان ونزل بـالرملة والعساكر في عدد الرمل والاسـلام قـرير العين مـن اهله بجمـع الشمل . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجترأ . والقدر قد اسـعد والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو واذهب الكدر . وتلك البـرية قد حوت البريه . وجمعت العسـكرية والكمـت الجـارية والكمـاة الجرية . والاعراب والعـراب . والمحـارب والحـراب . والاجـاود والجياد . والاسـاود والاسـاد . والبياض والسـواد . والعـدد والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخادم حاله على ماانهاه غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة . وافاويق النصر على حفولها تارة وبكئها اخرى مستدره . والحـرب سجال . وللاسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتـداء . والحادثة متصله والواقعة مسـتقبله . والنعمـة مـن الله في اجـراء اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عداته في قمع عداته مـؤمله . ومـا ينقضي يوم الا عن نصرةتتجدد ، ونعمة تتمهد . وجمع للعدو يتبـدد . وجمر لنكاية فيه يتوقد . وخد للسيف من حده بـدم الشرك يتـورد . وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه الايام . من مرهـجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . وذوبة مالها نبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقـدس . ولم يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهـم . وعادوا خائبين . ونكصوا هـائبين . واسـتأنفوا مـكيدة اخـرى .

وشرعوا في شر خلف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافى يافا . موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتملي بنات الخلل الأسد والعرين .(فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين)[الصافات ١٧٧] فاخذها بالسيف عنوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول .جاءهم الغوث في البحر. وظهرت منهم امارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذ له . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردهم . وصدهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المذشية من كاس نجيعها الطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصابهم . واجتمعوا لضم ماانتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم ماصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعه . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعه . وكل مايجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بذشر نجاحها ويسر مافي اقتراحها سافرة.

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العـذاب به وقـع . خضـع وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لا قبل له بمن اقبل . ولا ثبات مـع الجحفل وقد حفل . فاظهر انه إن لم يهادن اقام وا سـتقبل . وللشر استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعـود الى مراده . والبحر قد آن أن يمنع راكبه ، ويسئم بـالامواج غواربـه ، فان هادنتم وطاوعتم تبعت هـواي ، وان حـاربتم وعصـيتم القيت ههنا عصاي واستقرت نواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقـان ، وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولاتغتروا بهذه العسـاكر المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتات ، ونحـن اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجيبوا رغبـتي . واصيبوا محبتي ، واودعوني العهـد ودعوني .ووادعوني وو دعوني ، فاحضر السـلطان امـراءه المشـاورين وشـاورهم في الامر ، واظهرهم على السر ، واستطلع ماعندهم من الرأي ، وسرد لهم الحديث من المبادىء الى الغاي ؛ وقال لهم نحـن بحمـد الله في قوه ، وفي ترقب نصرة مرجوه ، فانصارنا المهـاجرون الينا ذوو دين وكرم ومروه ، وقد الفنا الجهاد . والفينا بـه المراد ، والفـطام عن المألوف ، وماتصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومـالنا شـغل ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسـوقه اللهـو ، واذا تركنا هذا العمل فما العمـل ، واذا صرفنا عنهـم الامـل ففيم الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الأجل ، ومـن الف الحلية كيف يألفه العـطل . ورأيي ان اخلف رأي الهـدنة ورائي ، واقـدم بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي • ومااانا بـطالب البـطالة • فارغب عن استحالة هذه الحالة • وقد رزقت من هـذا الشيء فـأنا الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامـر على ماتذكره . والتدبير ماتراه والرأي ماتدبره . ولايستمر الاماتمره من الامر • ولايستقر الا ماتقرره . وان التوفيق معك في كل ماتعقده

وتحله وتورده وتصدره . غير انك نظرت في حـق نفسـك مـن عادة
السعادة • وارادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحـة • والاعتناء
بالوسيلة الناجحة والانف من العطله • والعـزوف العـزله • وانك
تجد من نفسك القـوة والاسـتمساك . ويقينك يعـرفك بـالاماني
الادراك • فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت • والرعايا
فانها تعكست وتعاثت . والاجناد فانها نصبت ووصـبت • والجياد
فانها عطلت وعطبت • وقد اعوزت العلوفـات • وعزت الاقـوات .
وبعـدت عنا العمـارات • وغلت الغـلات • ولاجلب الا مـن الديار
المصرية • مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية • وهـذا الاجتمـاع
مظنة التفريق • ولايدوم هذا الاتساع مع هـذا الضـيق فـان المواد
منقطعة • والجواد ممتنعه . والمترب قد ترب . والمعدم قد عطـب •
والتبن اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي السـعر •
وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة
واستنفاد المنه • وصبروا على المنية في طـريق الامنيه • وابـوا في
الاقبال على دينهم قبول الدنيه • والصواب ان نقبـل مـن الله الاية
التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا للسلم فـاجنح لهـا) (الانفال
٦١) وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها • وتـكثر في مـدة
الهدنة غلاتها واثمارها • وتستجد الاجناد عدتهـاوتستريح زمـان
السلم ومدتها • فاذا عادت أيام الحـرب عدنا • وقـد اسـتظهرنا
وزدنا • ووجدنا القوت والعلف • وعدمنا المشـاق والكلف • ففـي
ايام السلم نستعد للحـرب • ونسـتجد ادوات الطعـن والضرب •
وليس ذلك تركا للعبادة • وانمـا هـو للاسـتجداء والاسـتجداد
والاستجاده • على ان الفرنج لايفون • وعلى عهـدهم لايقفـون •
فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا • وقد شقوا بمـا لقـوا •
ومايقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويسـتقل بـالملازمة .
وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي • واجـاب الى مـااقتضي .
وكانت قد بقيت بين العسـكرين منزلة واحـدة • والعجـاجات على
الطلائع متعاقدة • فلو رحلنا رحلناهـم • وعلى الهلك احلناهـم •
لكن مراد الله غلب • واجيب ملك الانكتير من الصلح الى مـاطلب •
فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نسـختها ، وعينت مـدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في شرح نوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله . وماهو لايزال مستمرا عليه من جهاد العود وقتاله . وماكان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من الذفائس والانفس . وسلكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . ودنوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان ، وان شبا الحتف عنهم وان . ولما قربوا عرفوا ان المرمى بعيد المرام . وانهم لايستطيعون مقاومة عسكر الاسلام . فنكصوا على اعقابهم . ونكسوا ماضربوه من ارائهم وارابهم . وعلموا عقبى ماجهلوه . وقطعوا من اسباب العزم ماوصلوه . ونكثوا من عقد القصد ماابرموه . وشرعوا في أمر آخر توهموه • ومضوا واستأذفوا الاستعداد . واستنهضوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والشكة القاطعة . واستظهروا فيها بكل ماقدروا عليه من المنعة الحاميه . ورجال الصبر على النار الحامية • ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة .

وظلال الضلال الممدودة وصلال الصلادم المقودة . مستمطري شآبيب الانابيب . مستذفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عما اجراه . الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نمى خبرهم . وطار شررهم . وخيف ضررهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخواصه . ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بغزوته اليها عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا . وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر النخر . وطلب أهل القلعة الامان من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لايمكنون من الدخول اليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم . وكندوهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره من يأمره برجوعه . ووافت في البر جحافلة حافلة . وتواردت في الاسراع إلى الصريخ ظلمانا جافلة . فاجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من دمائهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر . واقسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر . وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هز له الاسلام

عطف الاغتباط . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لايجابون إلا بالاباء . ولاتلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها . وأولياء الطاعة وألباؤها . واشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة المكنة . واستقرت المهادنة على ما أعزه للاسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها . وبعدوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الامان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا عسقلان. وغزة. والداروم. ويبنى. ولد. وتل الصافية . وغير ذلك من الاعمال والاماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا بيافا . وعكا. وصور . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار . وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الغرار . وأمورهم الى القرار . وخلوا ديارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الاوطان والاوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي اخذوا بها اليد واعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلم أوضارها. وأخذت من أهل النار نارها . وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الامور . وابرام معاقد المعاقل . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر آمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الاعمال والاحوال إلى عادة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر واراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلم متكرها . ولايرى أن يكون كشسيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الامراء وذوي الاراء على ان المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صفقه الكفر فيها خاسرة وصفقة الاسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما . وأمنا تاما . وتفريقا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما . فهي سلم أنكى من الحرب فيهم . وانها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم . والى متى تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفق هذه الامداد المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهم هذا الجمع على التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهم من الوفه سوى مئتين . وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وانفقوه . وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقد آن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم ذاهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوته . واستكثر من نجدته ومن جدته ، فرأى موافقة الاجماع . وقبل مناصحة الاشياع . وتفرق جمع الكفر وباخ جمره . وأمن ذكره ومكره . وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره . وتوضح بسنى النصر فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته . واشتغل باتمام السور والخندق وتكميل عمارته . وفسح للفرنج كافة في زيارة قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامن والسلامة . وزاروا ورازوا . ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق . وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقاتل على هذا الذي وجدناه مع الصلح.ومازلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح . وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الزيارة الا لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك ويصاب سوله . فقيل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستثاره . ومن زار برد قلبه . وتنفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهذه الديار سبب . فكان الامر كما حسب فاعتذر إليه في الجواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصـــلون إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود . ولاندبلغ من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكتير مرضا الهاه عما اشهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر وأقلع . وعجل في مفارقته وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهـــو الكند هري ابن أخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الاخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه مـــن الازواد والنفقــات . والثياب والكسوات . فقيل له لو كتبــت إلى أمير المؤمنين وأعلمتــه بحجك وعرفته بنهجك . حتى لايظن بك أمر انت منه بريء ويعلم أن قصدك في المضي مضيء . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافــاق . ثــم هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مـــرر حبلهـــا المنتكث . وهذه المعاقل التي في الثغور ، حفظها من أهـــم الامـــور . ولايغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهـــم . ومليء البغي إهابهم . فمازال الجماعة بالسلطان حتـــى حلوا مـــن العزم ما عقده . واطفأوا من نار جده فيه ماأوقده . فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهـــذيب عمله ومعـــاملته . وكان الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهـــو تـــركي يقتـــدى بـــه في زهادته وحســـن ســـيرته الشـــيوخ . وكان فيه دين ولين . وحبله في الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا مـــن الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما مورده ومصـــدره . وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جرديك . وقال تهديك في الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتمـــاع خـــلال الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتـــول آخـــذا بـــالحزم في تثبتـــك

وتأنيك . وتـرويك وتـأتيك . وولى علم الدين قيصر اعمـال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج اليها وتولاها . وأمـر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين . واعانة المقـطعين ، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وآذن سؤاله عنها بـاجابة سؤلهم وسرلهم . فانه كان وقف دار البطرك مجـاورة قمـامة لهـم رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف . وحـكمهم في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعـل كنيسـة صـندحنا عند بـاب الاسباط للفقهاء الشـافعية مـدرسة . وردهـا بنية على التقـوى مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلادها وطرافها . وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمـامة بيمـار سـتانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامـراض على اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القـاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج الســلطان على عزم دمشـق مـن القـدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبـر الاحوال . وأقام بعدله الاعتـدال . وأفـاض الفضـل والافضـال . وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على بركه للداوية . بـالهمة الروية والعـزمة القـوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصـالحها المتـوزعة . وكثـرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وأنه قد طرق الرزق الى مشاربها . وزاد في رسومها ونوائبها . فاقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مـظالمها . واضـحك بـالعدل والاحسـان مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمـات سـننها الضـائرة .

وأصفى بهـا شرعة الشريعـة . واضـفى ظـلال الرعاية للرعية في مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبتنا ليلة الاحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بـالفريديسة . ورتعنا في مـروجها الانيسـة . واصـبحنا راجلين . ونزلنا ضـحوة على جيشين . وهناك ودعنا المشطوب وداع الابد . فانه انتقـل بعـد ايام الى رحمـة الواحـد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال . ورحلنا يوم الاثنين وجـئنا ضـحوة الى بيسـان . وازال حلول السلطان عنها البؤس واشـاع الاحسـان . وصـعد إلى قلعتهـا المهجورة الخالية . فابصر قللها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت في حضانة الحصانة . وكان جبلهـا اوثـوقه مسـتودع الامـانة . والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب . ولم يزل حتـى بين كيفية بنائها ورتب . وووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهـر ظهـرا وبات على قلعة كوكب . وشاهدها وصعد نظر رأيه فيهـا وصـوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خـرج مـن الاسر . وتلقيناه بـالبشر والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتـوافر الانداء . وتـواتر الانواء . ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل . وصـعد السلطان اليها وامر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحبش . وهـي عامرة محتوية على سكانها . كأنهـا العش ، وسرنا منهـا وخيمنا على مرج تبنين . وبتنا باحوال قلعتها معتنين . واصـبح السـلطان حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتطيا قـلة قلعتها ولاسـباب اختلالها مميطا . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصـالحها بـكفايته منوطة . وسدادها بسداده منوطا . ثم رحلنا بكرة السـبت وجـزنا على قلعة هـونين . ونزلنا مـن الجبـل . وبتنا على عين النهـب واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الاحد وخيمنا بمـرج عيون . وجلس السلطان على عادتـه معنا في تـدبير الممـالك تلك الليلة وسـهرت العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى . وقطعنا في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة على الضياع والقرى . وعرسنا على مـرج تلفياثـا

مقابل مرج القنعبة . ودفعنا إلى سـلوك المسالك الصـعبة . ثـم اصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفياثا فخيمنا على جسر كامد . والسلطان مشغول في طـريقه مـن تقـرير العمـارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحـامد . ثـم غدونا يوم الاربعـاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد اصحرنا الى الفضـاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعمـاء . ولما جـن الليل جمعتنا بالخضرة السلطانية الانوار . وسرت اسماعنا منه اسـماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الاسـعار ، ودخـل السـلطان يوم الخميس الى بيروت ، وانجز بالوصول اليها وعدة الموقوت ، ونزلت الاثقال على مـرح قلميطية بـالبقاع ، وأقـامت خمسـة أيام على الاستراحة والايداع .

ذكر وصـول السـلطان الى بيروت ودخـول بيمند الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاسـتجارة بـه وذكر سامة

ولما وصـل السـلطان الى بيروت تلقـاه واليهـا عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واسـتقبل الأصـحاب بصـدر رحيب وظل خصيب ، وسـماحة اريب وسـجاحة لبيب ، وفتحـت الأهراء على غلاء الغلات بالثغر ورفع اغلاقها ، وسـبلها ومـا قيد اطلاقها وقـرى واضـاف ، وادنى القـطاف ، واصـفى العطاف ، وتلطف في الهدايا وأهدى الألطاف ، وفرق على الصـغير والكبير التحف ، واحضر للسلطان ولكل من معه الطـرف ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجود وافنى ، واعطى الخيل والمـاليك والجواري والملابس ، وبذل الذفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابكار المناقب العرائس ، واظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مـظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جـريا

على كرم الشـــيمه ، ومـــــن الجـــوخ الافـــرنجية والثياب البندقية ، والهنايات الفضـــــــية والاكواب اللجينية ، والسروج واللجـــم ، والاكســـية والحـــزم ، والمهـــاميز والملاليط والغفافير ، والعروض والدراهـــم والدنانير ، ففـرق مـــن ذلك مـــا جمعه • ورفع الى كل منه ما اسمى قدره ورفعه . وما انفصـــل عنه الاكل مواصل بشكره ، مســاجل امثـاله بـــذكره ، مضـــوع كل ناد للكرام بنشره ، وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، واعجب واعجز ما صدق باهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصـــال ، وذلك في يوم الســبت الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابـرنس الأنطـاكي قـد وصل الى الخدمة ، مستمسكا بحمـل العصـمه . داخـلا حـــكم الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام ومـا ارتحـل ، واذن للابـرنس في الدخول ، وشرفه في حضرته بـالمثول ، وقـربه وآنسـه ، ورفـــع مجلسه ، واظهر له البشاشة والهشاشة ، وســكن مـن روع روعه الحشاشة ، وكان معه مـــن مقـــدمي فـرسانه اربعـــة عشر بارونيا ، ووهب كلا منهـم تشريفـا سريا ، واجـــزل له ولهـــم العطاء ، وابدى بهم الاعتناء.وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصـحابه بمبـار ، واعجبـــه استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فـلا جـرم تلقـاه بـــكل احسان ، وودعه يوم الاحد وفارقه ، ووافـق مـراد السـلطان انه بمراده وافقـــه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرتـــــه مذكورا ، محبوا بالمنح والمنن محبورا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بات بالمخيم على البقاع ، واحضرنا تلك الليلة في نادي فضله المؤانسة والامتاع • وتجاذبنا اطراف الآراء ، وهززنا منه اعطاف الآلاء ، واستدنينا قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهل والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر وبتنا على مرج يبوس ،،وقد شرح الله الصدر واطاب النفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشق من سبق للتلقي والاستقبال ، واظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين الينا مسالكها ومذاهبها ، ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعرادة ، وجرى المتلقون في التحفي بالتحف على العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشق وقد اخرجت اثقالها ، وابرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخرج كل من بالمدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الأعين ، واقرت بفواضله الألسن ، وذاعت اسرار السرور ، ورقت حبرات الحبور ، وطابت الأنفس ، وغابت الأبؤس ، وانجلت المكاره وتجلت المكارم ، وافترت المباسم وهنيت بموسمه المواسم ، وتهوديت التهاني ، وهديت الأماني ، وغنت المغاني ولذت المجاني ، وسفرت المجالي ، وظفرت المعالي ، وتحلت الأحوال ، وتملت الآمال ، وراج الرجاء ، وارجت الأرجاء ، وفاض الجود • واستفاضت السعود • وعم العدل • وتم الفضل • واشرقت الافاق • وآفاق الاشراق ، وكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء .وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه في

موجها ، وسلكت المناجح في نهجها ، وجاءت المنائح في فجها بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الآلاء لمرتجيها ، واستجدت عادات انجاز عدات الجوائز لمستجديها ، ويسر اليسار لاسعاف العافي ، وتمت على السن الأنام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان في دار العدل فأعدى المستعدي ، ولبى المستدعي ، وأجاب واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى طبرية ، ولقي من السلطان الألطاف الخفية ، ووصل معه الى دمشق واقام الى ان خلص اصحابه من الاسر ، وتوجه الى مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته ودخل في اقلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسل المماالك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع وافتراره ، والتهاب زهر ازهاره ، وانتهاب سرح سلاح اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وائتلاق انواء انواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق اشجاره ، واندفتاق كمامه واتساق نظامه . وانتثار منظومه . وانتظام منثوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه سفوره ، واجتماع لفيف اعشابه ، واستماع حفيف اقصابه ، والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق شقائقه ، وانعقاق عقائقه ، واشتمال شماله ، واقتبال قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صبابه ، وتورد وجنات جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتنسم ضمير ضميراته ، وتصور خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار آس عذاره ، واحمرار خد جلناره ، وتشنف اقطار النادي اقراط قطار الندى ، وتفوف حافات الوادي بالوشي الوشيع من حول الرباب حول الربا ، فإذا طاب النسيم ونسم الطيب ، ودعا البلبل ولبى العندليب ، وتعطر عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجني الجيني . وحلى النضير النضاري ، وبقل العـذار البنفسـجي . وا شـتعل الخـد الجلناري الناري ، ونجم في الروض النجم السمائي المائي ، وابتسـم الثغـر الاقاحي ، وتنسم الضوع الصباحي ، وتحـرك العـرف السـحري الشجري ، وتأرج النشر الروضي ، وتبـلج البشر الوضي ، وانتشى النشأ الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشـاب الشـعاب ، وقابلت القبول خطبة الفضل بفضـل الخـطاب ، وصـبت، الصبا في محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جمـاح الأصـحاب الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وأيمان أهل الأيمان كل مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعـت العسـاكر وعسـكرت الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع ، ونهض اهـل الجـد وجـد النهـوض ، وفـاضت المنابـع ونبعـت الفيوض ، وضرب السرادق السـلطاني حيث النصر ينزل ، والسـعد يقبـل ، واليمـن يشمل ، والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمـر يمتثـل ، والجـد يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي، والوني يعزل ، ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتنفس الا بحديث الطاعة من يحـدث نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مـديد ، والجلد واه والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشتيت حديد . والجبال قد اشتعلت رؤوسـها شـيبا ، والثلوج قـد زرت على اعناق اطـوادها جيبا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب ناكت ، والهتوف سـاكن سـاكت ، والمزن مـزين ، والحـزن حزين ، وللسماء سـماط ، وللنشـاص نشـاط ، وللسـحاب حساب ، وللبرق والرعد انتحاء وانتحـاب ، وللبـرد مـن ثلجـه برد . وللمطر في نهجه طرد ، وللغيث عيث ، وللوحل ريث ، وكانون قد اكن الربا • وشباط قـد شـب الشـبا . والنار محبـوبة مشبوبه ، وحـدود الذكب مـذروبه ، وخـدود التـرب مضروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتهـز في العمـر للفرص ، مبتز بـالبزاة والصـقور ، حشـاشات الوحـوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطائر طارح ، يدني اجل الحجل وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهي الغرام ، وكل شهم ينقض انقضاض السهم ، ويبط بطن البط بالحزم ، واكثر الجلوس بدمشق في دار العدل ، واغزر لمنتجعيه در الفصل . وحكم وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقف وامضى ، وما منع بل اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووا وفد وافاد ، واحسن وزاد ، واغنى واقني واجدى واسدى ، وأولى وولى ، وأجار واجاز ، وحاز وفاز ، وقرب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وتكلموا عنده في المسائل الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وماكان احسن الى الحق اصغاءه ، وأسرع للباطل إلغاءه • ولكل ذي فضل منه حظ • ولكل ذي حفظ منه حفظ • ولكل محروم منه رزق ، ولكل مرزوق الى حمده سبق ، ولكل فهم عنده سوق ، ولكل سهم عنده فوق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدم من جوده أعتاب ، ولكل مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من اسعافه جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهداء ، ولكل سائل نائل ، ولكل ماحل وابل ، ولكل ظام ري ، ولكل حائم ورد هني ، فما أسح مزنه ، وماأصح وزنه ، وماأسمح يده ، وماأوضح جدده ، وماأعلى جده، وماأجد علاه ، وماأجدى كفه وماأكفى جداه ، وماأكثر حياءه وأغزر حياه ، وأرج رباه، وأبلج محياه .

وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان ، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان .

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما ، وقصد به لمناد امر ذلك الجانب تقويما ، فقوي كل منهم في ثغره ، واستقل بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه الى مافي يد صاحبه من البلاد ، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد استحكمت قواه . واستطال هواه ، وهو حينئذ متولي سيواس ، فأطاع في التملك على ابيه ملكه الوسواس ، وسعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفراس ، وصور له انه يريد ان يستولي على الملك ، وينفرد بانتهاج المسالك وانتظام السلك ، وساعده صاحب ارزنكان وأمن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأذن السلطان ان يقصد دياره ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فاستصحبه صاحب ارزنكان ، وأوقع عليه في الطريق التركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا ، وأنه عن حسن بن غفراس سلا ، ساق اليه ، وأخنى عليه ، ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحوز حوزته ، وقوي بعزته ، وعز بقوته ، وقال لوالده انا بين يديك ، واشفق عليك ، وأنفذ أوامرك ، وأوفر مآثرك ، وقتل أمراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لايشتهيه ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وفرى ، وقرع وقرا ، وقطع وبرى ، وقد مضى حديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهم في وهن الاسلام ، واستصحب معه والده الى قيسارية ولقسر اخيه نور الدين سلطانشاه وحصره ، واظهر انه بأمر والده وأنه شاد ظهره . وخرج عسكر البلد وصف ، ووقف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد ، وانفصل ملكشاه الى قونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بالسلطنة ، وبقي قليج ارسلان يتردد في بلاده ، وفي ضيافه أولاده ، وينتقل من بلد الى بلد ، ومن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فقواه وأزره وضافره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله.وجاء به الى قونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه من المرض الثقيل في خفة ، حتى دخل المدينة وقلكتها ، واجتازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الأعيان ، فاستحلفهم ، واستمالهم وتألفهم ، ثم اظهر لهم وفاة ابيه وأنه وارث ملكه ومتوليه ، وقوي على قطب الدين ملكشاه اخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وكان من أهل الفضل ، والرياسة والنبل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور العظام ، ويؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها اليه ، وعول فيها عليه ، ومابرح بها حتى انعم بها على صاحب اربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد امرهم الى سداده ، فتردد بينهم سنه . ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة . وعاد ووصل الى ملطية ، وقد استكمل من عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل الى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي مترقبة صباحها لاسفارة ، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوا فدون قاطفوا جني جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاء كلاءته راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، واسرار المنى بالمنائح ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وابداء السعود ، وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء العزائم ، وتشييد الدعائم وتقرير العظائم ، والاهتمام بمصالح الاسلام ، ومناجح الانام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

الفضـــلاء ، ومـــوالاة الأولياء ، ومصـــافاة الأصـــفياء ، واعداء الملهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخـــرج عن حـــكم الجلد ، وبرز الى الصيد شرقـــي دمشـــق بـــزاد خمســـة عشر يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معـــه أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ووافـــق مـــراده القنص ، ثـــم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافـــق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقـــي ، وســـعاداته في التـــرقي ، ولما لقـــي الحجاح استعبرت عيناه ، وكيف فاته من الحج ماتمناه ، وســـألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصـــلهم من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجـــاورين والفقـــراء ورواتبهـــا وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج ، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقاه بـــالاكرام وأنزله في كنف الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صـــفر في مجلس عادتـــه ، ومجلى سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحـــدثه ، ثـــم صـــلى بـــه وبنا إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا باحسانه مغتبـــطين ، وبـــامتنانه مرتبطين ، وأصـــبحنا يوم الســـبت وجلســـنا في الايوان ، ننتـــظر خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الافضـــل ان يجلس موضعه على الطعـــام ، فجـــاء وتصـــدر وتـــربع في دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطيرنا من تلك الحال وتفالنا بحد ذلك الفـــال ، ودخلنا اليه ليلة الأحـــد العياده ، ومـــــرضه في الزيادة ، وتوفي بـــكرة الأربعـــاء الســـابع والعشرين ، ونقله الله في دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجـــال ، وأظلم بغروب شمسه فضـــاء الأفضـــال ، وغاضـــت الأيادي ،وفـــاضت

الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الآمن وخاب الآمل ، وقنط السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، وذكر المعروف ودفن بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضحى ، ولا أجد قلبي من سقم الهم وسكره صح ولا صحا ، وحالت حالي وزال ادلالي ، وبطل حقي واتسع خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي وبقيت المعارف متنكره والمطالع مكفهرة ، والعيون شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسه ، والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجى مرتجا ، ومنهج كل معروف منهجا ، وظن الغنى عني ، واختلف في ضن الاحلاف بي ظني ، حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام ابيه ، وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي وفقري ، والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلي دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها ، وهززت اليراعة • وأغزرت البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكرا وابنة صغيرة ، وأبقى له مآثر أثيرة ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في خزانته سوى دينارا واحدا وستة وثلاثين درهما ، فانه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما ، وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول ، فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولاجبه أحد بالرد اذا سأله ، بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ماعندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطي وأن كان يبطى . وإنه يصيبه بالنوال ولايخطي ، وكان ولي مجده بالشام الملك الأفضل نور الدين علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وادناء الأولياء ، وخلع على الاماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا » وذهبوا وما آبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والباس . وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس .واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة .وجاد واجاد وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من اعوز . وبرز وابرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتائب . وفرض المواهب . واجرى الصدقات . وتصدق بالجرايات . وادر وادار . واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأدنى وابعد . وقدم امر بيت الله المقدس . واعتمد في اعتماد الأشوس الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امده بالحمل . وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته . وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

ففصل ووصل . وأحسن وعدل . وقضى وحكم . وامضى وأحكم .
وأحضر ذواب ديوانه في ايوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه .
واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل
من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقى إلا ما
في يدي من الضياع . وصان حقوقي من الضياع . وأمر بتخليده .
وأجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب .
ومحبوبه من الرفد محبوب . ورعى في عهد الوالد . واضاف الطارف
عندي من العرف الى التالد . هذا وانا غائب . وبرائي رائب .
ولسواء كاتب ونائب . ومااحوجني في النوال الى السؤال . وأغناني
عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدي ووسائلي الى تسيير القصائد
والرسائل . وما اغرب بدار فواضله حلول بدار الافاضل . ثم اشفق
من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فأتى من تجهيز العساكر الى البيت
المقدس بكل ما في المكنه . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم .
وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حانثين . ولعقد ايمانهم
ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراءه . أهل الرأي واللب .
وجهز جيشا جائشا . وبعثنا لعثار الدولة ناعشا . في كل مقدم
مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمقام . فوصلوا الى
دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهز منهم اعطاف
الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى ان الحمد أعود والعود أحمد .
وسيأتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من
شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابو الحسن علي ولد السلطان
دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره .
ونفدت في الرجال نخائره . ورتب الامور اجمل ترتيب . وهذب
الشؤون اكمل تهذيب . وجلا السرير السلطاني بنوره . واسفر
صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهدأ وملا بالبشر المتبلج

والنشر المتأرج الملا . وهذب واذهب . ورغب وارهب . ورتب وربت واصلى وأصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بحميته سر حمايته واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونصر ونظر . وعز واوعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس . واشاع البر واعاش . واشبع الجياع وروى العطاش . واستخلص ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض . وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط . وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لا حظ لغير اللاحظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ . وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . وامهى الرواعف . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق . وضم الملك ونظم السلك . وجلس في دار العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وجزم ، وعزم والتزم ، وزاد وزان . وأغاث واعان . وابر ارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بغزارة العطايا . واستفاض بطهارة السجايا . وآوي اليه اخوته . وضم جماعته . وجهز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا . واصحبه عسكرا مجرا . وانهضه لانجاد عمه الملك العادل . فانار في فضاء الفضائل . وسار الى الجحفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع . وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة الافضلية داخلة . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصلة . وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد اسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . واسر صدقه ونشر صداقته منيعا مشيعا . فأحلى له الملك الافضل جنى شهيا.واحله جنابا وسيعا .

وعقد له حبا الحب ، وحياه بكل ما سفر عن سـفور مـودة القلب . ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الافضـلي تـابعا . فأدناه واجناه . واحبه وحباه . وأسناه وأسـماه . وآواه وآسـاه . فتأكدت بينهم القرابة المتشـجه . وتشـبكت اللحمـة المنتسـجه . وتمهدت الآصرة الممتزجة . وتفتحت أبواب الالفة المرتجه . وتوافوا على التوافق . وتصادقوا على التصـادق . وتعـاضدوا على الأخـذ بالتساعد . وتعاقدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب واعمـالها وحصـونها ومعـاقلها . وكرائم البـلاد وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين ابو الفتح غازي . وهو برجاحته وسماحته الطـود والجـود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقـطارها واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحمـاها . وبمـاء العـدل رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهز اعطاف العطاء . ورحـب لوراده . ورواده رحابه . وسـحب بحيا الاحياء سـحابه . وابـرت مبراته . واثرت مأثراته . وسح وصح غيثـه وغياثه . ورعى رعيتـه فشبعت ورويت ظماؤه وغراثه . وزخرت امواجه . وزهرت بثـواقب المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صـبا صـباحه . وعزت بسيرته كتب التـواريخ . وعزى قلمـه وسـبقه الى عطارد والمريخ . وسعدت وفوده . ووفدت سعوده . وآثر من امره النفـاذ . وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبـرار . واقصى الأشرار . وخص الأعزة الخواص . وتمهد لسلطانه الأساس . واطـرد لاحسـانه القياس . ووجد من عثر من ايد يده الانتعاش . وعشـا الى جـدواه المجتـدي وعاش .وفرض الفرص . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى القروض . واستدنى من المناجح شاحطها . واستدرك من المصـالح

فارطها . وملك خلق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع .
وخرق ورقع . وغلب وبلغ . ودمى اهل الكفر والذفاق ودمغ . وشفى
واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب
وادرك . وأخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم
الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن
اللهو. وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الحلو . وأمر
ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكايد وأوهى . ووفى للوفي . وصفا
الصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك
الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . ودخل
في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهو ناصر الدين محمد بن
الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب
وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه .
وهمت همته بالزيادة وسمت اسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه
ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى
الى حصنه بالكرك للاستراحه، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية
المتاحة . فنابه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب .
فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث
ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا . ورحل طالبا
لبلاده بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجريرة . وكان السلطان
جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما
ومض بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى
الفرات . وجد مما خافه دلائل الفترات . فأقام بقلعة جعبر . ولم
يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة
المستدامة . وسير الى الولايات الولاة . ووصى برعاياه الرعاه .

واستناب في: ميافارقين، وحاني، وسميساط، وحران، والرها . وشحنها بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعه . جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه في خف فخفوا وعرضوا وصدفوا . وما كفاهم ماهم فيه فهموا وماكفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم وهلكتهم . واذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمات وماقدر الله لجمعهم من الشتات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل النشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في الذوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب الاستنفار . وضم اليه من ماردين ، ماردين ، وطار وطاش . وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش . فبينا هو في اتم غرور . وانم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد عين . واغفل قلب . واذهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدر انه داخل الى مغتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيلية . ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته العليه ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة . وكأن ايامه كانت احلاما رؤيت في السنة . واول بادىء بالخروج متولى ماردين فانه مرد . وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال مادرين . حين كان اهله عليه ماردين . فلما صالحهم استبقاه واستثناه . وأضافه الى نائبه بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل . وخرج في الجحفل الحفل . واضافه اخوه عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين . وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مرادنا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستنفرهم .
ويستصرخهم ويستنصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد .
فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب .
ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتنم واهتم . وجمع
عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبعلبك .
واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين
خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل
لقدومه منتظر . واما المواصلة فانهم ماا سرعوا بل ابطأوا ،
وماا صابوا بل أخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية
متوافيه . وان فئته كافة كافيه مكافيه . فتجنبوا وتجبنوا وكانوا قد
وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر
حران في جموعه وجنوده . واعلامه وبنوده . ومساعيه وسعوده .
وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب .
وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب .
وسيف سيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر
فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال
اليزك تتناجى وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره
المكتوم . تفليل غروب القوم وتقليلهم . وحار تأملهم وخار تأميلهم .
وجفل رألهم ورتع رعيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتابك
صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر .
واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا
ان يتبدل ماالم به من ثقل الم بخفه . وقهقر عماد الدين راجعا ولمن
وثق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماردين وتذرع . وتشفع
بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصفح له عما
مضى . واجري على القاعدة السلطانية معه . وكان قد ضاق به
الفضاء الرحب لولا العفو عنه وماوسعه . ورأى عماد الدين ان
القوم خانوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى
الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجلا الضو . وعلا النو .
وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات .
في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بـابن تقـي الدين وابـن المقـدم عز الدين ليث القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجـب وفتحـوها يوم الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحـل الملك العادل منتصف رجب الى الرقة وتسـلمها في العشرين منه . وكانت اليد البيضاء فيها الملك الظافر على ماذكر عنه . ثم رحـل وتملك بلد الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجـاء الى نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم نخائرها . فجاءت الرسـل العمادية في طلب الصلح . واسـفر ليل الحـرب بسـنى السـلم عن الصبح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم ومادارى . فبسط عذره . وقبض ذعره . واتاه خبـر وفـاة صـاحب الموصـل وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربـح . وكتـب الينا ان اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبـوه . وان كل صـاحب حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعه . فانه تولاهـم بعـد بـكتمر المعروف بالهزار ديناري . فلم يرضوا بايالته لخلاط ولم يروه كفـوا لتلك الهدي . ثم اشرف العادل على خلاط . فوجد اهلهـا قـد كملوا الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامد الحصر يمتـد . فعـاد الى حران والرهـاء واعرض عن مخـالطة خـلاط وتـأخر الى الربيع امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العـزيز في اخـر رجب عن الملك الافضل

لا شـك في احـاطة العلم الاشرف بحـال الذين الذين حـالوا عن الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخـلاف الخـلاف . وعادوا عن خلق التلافي الى الاتلاف . وبدوا بالانتظام في سـلك الغـدر شـمل الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفـروا بعـد ايمـانهم . وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزمـوا انهـم اذا زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

الى البلاد التي الخدم مـن انعـام امير المؤنين صـلوات الله عليه ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضـلالة بعـد الهـدى فسـلكوها . واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم . واصـيبوا اذ لم يصـيبوا ببصائرهم وابصـارهم . ودخلوا في دائرة السـوء وخـرجوا مـن ديارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصـاحب ماردين وحسدوا وحشدوا ومالظن بشر الحـاسدين الحـاشدين . ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العـادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السـداد . واثقا منهم بالمواثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافـاويق . وهـو في خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتـظم عسـكره ولم ينضـم اليه معشره . ولم يصدف لدفع الشوائب وردع النوائب مورده ومصدره . فلما عرف نكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجمـوع . وحنت على قلبه الضلوع . وحنت الى اصله الفروع . وتوافدا اليه بذو اخيه في الجنود . وتوافوا نجدة ساعدت السـعود وامـد الاخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصـار المتناصرة . وندب الخادم اخاه الظافر خضرا وانهضـه . وسـار معـه عسـكره الذي بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القـوم . وانهـم مـن حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . وانفـق في العساكر وجهزها . وذكر عدة النجدة فـانجزها . واهتبـل فـرصة الفريضة وانتهزها . واقبل على نخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . ومـاجت البحـار ، وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز اياته في اهل الشمات . وخص جمعهم بالشتات وحبلهـم بـالبتات ، وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ، وحطه من بقاع اعتـلائه الى حضـيض اعتـلاله . واعادهـم على اعقابهم ناكصين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم وارابهم ناقصين واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعادة خارقة . وقـدرة لاقدار الاولياء السعادة خـالقه . وقتلهـم ومـا قاتلوا ، وقـابلهم وما قابلوا . و غادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظـة المتفـكرين . وعلم صاحب ماردين انه اخطأ وما اصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عابية الخسر عادة الربح ، واجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه . فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وديعتها المستحقة . وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وبيمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . وماالسعادة الا لمن شملته سعودها . وماالجد الا لن وصله جودها ، وماالكرامة الا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها ، وماالعصمة الا لمن لزمت في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر الملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى اخيه . وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب بانشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح ماالم . وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو: صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم . والخطب الجسيم . والرزء العميم . والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت . والمصاب الساحت . والفجيعة الفاجية . والنكبة الناكية . والطارقة الطارية .

والملمة المؤلمة والبلية البارية . والواقعة الرائعة . والصدمة الصادعه . والحدثة اللافحه . والروعة الفادحة . والغمة التي غامت بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام . فقد عدمت المطالع ضياءها . والمشارع صفاءها والثغور سدادها . والامور سدادها . والعيون قرتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها والجفون غرارها . والايدي أيدها والوجوه سفورها . والصدور انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضلت العلياء محجتها . واهتدى الضلال الى الهدى . واقوى نادي الندى . واقفرت مغاني الغنى . واكفهرت مجالي السنى . وأمرت مجاني المنى . وخفيت مناهج المناجح . وعطلت مناهل المنائح . وعميت مذاهب المواهب .واظلمت مطالع المطالب . وارتجت ابواب الفتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمست زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضطرمت الدهياء وبطلت مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهاد . وتفجعت ممالك البلاد . وأخلفت عدات الاعداء على الاعداء . وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما اجراه الله من قضائه المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه . فقد عظم الخطب وجل . وحل عرى الجلد حين حل . وثلم غرب الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضلوع . وبت حبل اللاجين . وشت شمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث . وحباؤها غثاث . وعقودها انكاث . وسهولها أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومواهبها احداث . وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغبطتها ندم . ووجودها عدم . وبقاؤها فناء . ونعيمها بلاء . وراحتها عناء . وملكها هلك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حرب وصلحها فتك . ووفاؤها غدر . ووفاقها مكر . وعرفها نكر . ووصلها هجر . وخيرها شر . ونفعها ضر . وجبرها كسر . ومتاعها قليل . وباعها في التطاول طويل . ومالعثارها مقيل . ولافي ظلها مقيل . ولارب فيها لأريب . ولا الباب فيها للبيب . فان

ظلها قالص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيها خدع . وحليها عطل . وسعيها زلل . وإجداؤها إجداب وإعطاؤها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابها إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقدها مفسوخ . وعهدها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبار . ويسارها إعسار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شعث . وشيمتها عيث وعبث . وترابها تراث . ولالمسكنها اساس ولالساكنها اثاث . ولاكيدها في كبدها يد . ولالمكرها في جد مكرها جدد . والسعيد من استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الاخرة من الازواد . ومن نظر اليها بعين القلى . وعرف انها دار البلاء والبلى . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الاعراض عن جدواها للفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عائفا . ومن ملكها آنفا . وعن مالها متعففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين . وخصه الله بتاييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فما زاغ بصره وما طغى . (ونهي النفس عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) (النازعات : ٤٠ ـ ٤١) ووقف حياته على احياء معالم الهدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . وأشاعه سنن العدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضل والافضال . حتى كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الامال . واخلص لله عمله . ولاملك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفقه وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:(من كان لله كان الله له) . فلا جرم اذل الله له الملوك الأعزة . ووهب لاعطاف الدولة التباهي بملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقدار . فازال عن مشارع الشريعة الاكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك . ونهج في نصره الدين نهجا اعوز من قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها ديارها وبلادها . واوهى على الكفرة معاقد معاقلها . وطال بحقه على

باطلها . واقصى عن المسجد الاقصى مدنسيه . وازال عنه ايدي غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعد عنها اجناس الانجاس . وقهر الكفر وخذله . ونصر الايمان واخذله . واحيا الكرم كل سنة حسنة . واستمرت محاسن ايامه سنة بعد سنة . وتعدلت بعدله الجوانح . وتذللت بباسه الجوامح . ودانت ودنت له الممالك القاصية . واذعنت إذعنت لحكمه الاماني العاصية . وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته . ونفذت في الشرق والغرب مراسمه . وقامت بالحمد والشكر مواسمه . ووفت بامل الداني والقاصي والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه امله . وولى في كل اقليم من يعمل لله في العدل والاحسان عمله . ثم توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائج الظفر . صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصرة . كاسيا من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مرتويا من صوب الصواب . مبتهجا بنصرة النعيم . متارجا بعرف نسيم التسنيم . وما كان ابهج الايام بايامنه . والاعصار بمزاينه . والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والآفاق بسني احسانه . وما كان اسعدنا بجدوده . واجدنا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده . فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن السماح فلا جدوى ولا جنى . وغاض البحر فلا غنى . وهو الطود فلا ثبات . وذوى الروض فلا نبات . ووهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جدد • وغلب الكمد فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولا قوة ولا عضد . إنا لله وإنا اليه راجعون . ولأمره تابعون ولحكمه طائعون . ولا راد لارادته . ولاصاد لمشيئته . ولاصادف لصادف قضائه . ولا صارف لصرف بلائه ولقد كادت الانوار تغرب . والانواء تعزب . والمنابع تغور . والصنائع تبور . والاحوال تحول • والاهوال تهول . واضواء المعارف لاتضيء . وافياء العواطف لاتفيء . وزهر السماء لاتشرق . وازهار الروض لاتؤنق . ومعاقد الاسلام تهي . وميامن الايام تنتهي . لولا ان الله تدارك الارماق بالطافة . وتلاف الامال باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعد

العبوس . وانزل السكينة عند الزلزال . على النفوس . واجرى الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القواعد . من استمرارها على الائتام . واستقرارها في النظام . واستدرارها بافاويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شموسها من الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السمو . وامتداد اصولها في منابت النمو . وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار . وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت . وانتظمت الالفة المتبددة وتاكدت . وسكنت القلوب الراجفة وانست . وسكتت الالسنة المرجفة وخرست . وانارت الخواطر المظلمة . وافاقت الظنون الراجمة والافكار المنقسمة . وزاد الرونق وزال الرنق . وانجلى الغسق . وتجلى القلق . واستقامت الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجح الارب ووصل السبب ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر • وشد الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقق النصر . من الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة . والمتابعة والمشايعة في كل امر يبرم . وكل حكم يحكم . وكل عزم في قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتمم . ووصل المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشاع على عادة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره . واخلى من كل شاغل باله ورفه اسراره . واراح افكاره . وما في الجماعة الا من خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبع . فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفقت في حال الصدمة الاولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهم . ودفع مكرهم . واوهى امرهم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثروا على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم شملت . ووصاياه نفذت وكملت . وتوجه الملك العادل الى بلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكايد الحاسد الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل الرأفة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سني احسانه وعدله . وشيمتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسبوغ ظلالهم وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة وانفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهر زوري في الرسالة . الى منزل الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه . فما تهيا مسير الرسول الا في اواخر جمادى الاخرة . حتى حصل كل ما اراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله . حتى لايظن انه انفرد بسوله . وقصد مدارة اخوته . وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني بانشاء الكتب وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

-٦٢٢٧-

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصفاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرفه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللفرض متقبل . وبالطاعة ماثل . وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع . وهو يمت بما قدمه من الدوات . واسلفه من الخدمات ونخره نخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذه عصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ازمن الازمات . وسلوة من الاسى واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وفاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاق اوان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضله واولاه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه ماراب . وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ماكدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه اية الآياه وألم بألم الامل . وأحال الحلى الى العطل . وحلأ عن النهل والعلل . وأذهب بهجة الأيام . وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشبت الا لتخمد . وشام حدود العتاة على أنها ما شيمت الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . وأثاروا كوامن الثار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه . وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلئما من عدد أيامها ومسدد انعامها بالدرع الاقوى الأوقى . فانه لايحتفل بحفول

اخلاق أهل الخلاق . ولايتحلحل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد . الشديد السديد . المبير للشرك المبيد . لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مستنيما في صدون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل مايحوز به المراضي الشريفة وسعه . ومستفرغا طاقته في الشغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفتنة الفئة العادية . وكم فرض سنة أعلنت سناها للمجتلين وأحلت جناها للمجتدين الدعوة الهادية . ولكم أخرس دعاة الأدعياء وحرس ولاياته الاولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم اقاليد . ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بممالك الدار العزيزة وعبيدها عباديد،وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب . وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجدها بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع . وعقوده تروق في سلك الملك وتروع ومصر بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة،والانجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة والبيت المقدس من فتوحاته . والملك العقيم من نتائج عزماته . وتوفره على العبودية لمالك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . ومازال ظاهرا على العدا . ناصرا للهدى معليا معالم العلى . محييا مواسم التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضه مديما بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها . وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلبان وقصم اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد الثغور . وسدد الأمور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لها على يد كل ذي عتو . واستمرت على الأيام مساعية في الخدمة ناجحة . ومعانيه على موازين الموازين راجحة.وسيرته حسنة وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة • وسريرتهطاهرة • وختم الله له بالسعادة،وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة . وقضى وقد

قضى من آرائه آرابه وقـدم بين يديه أعمـاله الصـالحة ووفـاه حسـابه . وقبض وعدله مبسـوط ، وأمـره محـوط . ووزره محطوط . وعمله بالصلاح منوط . وأمله بالنجاح مشروط . وملكه بحفظ الله وكلائته مضـبوط . والمذاهـب مهـذبة والمراتـب مرتبة • والأسباب محـكمة والأحـكام مسـببة . والأحـوال حالية . والأعمال راضـية . والمصـالح مصـونة . والمناجـح مضمونة . والرعية مـرعية . والعـوائد مـرضية والقـواعد متأثلة . والمقاصد متحصـلة والثغـور مسـدودة . والخـطوب مصدودة . واصول الدولة ثابتة . وفروع الدوحة نابتـة . ومـاترك أمرا بعده غير مسـتقيم ولانهجـا غير قـويم ، ولاخلف لمن خلفـه مايحتاج الى تقريبه وتقريره .ولأبقى لمن بقي له مايفتقر الى ترتيبه وتدبيره . وماخرج من الدنيا الا وهـو في حـكم الطـاعة الامـامية داخل ، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها . والاستعداد لعيادتهـا ، ومـا بنيت القـواعد الا على اسـاس وصـاياه . ولأمضـيت العـوائد الا على قياس سجاياه ، ولأبرم الا ماعقده ، ولأحكم الا ماأكده . واقتفيت آثاره،

واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . واتمـرت في ائتمـار الاوامـر الشريفة أوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فـان الله ناصرة . ومايفتخر العبد الا بمـا ورثـه في ولائهـا مـن الفخار . وبعثه من آلائها الغـزار . ونعشـه بـرفعة مـن العثار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولايتسم بالملك الا من يتسـامى بأنه لها مملوك . ولايوصـل الى السـعادة الابـدية الا مسـلك الى رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طـاعة امـامه ، فـالمماليك أولاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جـار على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحـزب . مجبـول على الرعب • مغلول بقيد السلم عن الحرب • فان الله أجـرى المشركين مع كثرتهم علي حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسـلامية بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن علي الهدنة ، وهـم لايؤمنون اذا احسوا بالمكنة فان الغـدر في طبـاعهم مـركوز ، والسـوء في

غرائزهم مغروز ، والعبد آخذ بالحزم ، عائذ بتـأييد الله في العـزم متيقظ لخوف غدرهم متحفظ من مـكر مـكرمهم ، مسـتعد بـكل امكان ، مستجد كل مايفتقر اليه مـن نجـدة وقـوة بـكل مكان . مستظهر بما تأكد له مـن مـظاهرة المواقـف المقـدسة في أموره . مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظـاهر بقـوته مـن ايدها وأياديها قوي بـظهوره . مـدل بمـا له مـن الموات الأكيدة . والسـوابق الحميدة . والشـوافع المقبـوله . والذرائع الموصولة . ومـوقن ان الرعاية تـدركه . وأن العناية تملكه ، وأن اختصاصة بفضيلة المائة القديمة يجد له فضـل الاختصـاص . وان فاتحة الحمد منه والاخـلاص تفتـح له بـاب الاحمـاد والاستخلاص، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقـوة النصرة والحول . عول على القاضي ضياء الدين في المثول بالخدمة الشريفـة وانهاء حاله ، والانتهاء الى مناجح آماله . والسفارة فيمـا يسـفر عن صبح المراشد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الأحوال في المصادر والموارد . وأن بـلاغته وفية بـالابلاغ ، وملية بـاشباع القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباغ . وقد فاوضه فيمـا فـوضه اليه . واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه . ولازالت ايادي الدار العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جـديرة ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق . مـوقوفا عزمـه في الأعداء بافناء الآجال وفي الأولياء باجراء الارزاق . ومـاعقر في سـبيل الله فرس أو جرح الا وعوض مالكه بمثله . وزاده من فضله . وحسـب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد ، للحـاضرين معـه في صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذ نزل الفـرنج على عكا في رجـب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمـان

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر الف راس من حصان وحجر • وأكديش طمر وذلك غير ماأطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال • ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه • وماحضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده • فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستعر في الجهاد اجتهادا ، وكان لايلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب به نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخلواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزء والهزل . ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين المؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالاسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالأحكام الشرعية . والأسباب المرضية والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الأخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات . متجاوزا عن الهفوات . تقيا نقيا . وفيا صفيا . يغضي ولا يغضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولاصد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب آملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشتغلا بمهماته . فلما وصل سأله عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجوا والحوا . وضنوا باطلاقه وشحوا . فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسبتها وهي اثنا عشر الف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

منقذ من مصر وهو بها نائبه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي دينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن منقذ يطلبك فأجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفري معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين.أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طلبها ولاذكرها . واراه كأنه ماعرفها على ان صاحب الديوان ما اذكرها . وكان يرضى من الاعمال بما يحمل عفوا صفوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاد والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما دنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة آلاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر آثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضمار يقول:قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار.

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظركم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعنيت بهم خلقا مني ورسما فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت افكر واردد النظر اليه وأكرر فسألني ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلمي بقسمة اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها ويمضيها . ويضع علاماته فيها ويرتضيها . واذا الفى توقيعا بخطي علم فيه . ولم يقف بذشره على سر مطاويه . الفا بما الفه من صحبتي ومناصحتي . وكفاء الملمات وكفاية المهمات بكفايتي . وكان يأمرني باجابة كتب الملوك واصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتي سلمهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وآراب متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة ، فإذا قلت له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه الاصابة فقد كنت مطلعا على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني مراده . وانا اتيقن لمن ولاؤه ووداده . فأتي بمداناة الأغراض ومداواة الاعراض وموازنة الجواهر والاعراض . والتمييز بين اهل القبول واهل الاعراض . فكم اصلح قلمي بينه وبين من عاداه .وراض الجامح من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان مماليكه وخواصه بل امراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد . ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فانكر حل الحلية . وادعى حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والممانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتـــي انجع . ومدد مدادي انفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وســلاح قلمي أجذ وأحد وافتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمي . فقال ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا الوجه المحال لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتـب بعـدها عنده الا من دواة الشبه . وتجنبت طـرق الشـبه وتـركت المحـلاة مخـلاه . وعادت الشـبهية مجتبـاه مجتناه . وكان محـافظا على الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفـروضاتها ومسنوناتها . فما رأيته صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة مـن ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به مـن حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم . وكنت لملازمتي اياه يقدمني اماما في الصلوات . ومسـتشارا في المشـورات . وكان يأخذ بالشرع ويعطي به . ويتدفق مـن حـل المال وطيبـه . ويجـود بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجـود . فمـا تتجـدد جـدة الا ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجـم مصـغيا . ولم يزل لقوله ملغيا . فما عنده منجا لمن جاء بمين المنجمين ولا قبـول لمنطـق المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين في كل قـاص ودان . ولا يتعيف ولا يتـطير ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم تـوكل على الله . وأقبـل على محكم امره واعرض عن مظان الاشـتباه . فـكم فـل سـفه ذي الفلسفة . ودل بمعروفه في المعرفة . ومازال ناصرا التوحيد . قاهرا جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سنى السـنه . مسـتحليا جنى الجنه . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه . ويقصي اهـل التشـبيه . ويديم اسـتفادة فقـه الفقيه . واستزادة نبـاهة النبيه . ووجـاهة الوجية . فـالعالمون في عدله . والعاملون في فضله والبلاد في امنه . والعباد في منه . والبرية

في برسعيه . والاسلام في حمـاية حميتـه . والدين في ادالة دولتـه .
وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومـادة المودة له وافية بـوفائه .
وقامت بعده طريرة طريه . ومـن العـار عريه ، وببر البـرية مـن
الشائبات والشائنات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه .
فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضـلها وظـاهرها. وفخـرت
بمفاخرها . ورويت بروائهم آثار مآثرها ، وتبجلت الآفاق وتأرجت
بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها ،
والسماء في زواهرها . والحمـد لله مجـري الاقـدار ومصـفي
الاكدار ، ومدبر الليل والنهار ، ومدبر الايراد والاصـدار ، وسـلم
تسليما كثيرا آمين

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

(١) مطموس بالاصل .
(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
(٣) مطموس بالاصل

(٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .
(٥) طمس بالاصل بثلاثة اسطر .
(٦) مطموس بالاصل .
(٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لايعلم الآن مكان وجودها ، سوى أنه سبق المرحوم المختار السوسي ان أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بالرباط . وقد لحق النسخة بعض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال اضاف لي لغة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وقديما وجد ابو شامة ـ صاحب الروضتين ـ التعامل مع البرق الشامي امرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل للكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك ـ انظر الروضتين : ٢ ، ٧٤ ـ ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

١ ـ الحيعلة : قولك حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، القاموس
٢ ـ الوخش : الرديء من كل شيء ، ورذال الناس ، القاموس .
٣ ـ كرثة الغم : اشتد عليه ، القاموس .
٤ ـ طفر : قفز ، القاموس
٥ ـ الد أماء : البحر ، القاموس .
٦ ـ النهيت : الزئير . القاموس .
٧ ـ سحابة دلوح : كثيرة الماء ، القاموس .
٨ ـ الريح تحركت فهي ذؤوج ، وللريح نئيج : اي مر سريع ، القاموس .
٩ ـ بلخ : تكبر ، القاموس .
١٠ ـ بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
١١ ـ في وادي الأردن قرب عقبة أفيق .
١٢ ـ الاوام : الدخان ، القاموس .
١٣ ـ السلت : القطع والاستئصال .
١٤ ـ ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
١٥ ـ البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
١٦ ـ يقق ، ابيض القاموس .
١٧ ـ طحرت العين : قذاها ، القاموس .
١٨ ـ اي تنعدم الاقوات فيها .
١٩ ـ الأمره : الابيض ، القاموس .
٢٠ ـ اي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
٢١ ـ حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
٢٢ ـ الأطعمة التفهة : ماليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
٢٣ ـ المدنر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
٢٤ ـ السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
٢٥ ـ الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
٢٦ ـ الحلاحل : السيد الشجاع ، القاموس .
٢٧ ـ الحصن : حلق الشعر ، القاموس .
٢٨ ـ العنق سير فيه تبختر والذميل السير اللين ماكان فوق العنق ، القاموس .
٢٩ ـ الأري العسل ، القاموس .
٣٠ ـ لثق يومنا : ركدت ريحة وكثر نداه ، القاموس .
٣١ ـ الاوام : العطش ، القاموس .
٣٢ ـ أمهى السمن والشراب : أكثر ماءه ، وامهى الحديدة : احدها وسقاها الماء ، القاموس .
٣٣ ـ انعط العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
٣٤ ـ اللوب : العطش ، أو استدارة الحائم حول الماء وهو عطشان لايصل اليه ، القاموس .
٣٥ ـ ابهى الخيل : عطلها من الغزو ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

٣٦ ـ الضفو : السبوغ والكثرة وفيضان الحوض ، القاموس .
٣٧ ـ رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .
٣٨ ـ السونيق : الصقر أو الشاهين ، القاموس .
٣٩ ـ تنقل : أزبد ، القاموس .
٤٠ ـ حدمة النار : شدة اشتعالها ، القاموس .
٤١ ـ خظا لحمه : اكتنز ، القاموس .
٤٢ ـ باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .
٤٣ ـ كذا بالأصل وهو وهم فلعله أراد قوله تعالى « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)
٤٤ ـ الكنهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .
٤٥ ـ السني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدروع أو السلاح . القاموس اللسان .
٤٦ ـ اي الثغرية أو الحدودية .
٤٧ ـ الغرب : النشاط والتمادي والحدة ، القاموس .
٤٨ ـ السنور جملة السلاح ، القاموس .
٤٩ ـ الدأماء : البحر ، القاموس .
٥٠ ـ الجماء : الغفير. النهاية لابن الاثير .
٥١ ـ التأريث : الاغراء بين القوم وايقاد النار ، القاموس .
٥٢ ـ القونس : مايوضع على أعلى الرأس ، القاموس .
٥٣ ـ التامور : علقة القلب ودمه ، النهاية لابن الاثير .
٥٤ ـ الوج : القطا والنعام ، القاموس .
٥٥ ـ حزا : خمن أوحزر وقدر ، القاموس .
٥٦ ـ ضبر : وثب ، القاموس .
٥٧ ـ المشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .
٥٨ ـ الزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .

المحتوى

